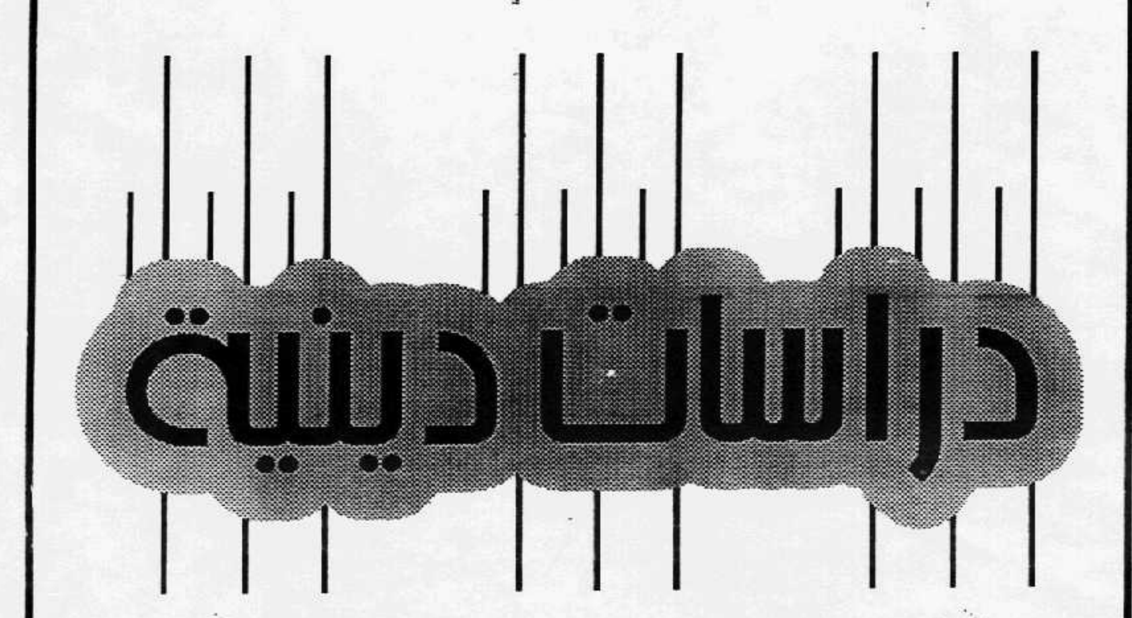
جامعة الزقازيق
كلية التربية



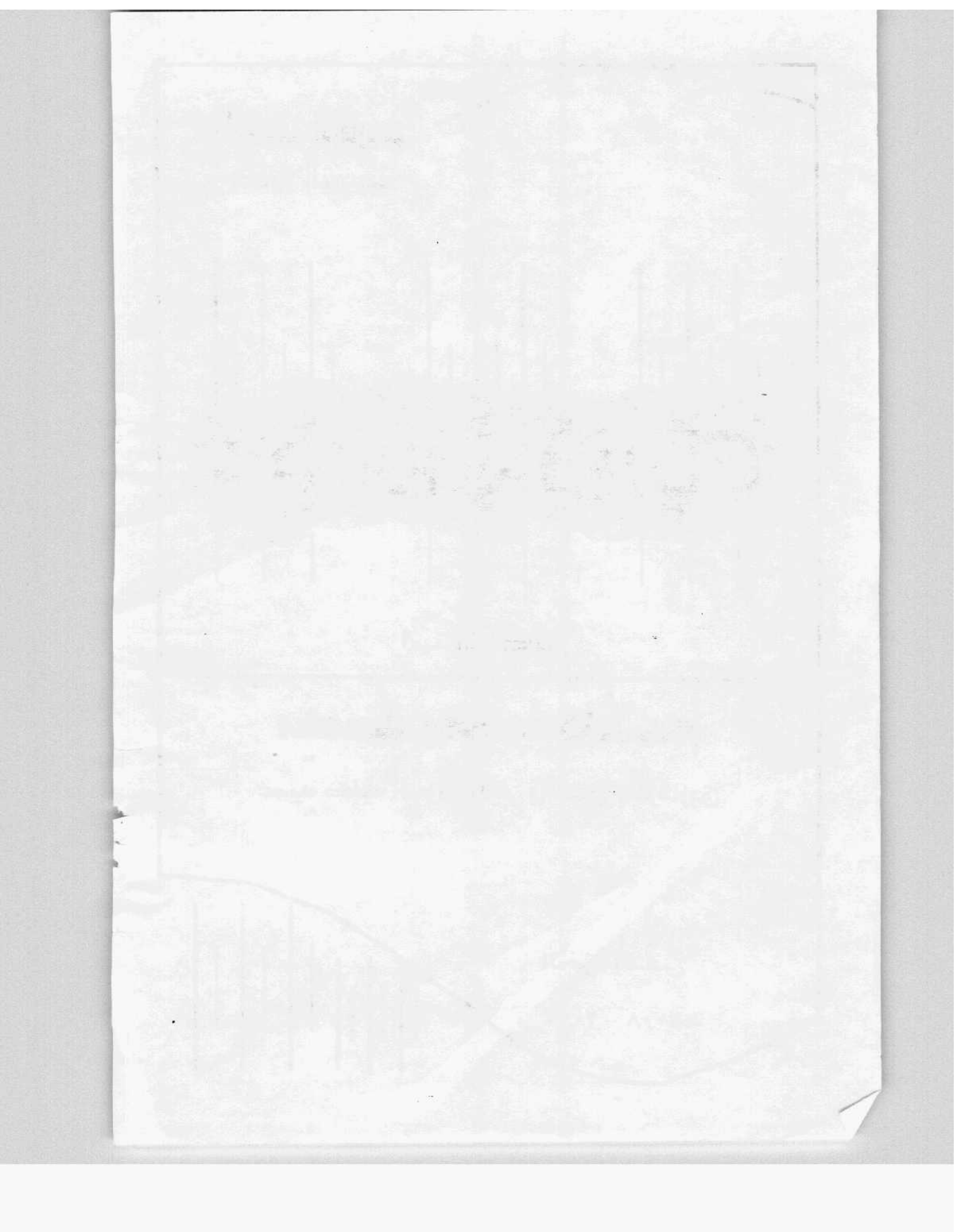
أستاذ دكتور

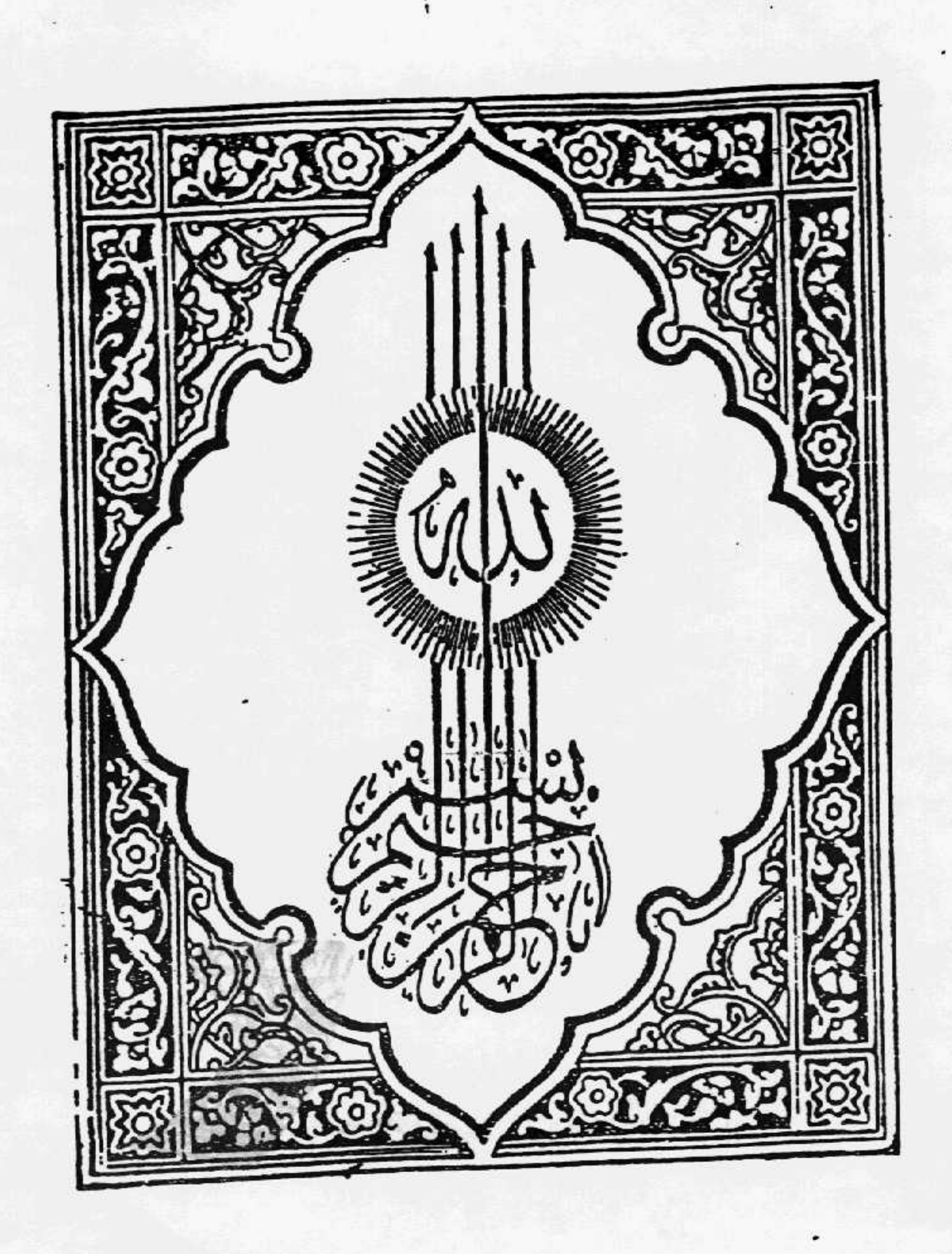
محمد محمود هاشم

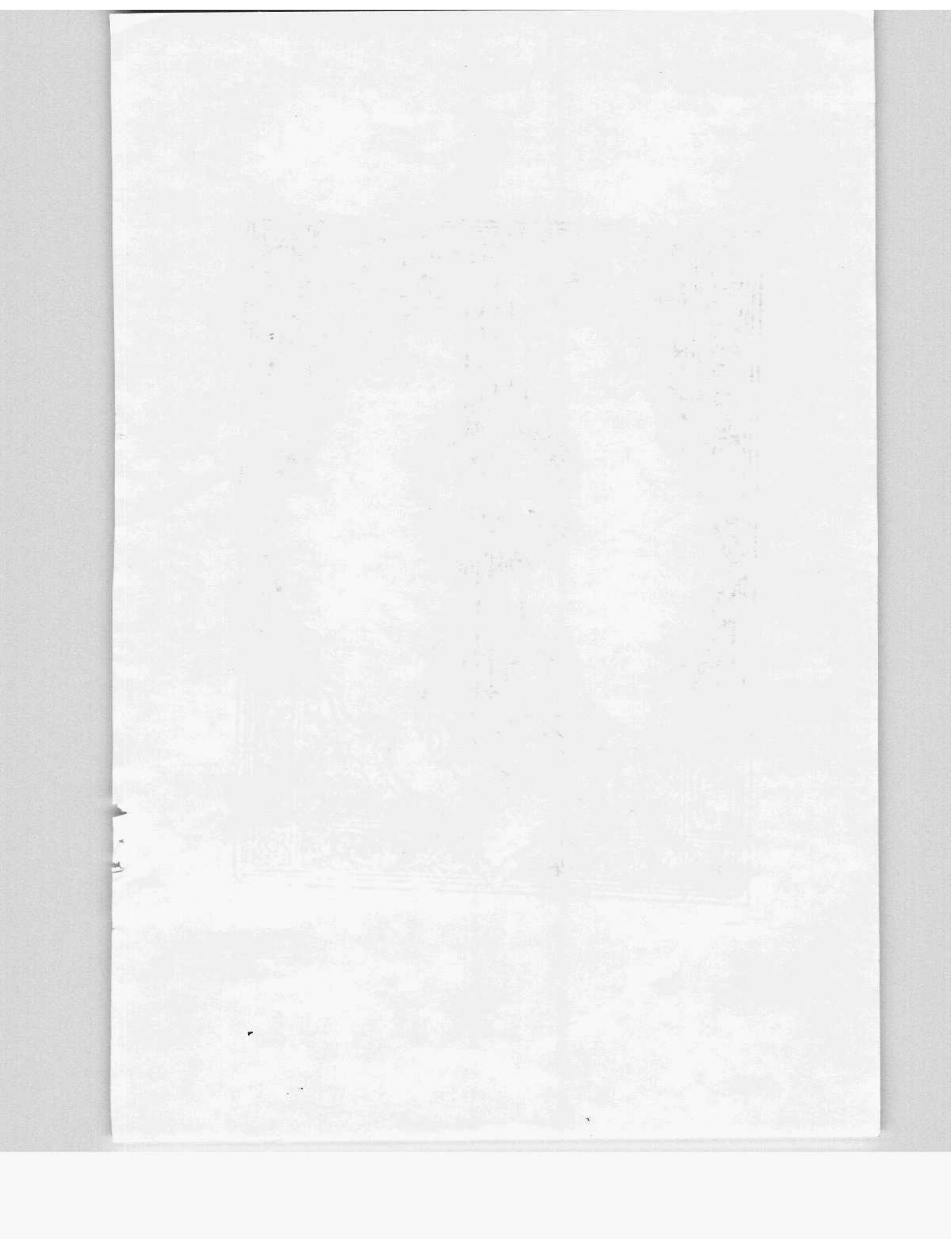
عميد كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق

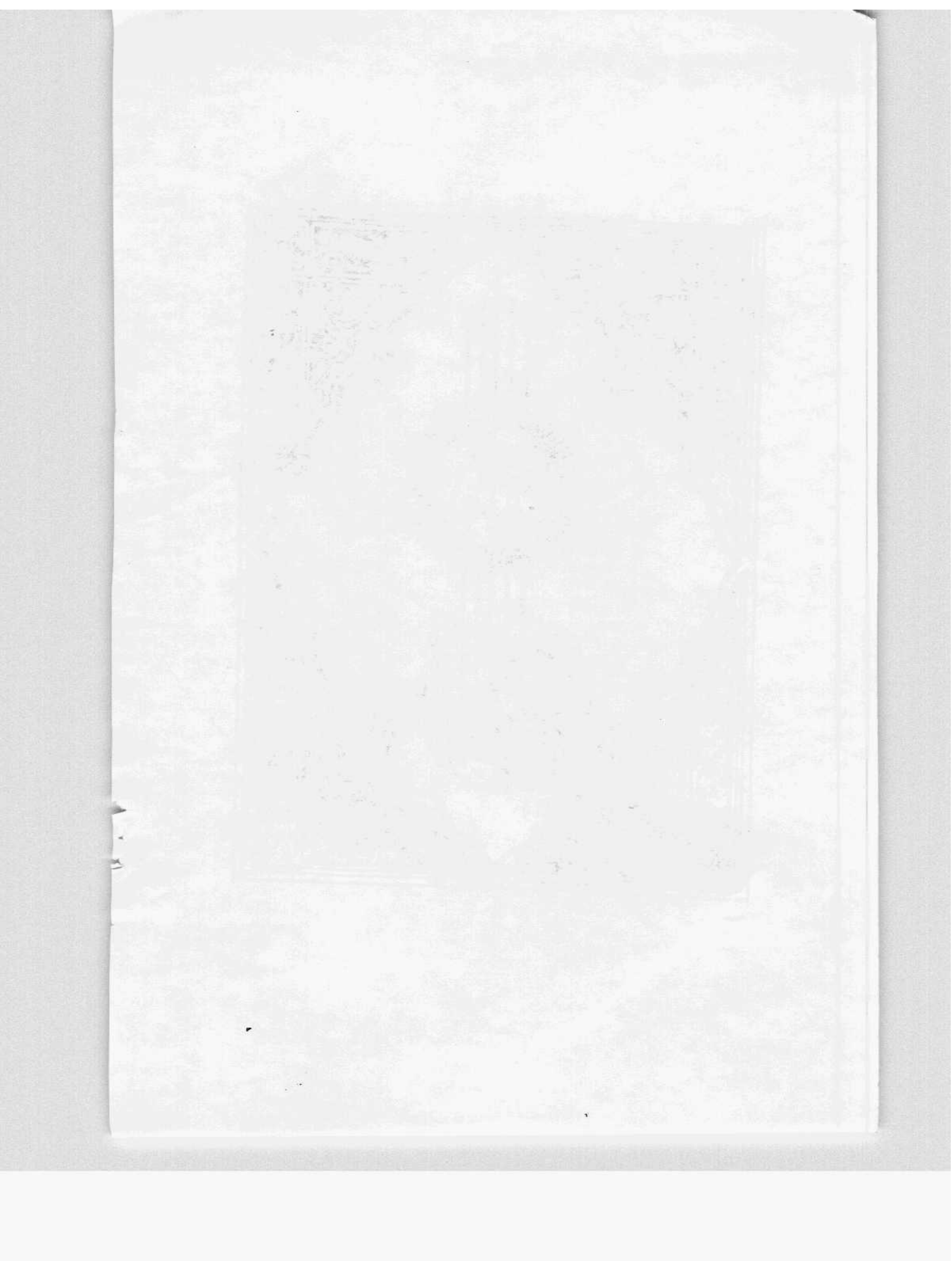
الجزء الثانى

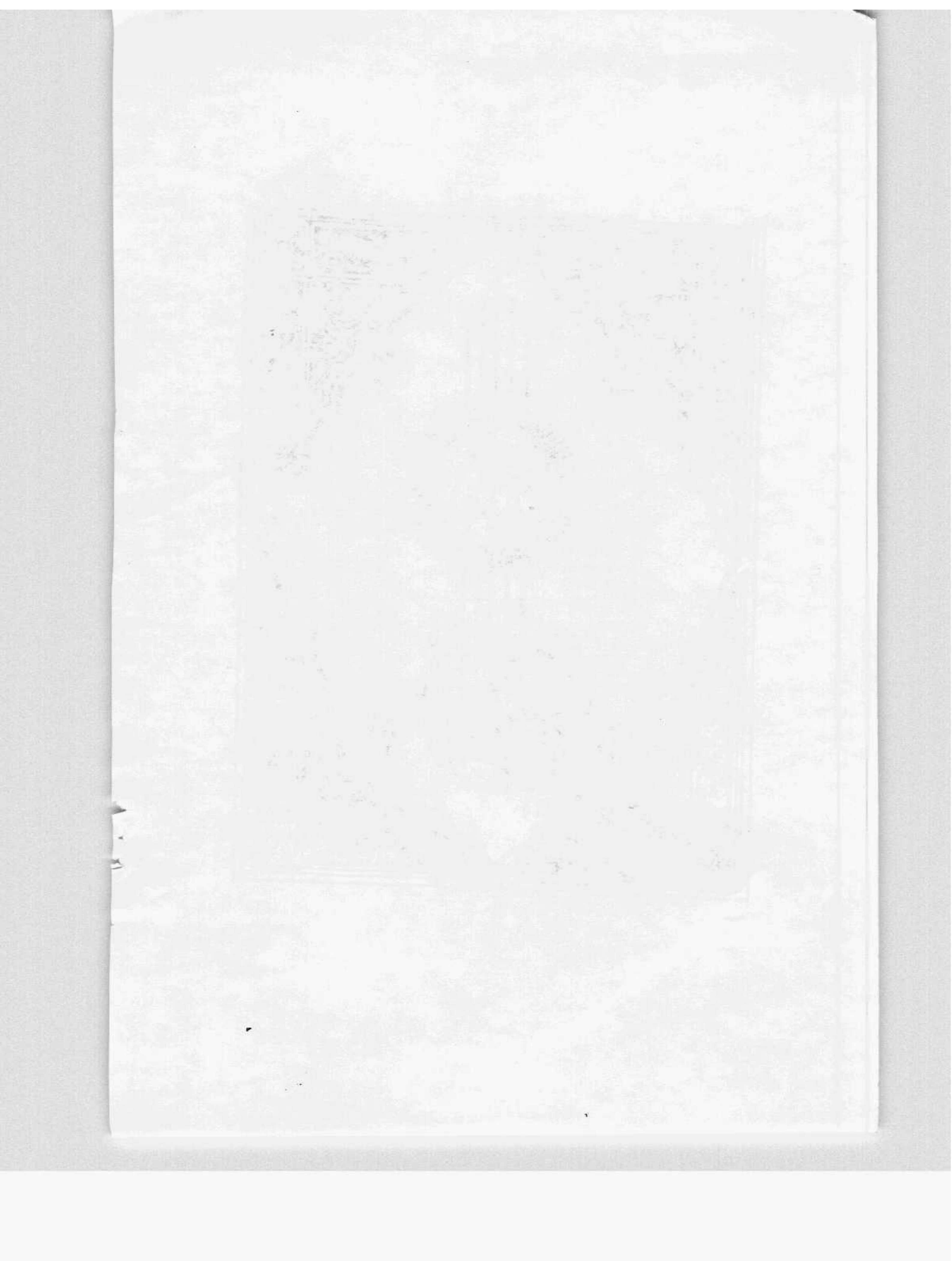
٢٠٠٧ - ٢٠٠٨

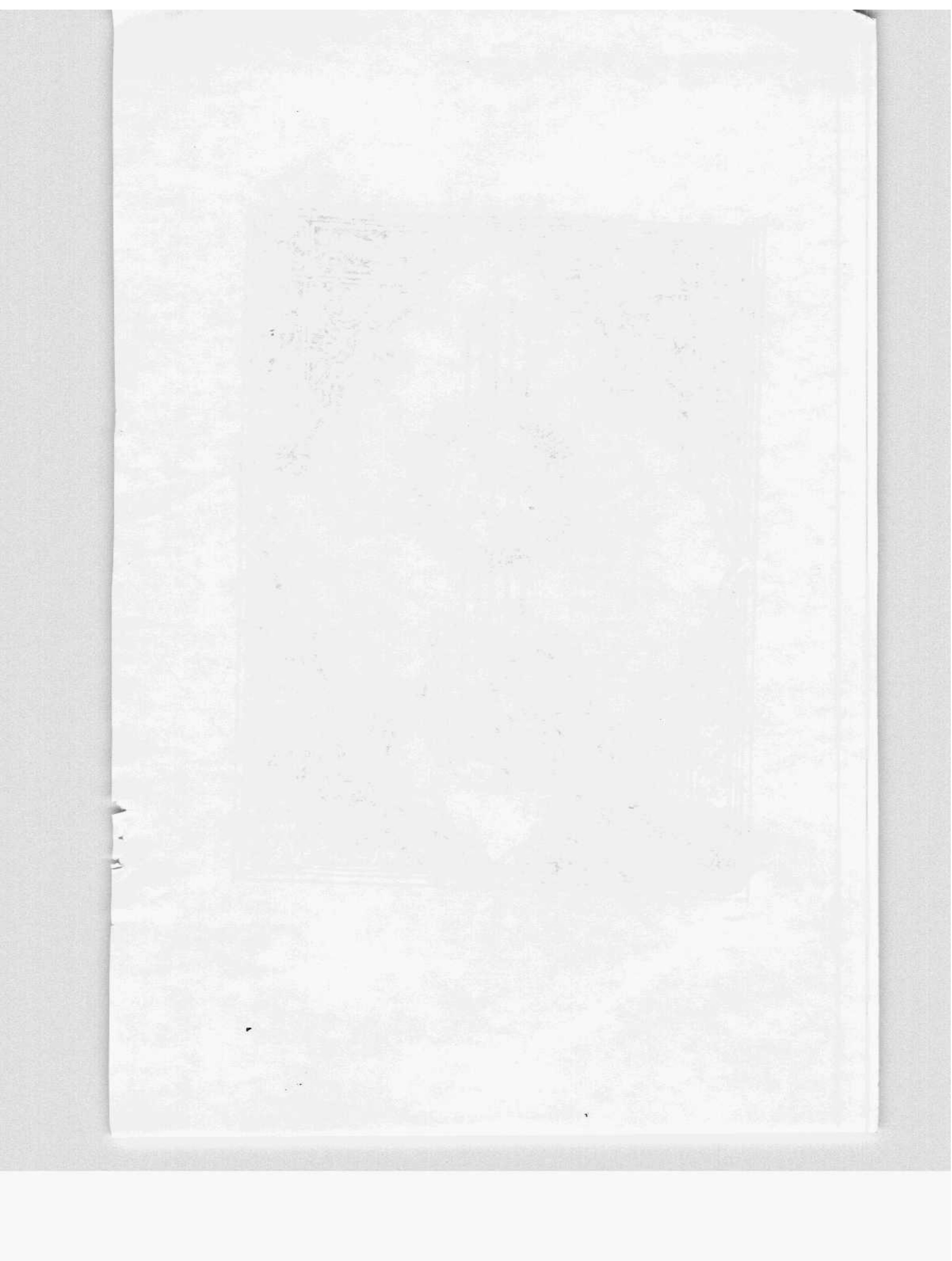



الله
بسم الله الرحمن الرحيم









الفصل العاشر

شبهات حول خاتم الأنبياء

إن من يريد – مخلصا – أن يفهم آيات القرآن الكريم فإنه يسلك السبل المؤدية إليه ، ويستصحب الوسائل والأدوات المعينة عليه ، وهى محددة وميسورة لمن يريدها وليس من بينها الآثار غير الصحيحة ، فإنها تبعد الإنسان عن الفهم الصحيح بدل أن توصله إليه .

ومما يؤسف له أن بعضا من المسلمين . بل من المفسرين للقرآن الكريم يتمسكون بهذه الآثار غير الصحيحة ، ويحكمونها فى تفسير كلام رب العالمين إلى حد يجعل تفسيرهم مجافيا للعقل والمنطق السليم ، ولا يشفع لهؤلاء حسن النية ، وسلامة المقصد فقد تترتب عليها من النتائج الضارة ، والآثار المرة ما يترتب على التصدى للكلام فى تفسير القرآن بسوء نية :

بل قد تكون نتيجة الأول أشد ضرراً ، وأخطر أثراً من الثانى ، ذلك أن كلام رجال الإسلام عن الإسلام والقرآن تسبقه الثقة فيهم ، والاطمئنان إليهم ، فيؤخذ كلامهم مأخذ القبول والتسليم به ، أما كلام أعداء الإسلام عن الإسلام . ونبيه وقرآنه ، فيسبقه الشك فيهم ، والتوجس منهم ، فيوضع كلامهم على بساط المناقشة والتأمل الذى يميز خبيثه من طيبه ."

ثم إن طعون المستشرقين على الإسلام ، وسهامهم التى توجه إليه من نواحى مختلفة يرتكز بعضها على مثل هذه الآثار غير الصحيحة

فى تفسير القرآن الكريم وأيسر سبل الهجوم على شىء هو ما كان له سند من داخل هذا الشىء .

وكثيراً ما التقط أعداء الإسلام خيوطا من هذه الآثار غير الصحيحة ونسجوا منها ثيابا ألبسوها الإسلام ، وأظهروه من خلالها بمظهر المتهافت المتناقض ولقد توجه اهتمام المستشرقين إلى الطعن فى القرآن – دعامة الإسلام الكبرى ومعجزته العظمى ، وإلى القدح فى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قاصدين بذلك تقويض الإسلام من أساسه [illegible] فى هذا السبيل يركزون جهودا كبرى على الآيات المتعلقة بنبينا صلى الله عليه وسلم ، لكى يصيبوا الهدف من ناحيتين ويصيدوا بحجر واحد عصفورين .

ومن ذلك : فرية الغرانيق : وغيرها وسنتصدى لها – بإذن الله وتوفيقه بما يبين وجه الحق ، ويخزى الباطل ويزهقه ولا تصيب غيرهم . وعلى نفسها جنت براقش .

أولا : فرية الغرانيق

تشبث بعض المستشرقين بما ذكره بعض المفسرين ، وكتاب السيرة من قصة الغرانيق وهى تحمل طعنا فى القرآن بأن الشيطان ألقى فيه ماليس منه ، وطعنا فى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه مدح الأصنام بكلام أجراه الشيطان على لسانه ، وأوهم أنه من القرآن ، وفى هذا مايرفع الثقة بالرسول فيما يبلغه عن ربه . بل وفيما بلغه الرسل عليهم الصلاة والسلام من قبله .

وقد ذكروا هذا عند تفسير قول الله تعالى :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان

أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم»(١).

ذاهبين إلى أن «حادث الغرانيق» هو سبب نزول الآية، وفسروا
ية على مقتضاه من أن الشيطان ألقى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم -
يقرأ سورة «النجم» عندما بلغ في قراءته «أفرأيتم اللات والعزى
الثالثة الأخرى».

هاتين الجملتين: تلك الغرانيق العلى — وإن شفاعتهن لترتجى.
ثم بهما ففرح المشركون لمدح النبي آلهتهم، واغتم الرسول لما قال له
ل — بعد ذلك — ماجئتك بهاتين. فسلاه الله من غمه بهذه الآية.

وممن ذكر هذا المفسر ابن جرير الطبري الذي رواه عن محمد بن
القرظي، ومحمد ابن قيس قالا:

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في نادٍ من أندية قريش كثير
، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء، فينفروا عنه، فأنزل الله عليه
لنجم إذا هوى — ماضل صاحبكم وماغوى»

فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ «أفرأيتم اللات
زى — ومناة الثالثة الأخرى» ألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك
انيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى. فتكلم بها، ثم مضى، فقرأ السورة
ها، فسجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعاً معه، ورفع الوليد
المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على
جود، فرضوا بما تكلم به، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت،

---

(١) سورة الحج الآية ٥٢

وهو الذي يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك .

قالا : فلما أمسى أتاه جبريل عليهما السلام فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه . قال : ما جئتك بهاتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . افتريت على الله ، وقلت على الله مالم يقل ، فأوحى الله إليه .

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره » إلى قوله .

« ثم لاتجدلك علينا نصيرا ، فما زال مغموما مهموما حتى نزلت إليه .

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » .

قال : فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم ، وقالوا : هم أحب الينا ، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان(١) .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة « النجم » فلما بلغ هذا الموضوع « افرأيتم اللات والعزى — ومناة الثالثة الأخرى » قال : فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى — وإن شفاعتهن ترتجى . قالوا . ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ... » الآية(٢) .

---

(١) جامع البيان ج ١٧ ص ١٣١

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٩

ورواه البزار فى مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن
عبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب – الشك
الحديث – أن النبى صلى الله عليه وسلم قرا بمكة سورة « النجم » حتى
نهى إلى « افرأيتم اللات والعزى » وذكر بقيته(١) .

ومعنى الآية عند هؤلاء كما ذكر ابن جرير :
لم نر يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم ، ولا نبى محدث
بمرسل إلا إذا تمنى . والتمنى : إما حديث النفس ، فيكون تمنى
صلى الله عليه وسلم هو : ماحدثته نفسه من محبته مقاربة قومه فى ذكر
م ببعض ما يحبون ، وفى بعض الأحوال محبته أن لا تذكر
م بسوء .

وإما أن التمنى : بمعنى القراءة والتلاوة ، فيكون المعنى : وما أرسلنا
لك من رسول ولا نبى إلا إذا تلا كتاب الله ، وقرأ ، أو حدث
لم ، فيذهب الله ما يلقى الشيطان من ذلك على لسان نبيه ، ويبطله ،
حكم الله آياته ، بأن يخلص آيات كتابه من الباطل الذى ألقى
لشيطان على لسان نبيه(٢).

ومما سبق يتبين أن القائلين بوقوع « موضوع الغرانيق » يستندون إلى :
١ – الآثار التى نقلوها .
٢ – قوله تعالى « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك
ى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا » ، وقوله « وما أرسلنا من قبلك
رسول ولا نبى . . . » الآية .

---

١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٩
٢) جامع البيان ج ١٧ ص ١٣٢ – ١٣٤

٣ ـ أنه السبب فى عودة مهاجرى الحبشة بعد أن ترامى إليهم خبر الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش على أثر ذكر آلهتهم بخير .

الرد على فرية الغرانيق

انصافا للحقيقة نذكر ونؤكد أن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يذكر آلهة المشركين بخير ، ولم يمدح الغرانيق على النحو السابق مطعون فيه من جهات ثلاث : الأولى : جهة السند والمتن ، الثانية . جهة معارضته للقرآن ، الثالثة جهة معارضته للعقل .

❊ أما جهة السند :

فروايته مرسلة (لم يذكر فيها الصحابى) روايه ابن جرير مرسلة ، ورواية ابن أبى حاتم مرسلة — كما سبق — وهو مرسل تابعى — فى الاحتجاج به خلاف ، وليس مرسل صحابى الذى يحتج به(١) .

---

(١) المرسل قد اختلف فى الاحتجاج به .
فذهب بعض المحدثين إلى عدم الاحتجاج به ، لأن الراوى المحذوف قد يكون غير ثقة والعبرة فى الرواية بالثقة .
قال الإمام مسلم : إن المرسل فى أصل قولنا ، وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة .
وقال ابن الصلاح : وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل ، والحكم بضعفه هو الذى استقر عليه آراء جماعة حفاظ الحديث ، ونقاد الأثر ، وتداولوه فى تصانيفهم وذهب آخرون إلى الاحتجاج بالمرسل : ذكر ابن الصلاح : أن الاحتجاج بالمرسل مذهب مالك وأبى حنيفة وأصحابهما (اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٤٨
والأرجح عند التفرقة بين مراسيل التابعين ، ومراسيل الصحابة ، فأما مراسيل التابعين فيجرى فيها الخلاف السابق ، وأما مراسيل الصحابة فمقبولة ، ويحتج بها ، لأن أكثر رواياتهم عن الصحابة ، وكلهم عدول ، فجهالتهم لا تضر ، ورواياتهم عن غيرهم نادرة ، وإذا رووها بينوها ، وفى الصحيحين من مراسيل الصحابة الكثير ، وحديث الغرانيق ليس مرسل صحابى حتى يحتج به ، وإنما مرسل تابعى وفى الاحتجاج به خلاف ..

قال القاضي عياض : إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون(١). ورواية البزار المتصلة فيها ضعف .

قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح(٢) .

---

(١) الشفا جـ ٢ ص ١١٧

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٩

وضعف رواية البزار المتصلة يتمثل فى الآتى :

١ ـ تفرد أمية بن خالد بنقل هذا الحديث مسندا عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس ، وغير أمية بن خالد يرويه مرسلا عن سعيد بن جبير عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير ذكر ابن عباس .

٢ ـ وقوع الشك فى حديث شعبة ، فسعيد بن جبير ، وإن كان معتمدا لكن تردد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان بمكة فى هذه القضية ، أو بغيرها .

٣ ـ رواية الكلبى لهذا الحديث عن أبى صالح عن ابن عباس مضعفة أيضا بأن الكلبى غير ثقة ، وأن أبا صالح لم يسمع من ابن عباس ففيها انقطاع والمنقطع من أقسام الضعيف فلا يحتج به (نسيم الرياض للشهاب الخفاجى جـ ٤ ص ٨٧)

وإذا كان من العلماء من يحتج بالضعيف إذا كثرت طرقه ، وبناء عليه يعتمد حديث الغرانيق كابن حجر ، فانا سنعرف رأيه ثم نناقشه فيه .

موقف ابن حجر من حديث الغرانيق

اعتمد ابن حجر حديث الغرانيق مع اعترافه بضعفه ، وحجته فى هذا كثرة طرقه وأن الضعيف يقوى إذا كثرت طرقه ، فقال :

وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف ، وإما منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا ، مع أن لها طريقين آخرين مرسلين : رجالهما على شرط الصحيحين ـ أحدهما ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب : ←

وإن أصحاب كتب الحديث المعتمدة لم يذكروا حديث الغرانيق ، كالبخارى ومسلم وأصحاب السنن ، وهذا يستأنس به على عدم صحته ، إذ لو كان صحيحا لأخرجوه أو بعضهم ، فقد ذكروا حديث سجود النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه عندما قرأ سورة « النجم » .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « سجد النبى صلى الله عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » .

روى أيضا بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال : فسجد رسول الله صلى الله عليه

← حدثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه .

والثانى : ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان ، وحماد بن سلمة فرقهما عن داود بن أبى هند عن أبى العالية ، إلى أن يقول : وهى مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض (فتح البارى ج ٨ ص ٣٣٣)

مناقشة ابن حجر

يمكن مناقشة ابن حجر فى قوله هذا على النحو التالى :

أولا : أن طريق سعيد بن جبير — وهى المتصلة — مطعون فيها بالعلة — كما سبق —

ثانيا : كل طرق هذا الحديث ما عدا طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع باعترافه ، والضعيف والمنقطع لا يحتج بأى منهما .

ثالثا : لا نوافق ابن حجر على أن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا فقد توضع القصة ، وتروى بطرق متعددة ، فكثرة الطرق لا تكفى وحدها للاعتداد بما جاءت به .

رابعاً : أن حديث الغرانيق ليس مرسل صحابى حتى يحتج به ، وإنما مرسل تابعى ، وفى الاحتجاج به خلاف — كما سبق .

خامساً : إغفال البخارى ومسلم وأصحاب السنن ذكر حديث الغرانيق يدل على عدم صحته إذ لو كان صحيحا لأخرجوه أو بعضهم .

وسلم ، وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا ، وهو أمية بن خلف(١) .

ومعلوم : أن عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكذب فى التبليغ والتقول على الله مالم يقل قد ثبت بالأدلة القاطعة . المعجزة والإجماع فأى دليل آخر يناقضها لا يقبل ، فما بالك عند ما يكون هذا الدليل الآخر حديثاً مرسلا ، أو منقطعا ، أو مطعوناً فى بعض رواته ، إنه أحرى أن لا يقبل .

الطعن فى حديث الغرانيق من جهة المتن

بالإضافة إلى الطعون السابقة فى سند الحديث ، وجهت طعون إلى متنه باختلاف كلماته .

حكى القاضى عياض عن القاضى بكر بن العلاء قوله بضعف نقلته ، واضطراب رواياته وانقطاع اسناده ، واختلاف كلماته ، فقائل يقول : إنه فى الصلاة ، وآخر يقول قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ماهكذا أقرأتك ، وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبى ذلك قال ، والله ما هكذا نزلت إلى غير ذلك من اختلاف الرواة(٢) .

وجاءت كلمات الحديث فى بعض الروايات : تلك الغرانيق العلى — وإن شفاعتهن لترتجى وفى بعض آخر : ترتضى ، وفى رواية : لترجى . وفى بعض الطرق زيادة : مثلهن لا ينسى . وفى بعضها نقص أى ذكر ؛

---

(١) صحيح البخارى ج ٣/١٢٧

(٢) الشفا ج ٢/١١٧ و ١١٨

إن شفاعتهن ترتجى . دون ذكر الغرانقة ، والغرانيق فهذا الاختلاف بين الروايات يجعل الحديث مضطربا .

والحديث المضطرب هو . الذى اختلف الرواة فيه سواء كان الاختلاف فى السند أو فى المتن ، أو فى كليهما ، ويقع الاختلاف بالتقديم والتأخير ، والزيادة والنقص وبإبدال راو مكان آخر . وبالتصحيف فى السند ، أو المتن .

والاضطراب موجب لضعف الحديث، لإشعاره بعدم ضبط الراوى، ومن شروط الصحة أن يكون الراوى ضابطا(١) .

---

(١) حكم الحديث المضطرب :
ترك العمل به إن لم يترجح إحدى الروايتين المختلفتين على الأخرى بكون راويها أحفظ من راوى الرواية المخالفة لها أو أكثر صحبة للمروى عنه ، وأما إذا ترجحت إحداها بشىء من ذلك ، فالحكم للراجح فيعمل به ، ويترك المرجوح ، وحينئذ يخرج عن كونه مضطربا (الأسلوب الحديث فى علوم الحديث للشيخ أمين الشيخ ج ٢ ص ٦٩)

وهذا الحديث إذا قارناه كما جاء فى رواية الطبرى وأمثاله ، بما جاءت به فى رواية البخارى وغيره من أصحاب الكتب المعتمدة فإننا نجد بينهما فرقا كبيراً . رواية الطبرى وأمثاله تثبت حادث الغرانيق ، ورواية البخارى ومن يقاربونه لم تشر إليه ، ورواية الثقة مردودة إن خالفت رواية من هو أوثق . وبهذا يكون حديث الغرانيق شاذاً ، بل من القسم المردود منه .

فإن الحديث الشاذ قسمان : الأول مقبول . وهو الذى لا يخالف رواية من هو أحفظ وأضبط منه ، بأن يروى حديثا يتفرد به ، ولا يرويه غيره ، وهو عدل ضابط ، فهذا مقبول ، ويدخل فى أفراد الثقات .

الثانى : ما خالف رواية من هو أحفظ وأضبط منه ، وهذا هو المردود ، والمردود من قسم الضعيف الذى لا يحتج به ، ويلحق به الفرد الذى ليس فى رواية ما يكون جابرا لما يوجبه التفرد والشذوذ من النكارة والضعف (الأسلوب الحديث ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦) .

ومع التسليم بأن رواة الطبرى ثقات — فرواة البخارى أوثق منهم ، فيكون الحديث شاذاً لا يحتج به ، بالإضافة إلى أنه مضطرب — كما سبق — وبهذا طعن فى حديث الغرانيق سنداً ومتناً .

معارضة حادث الغرانيق للقرآن

في القرآن الكريم آيات متعددة تنقض ما ادعى من حادث الغرانيق، وتأتي عليه من القواعد .

أولها : قوله تعالى

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لا تخذوك خليلا - ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا - إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » .

فهذه الآيات تفيد : أن الرسول لم يقرب من الميل إليهم ، لتثبيت الله إياه ، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الممات ، لكن الله لم يذقه هذا العذاب ، فهو إذن لم يقرب من الميل إليهم لتثبيت الله له .

وهذه الآيات لا يستدل بها لإثبات حادث الغرانيق ، بل لإبطاله .

يقول القرطبي : ومما يدل على ضعفه - حديث الغرانيق - أيضا ، وتوهينه من الكتاب قوله « وإن كادوا ليفتنونك ... » والآيتين ، فإنهما تردان الخبر الذي رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ، فضمون هذا ومفهومه : أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا ، وهم يرون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال عليه الصلاة والسلام . إفتريت على الله ، وقلت مالم يقل . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له(١) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ٤٤٧٧

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٤١٧

ثانيها .

قوله تعالى « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين » .

فالآيات تفيد أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لو افترى على الله مالا يصح نسبته إليه لأهلكه وعذبه ، وما يستطيع أحد من الناس أن يدفع عنه هذا ، وحيث أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يهلكه الله ، ولم يعذبه فهو إذن لم يقل على الله مالم يقله الله .

قال ابن كثير . لو كان محمد صلى الله عليه وسلم — كما يزعمون — مفتريا علينا فزاد فى الرسالة ، أو نقص منها ، أو قال شيئا من عند نفسه فنسبها إلينا، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة ، وما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه اذا أردنا به شيئا من ذلك والمعنى فى هذا . بل هو صادق بار راشد ، لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات ، والدلالات القاطعات(١) .

ثالثها : قول الله تعالى « والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى » .

فقد أقسم الحق سبحانه بالنجم على أن نبينا صلى الله عليه وسلم راشد تابع للحق ليس بضال ولا غاوى ، وأنه ما تقول قولا عن هوى وغرض إنما يقول ما أمر بتبليغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولانقصان وعلى هذا فالزيادة التى جاءت فى قصة الغرانيق باطلة لا أصل لها ، لأنها عن هوى ، لا عن وحى ، والله قد أقسم بأن ماينطق به رسوله عن وحى لا عن هوى .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٤١٧

رابعها:

قول الله تعالى فى وصف القرآن الكريم « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

فعلى أن الباطل هو الشيطان ، فقد ثبت أن الشيطان لا يستطيع أن يغير فى القرآن شيئاً وبالتالى لا يستطيع أن يلقى فى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم .

وعلى أن الباطل الذى من أمامه هو النقصان ، والذى من خلفه هو الزيادة ، فيكون القرآن الكريم محفوظاً من النقصان فيه . والزيادة عليه ، وقصه الغرانيق فيها زيادة فى القرآن ما ليس منه ، فهى إذن باطلة .

قال على بن محمد المعروف بالخازن قيـــل : الباطل هو الشيطان ، فلا يستطيع أن يغيره وقيل : إنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد ، فيأتيه الباطل من خلفه فعلى هذا يكون معنى الباطل الزيادة والنقصان(١) .

خامسها :

قول الله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(٢) .

يؤكد الله تعالى بقوله « إنا نحن » أنه هو المنزل للقرآن على وجه اليقين ، وأنه هو الذى نزله محفوظاً من الشياطين ، وهو حافظه فى كل وقت من الزيادة والنقصان ، والتحريف والتبديل ، وحادث الغرانيق فيه زيادة ، فهو باطل ، لأن القرآن محفوظ من الزيادة .

قال الخازن : الضمير فى « له يرجع إلى الذكر يعنى : وإنا الذكر الذى أنزلناه على محمد لحافظون . يعنى من الزيادة فيه ، والنقص منه ـ والتغيير والتبديل ، والتحريف .

---

(١) لباب التأويل ٤/ ٩٢ (٢) سورة الحجر الآية ٩ .

فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها . لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه . أو ينقص منه حرفاً واحداً . أو كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم ، بخلاف سائر الكتب المنزلة ، فإنه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقى مصونا على الأبد محروساً من الزيادة والنقصان (١) .

سادسها .

قول الله تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »(٢)

المعنى .

وإذا تتلى على أهل مكة آياتنا الظاهرة فى دلالتها على وحدانيتنا وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قال الذين لا يؤمنون بالبعث ائت بقرآن ليس فيه ذم آلهتنا ، أو بدل منه ما نكره ، وائت بغيره من عند نفسك .

فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم . ليس لى أن أغيره من قبل نفسي لأنه ليس من عندى ، وإنما هو من عند الله ، فالتصرف فيه إلى صاحبه وهو الله لا إلى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى » .

أى ما أتبع فى شىء مما أفعل وأترك إلا ما يوحى إلى فى القرآن من غير تغيير له فى شىء أصلا (٣) .

---

(١) تفسير الخازن ٣ / ٩٤ (٢) سورة يونس الآية ١٥

(٣) مراح لبيد لمحمد نووى ، والوجيز فى تفسير القرآن العزيز للواحدى ١/٣٦٤

ولو أن الشيطان ألقى على لسان النبى ما ذكر فى حديث الغرانيق لكان صلى الله عليه وسلم غير متبع ما يوحيه الله إليه ، ولكان متبعا ما يوحيه الشيطان ، والنبى صلى الله عليه وسلم متبع ما أوحاه الله وحده إليه .

معارضة قصة الغرانيق للعقل

إن العقل لا يقر قصة الغرانيق لأمور .

الأول : أنه لا يخلو من أن يتكلم بها النبى صلى الله عليه وسلم عمداً ، أو جبرا أو سهوا وكل ذلك ممتنع فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بها

وبيان ذلك : أنه لا يجوز أن يتكلم بها عمدا ، لأنه كفر ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الكفر بالأدلة القاطعة ، ولا يجوز أن يتكلم بها جبرا بحيث يجريها الشيطان على لسانه من غير أن يقدر على الامتناع منه ، لأن الشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » فكيف يكون له سلطان على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز أن يتكلم بها سهوا لأن الأنبياء معصومون عن الكذب فى تبليغ الوحى عمدا وسهوا ، إذ لو جاز عليهم ولو سهوا لأدى إلى عدم الوثوق فى كل ما يبلغونه وذلك يبطل الشرائع(١) .

الثانى : سياق سورة النجم لا يحتمل مسألة الغرانيق ، فإنه يجرى بقوله تعالى « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى » « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى

---

(١) تفسير النسفى ج ٣ ص ١٠٦ ، ١٠٧

الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، فهذا السياق صريح فى أن اللات والعزى ومناة أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، وهذا ذم لها ، وهل يستقيم مع ذمها فى آيات متوالية مدحها فى خلال تلك الآيات بالعلو ورجاء شفاعتها ؟

إن سياقا هذا شأنه سياق متناقض مضطرب لا يسلم به العقل ، ولا يمكن أن يأتى فى القرآن الكريم ، فإنه « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

الثالث : ما عرف عن النبى صلى الله عليه وسلم طيلة حياته من الصدق يدفع ما تحمله قصة الغرانيق من الكذب على الله والتقول عليه مالم يقله ، فما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله .

قال الأستاذ محمد حسين هيكل . بقيت حجة قاطعة تدل على استحالة قصة الغرانيق هى حياة محمد نفسه ، فهى منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط حتى سمى الأمين ، فهل يصدق إنسان أن يقول على ربه مالم يقل إنه الذى قال « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فهل وهو الصلب فى الحق الذى لا يداجى فيه يعقل أن يقول على الله مالم يوح إليه ويقله ، لينقض به أساس الدين وهو التوحيد الذى بعثه الله به هدى وبشرى للعالمين(١) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم هدده كفار مكة وتوعدوه بأشد العقوبة على عيب دينهم ، وذم آلهتهم فلم يأبه بوعيدهم وتهديدهم موطنا نفسه على تحمل هذا الأمر والمضى قدما فى ذم آلهتهم ، والدعوة إلى عبادة الله وحده ، مهما جر عليه ذلك من متاعب وآلام ، فهل يعقل أن يتراجع

---

(١) حياة محمد ص ١٦٧

عن هذا وهو لب دعوته وصميم رسالته؟ ثم إنه الذى كان إذا مر بالأصنام أعرض عنها ، ولم يقبل بوجهه إليها مع أن قومه وعدوه بالإيمان لو أقبل بوجهه إليهما .

قال القشيرى : ولقد طالبته قريش وثقيف إذا مر بآلهتهم أن يقبل وجهه إليها ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك فافعل ، ولا كان ليفعل(١).

الرابع : وقد نقله الأستاذ محمد حسين هيكل عن الشيخ محمد عبده حين كتب يفند قصة الغرانيق بأن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولا كان جاريا على ألسنتهم ، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائى أسود أو أبيض ، والشاب الأبيض الجميل ، ولا شىء من ذلك يلائم معنى الآية أو وصف الآلهة عند العرب ، فالقصة إذن لا أساس لها(٢) .

الخامس : أن قصة الغرانيق لم تستغل سلاحا للتشهير ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإسلام فهى إذن لم تقع ، لأن أعداء الإسلام من المشركين واليهود والمنافقين كانوا أحرص الناس على الطعن فى الرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام لأقل مغمز ، فلو أن مسألة الغرانيق كانت حقيقة واقعة لملأوا بها الدنيا صياحا وضجيجا على الرسول صلى الله عليه وسلم — كما حدث فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة — ولكن لم يحدث هذا ، فهى إذن لم تقع .

السادس : منع الشيطان من أصل الإلقاء أولى من تمكن الشيطان من الإلقاء ثم نسخه .

قال الفخر الرازى : إن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن

---

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٤٤٧٧

(٢) حياة محمد ص ١٦٧

الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التى تبقى الشبهة معها ، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس قرآنا بقرآن فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى(١) .

ومن هذا يتبين أن قصة الغرانيق موضوعة ، إذ كيف تصح وهى معارضة للقرآن وللأدلة العقلية ، فإن الحديث إذا عارض القرآن من كل وجه ، أو الدليل العقلى حكم عليه بالوضع .

رد على المستشرقين فى عودة مهاجرى الحبشة

بقى الرد على ماروجه بعض المستشرقين كالسير وليم موير ، ودللوا به على صحة وقوعها ، وهو عودة مهاجرى الحبشة ، بأن عودتهم كانت لسببين :

أولهما : إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وحميته التى جعلته يعلن إسلامه ويناضل قريشاً حتى صلى والمسلمين عند الكعبة عندئذ أيقنت قريش أن ايذاءها لمحمد وأصحابه قد لايكون فى صالحها ، ولا يبلغها مآربها ، فخففت ايذاءها للمسلمين وربما تبحث عن وسيلة فى محاربة محمد تحقق مآربها ، ولا يكون فيها ضرر عليها وتخفيف الإيذاء هو ماعلمه مهاجرو الحبشة ، ودعاهم الى العودة الى مكة .

السبب الثانى : أن الحبشة نشبت بها وقتئذ ثورة على النجاشي ، ويقال: ان عطفه على المسلمين أحد دواعيها مما حدا بالمسلمين إلى التفكير فى ترك موطن الفتنة ، واللحاق بأهليهم فى وقت هدأ فيه تيار ايذاء المسلمين فى مكة(١) .

---

(١) مفتاتيح الغيب ٦ / ١٩٤

(٢) حياة محمد ص ١٦٠ — ١٦٢

وعلى هذا فتأييد قصة الغرانيق بحادث عودة مهاجرى الحبشة فى غير موضعه .

معنى الآية :

يتوقف معنى الآية على تحديد معنى كلمة التمنى

وقد جاءت فى اللغة لأمرين : أحدهما . حديث النفس ، قاله الفراء ، والثانى : القراءة قال تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » أى : إلا قراءة ، لأن الأمى لا يعلم القرآن من المصحف ، وإنما يعلمه قراءة .

وقال حسان بن ثابت فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما

تمنى كتاب الله أول ليله وآخرها لاقى حمام المقادر

فعلى أن التمنى هو حديث النفس ، والملقى شيطان الجن يكون معنى الآية وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى إيمان قومه وهدايتهم وألقى الشيطان إلى أوليائه شبها فينسخ الله تعالى تلك الشبهة ، ويحكم الآيات الدالة على دفعها(١) .

ويجوز أن يراد من الشيطان شيطان الإنس ، كالنضر بن الحارث فقد كان يلقى الشبهة إلى قومه وإلى الوافدين يثبطهم بها عن الإسلام

قال أبو حيان : ذكر الله تعالى مسلاة لنبيه ، باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم ، متمنين لذلك ، مثابرين عليه ، وأنه ما منهم أحد إلا وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه ، وبث ذلك إليهم وإلقائه فى نفوسهم .

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان من أحرص الناس على هدى قومه ،

---

(١) روح المعانى حـ ٥ ص ٤٥٦

وكان فيهم شياطين كالنضر بن الحارث ، يلقون لقومه ، وللوافدين عليه شبها يثبطون بها عن الإسلام ، ولذلك جاء قبل هذه الآية « والذين سعوا في آياتنا معاجزين » وسعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من استمالوه ؛ ونسب ذلك إلى الشيطان لأنه هو المغوى والمحرك شياطين الإنس للإغواء لذا قال « لأغوينهم » ومعنى « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » يزيل تلك الشبه شيئاً فشيئا حتى يسلم الناس كما قال « ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » ثم يحكم الله آياته ، معجزاته يظهرها محكمة لا لبس فيها « ا ... ل ما يلقى الشيطان » من تلك الشبه وزخارف القول « فتنة » لمريض القلب ولقاسيه ، وليعلم من أوتى العلم أن ما تمنى الرسول والنبي من هداية قومه ، وإيمانهم هو الحق .

وهذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - إنما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنوا(١) .

وعلى هذا المعنى فلا علاقة للآية بقصة الغرانيق .

وعلى أن التمني بمعنى القراءة فقد فسرت الآية بعدة معانى .

أحدها : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى الشيطان الشبهة فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطل ، ويردوا ما جاء به كما قال تعالى « وإن الشياطين ليوحـــون إلى أوليائهم ليجادلوكم » وقال سبحانه « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » وهذا لقولهم عند سماع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » إن عيسى عبد من دون الله ، وكذلك الملائكة عبدوا من

---

(١) البحر المحيط جـ ٦ ص ٣٨١

دون الله ، فإن كان هؤلاء فى النار فنحن نرضى أن نكون معهم « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » أى ما يلقيه من تلك الشبهة ، ويذهب به بتوفيق النبى صلى الله عليه وسلم لرده ، أو : بإنزال ما يرده ، ثم يأتى الله بآياته محكمة لا تقبل الرد بوجه من الوجوه(١) واختار هذا المعنى الألوسى .

ثانيهـــا : ماذكره جمع من المفسرين كالفخر الرازى ، والنسفى ، والقرطبى ، والألوسى ، وحكاه ابن حجر الذى قال : وقيل : كان صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن ، فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث سمعه من دنا إليه فظنها من قوله ، وأشاعها : قال : وهذا أحسن الوجوه .

واستحسنه أيضاً ابن العربى الذى قال : هذه الآية نص فى غرضنا ، دليل على صحة مذهبنا ، أصل فى براءة النبى صلى الله عليه وسلم مما نسب إليه أنه قال ... الى أن يقول فهذا نص فى أن الشيطان زاد فى الذى قاله النبى ، وذلك أن النبى كان اذا قرأ تلا قرآنا مقطعا ، وسكت فى مقاطع الآى سكوتا محصلا وكذلك كان حديثه مترسلا فيه متأنيا ، فتتبع الشيطان تلك السكتة التى بين قوله « ومناة الثالثة الأخرى » وبين قوله « ألكم الذكر وله الأنثى » فقال يحاكى صوت النبى صلى الله عليه وسلم : وإنهن الغرانقة العلى ، وان شفاعتهن لترتجى(٢) .

وحسنه كذلك القرطبى فقال : — بعد أن ذكره — وهذا التأويل أحسن ماقيل فى هذا كما أن النسفى لم يرتض غيره ، واستأنس له بأن الشيطان كان يتكلم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ويسمع كلامه ، فقد نادى يوم أحد ألا إن محمدا قد قتل : وقال يوم بدر : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم .

(١) الألوسى ٥ / ٤٠٠ (٢) أحكام القرآن ٣ / ١٢٩٠ .

وفسر الآية عليه بقوله « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » يذهب به ويبطله ، ويخبر أنه الشيطان « ثم يحكم الله آياته » يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان « والله عليم » بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان « حكيم » لايدعه حتى يكشفه ويزيله .

ثالثها : أن المتكلم بهذا الكفرة ، فإنه عليه السلام لما انتهى فى قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع ، وذكر أسماء آلهتهم ، وقد علموا من عادته أنه يعيبها . قال بعضهم : تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة صياحهم ، ولغطهم على عادتهم فى قولهم « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ونسب ذلك الشيطان لكونه الحامل لهم على ذلك أو المراد بالشيطان شيطان الإنس (١) .

وأميل إلى أن معنى التمنى حديث النفس وأن معنى الآية :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى » إيمان قومه وهدايتهم ألقى الشيطان إلى أولينه شبها لتزيين الكفر والتشكك فى آيات الله المنزلة على رسله وأنبيائه لهداية الناس فيزيل الله تلك الشبهة ويظهر على ألسنة أنبيائه آياته محكمة لا لبس فيها ، دافعة لتلك الشبه ، ومبطلة لها ، ويدل لهذا المعنى — عندى — الآية التى قبلها وهى « والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » .

نسيان الرسول آيات من القرآن :

فهم البعض من ظاهر قول الله تعالى .

« سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى » (٢)

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٦ ١٩٥ .   (٢) سورة الأعلى الآيتان ٦ ، ٧

أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نسى بعض آيات القرآن الكريم ، لأن الله تعالى قد وعده بإقرائه القرآن فلا ينساه ، إلا أن تتعلق مشيئة الله بإنسائه بعض آيات القرآن ، فحينئذ ينساه ، وعلى ذلك يجوز أن يكون الرسول قد نسى آيات من القرآن ، وهذا يزعزع الثقة فيما يبلغه إلى الناس

والفهم الصحيح للآية الكريمة « إلا ما شاء الله » يرد أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد نسى آيات من القرآن نسيانا تاما يطعن فى عصمته فى التبليغ .

بيان ذلك :

أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتسبيحه فى قوله « سبح اسم ربك الأعلى» لأنه سبحانه منزه ذاتا وصفات عن النقائص، ومتصف بالكمالات التى منها القدرة على كل شىء ، ورحمته بخلقه ، وهدايته لعباده ويكمل التسبيح والذكر بقراءة القرآن ، وحتى يطمئن الرسول بأنه سيقرأ القرآن ، كاملا لا ينسى منه شيئاً وعده الله تعالى بإقرائه . وعدم نسيان شىء منه فى قوله « سنقرئك فلا تنسى » .

والإقراء من الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ، فانه الواسطة فى الوحى أو الإلهام والمعنى : سنجعلك قارئا بالهام القراءة فى الكتاب من غير تعليم من أحد ، فقد قيل : إنه عليه السلام كان يقرأ الكتابة ولا يكتب.

وقوله « فلا تنسى » يحتمل أن يكون نهيا وأن يكون خبرا ، فعلى أنه نهى يكون المعنى : فلا تغفل قراءته وتكراره حتى لا تنساه .

وعلى أنه خبر تكون الآية بشارة من الله ، ووعداً منه

---

(٢) وأثبتت الألف فى « فلا تنسى » مع أنه مجزوم بلا الناهية رعاية لفواصل الآى .

لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سيقوى حفظه القرآن حتى لا ينساه وبهذا تكون الآية معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم من وجهين :

الأول : حفظه القرآن مع أنه أمي وهذا خارق العادة .

الثاني : أنها إخبار عن أمر سيقع في المستقبل . إذ هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، وقد وقع كما أخبر .

والأصح أن الآية من قبيل الخبر لأمور :

١ – أنه يلزم على كونها نهيا ارتكاب مجازات منها : أن النسيان ليس في قدرة الإنسان فلا يصح الأمر به ، ولا النهي عنه ، إلا أن يحمل على كثرة القراءة والتعاهد التي تنافي النسيان ، والحمل على الحقيقة أولى من المجاز ، ومنها أن تحمل الألف مزيدة للفاصلة وهو خلاف الأصل .

٢ – أن في خبريتها : تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل ما يدل على إعجاز القران وصدق الرسول أولى .

٣ – أن القول بخبريتها يتفق وقوله تعالى « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه » وقوله تعالى « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » ، وقد نزلا لما كان عليه السلام ، أثناء تلقي الوحي من جبريل يقرأ معه ، من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه بقوله « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » وبقوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » أي – إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً .

روى البخارى بسنده أن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفتيه اذا أنزل عليه ، فقيل له « لا تحرك به لسانك » يخشى أن ينفلت منه « ان علينا جمعه ، أن نجمعه فى صدرك « وقرآنه » أن تقرأه « فإذا قرأناه » يقول أنزل عليه « فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » أن نبينه على لسانك (١) .

وروى ابن أبى حاتم أيضا بسنده عن ابن عباس قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أنزل عليه الوحى يلقى منه شدة ، وكان اذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه يتلقى أوله ، ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره فأنزل الله تعالى « لا تحرك به لسانك لتعجل به (٢) » .

« فلا تنسى . إلا ما شاء الله » .

اختلف فى هذا الاستثناء أهو على حقيقته ، أم لا .

قال البعض : انه على حقيقته ، ومعنى الآية —

سنقرئك القرآن فلا تنسى شيئا منه الا ماشاء الله فتنساه ، ويرفع حكمه وتلاوته ، فالمستثنى هو . مانسخه الله من القرآن فيرفع حكمه وتلاوته أو . أن النسيان الذى أفاده الاستثناء هو الذى يعقبه التذكر ، لا النسيان التام الذى هو محو الشىء من الذهن بالكلية ، لأن النسيان التام يخل بوظيفة التبليغ ويزعزع الثقة بالقرآن ، أما النسيان الذى يعقبه التذكر فهو جائز ، ومعنى الآية عليه .

سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله أن يغلبك النسيان عليه ، ثم يذكرك به بعد إما بنفسك ، وإما بغيرك .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٣٢ — (٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٤٩

وقال آخرون : الاستثناء ليس على حقيقته .

ومنهم الفراء الذى قال : إن هذا استثناء صلة فى الكلام على سنة الله تعالى فى الاستثناء ، وليس ثم شىء أبيح استثناؤه .

والزمخشرى أيضاً الذى ذكر أن الغرض نفى النسيان رأساً ، ولا يقصد استثناء شىء (١) والاستثناء على هذا لبيان أن الله تعالى لو أراد أن يصير نبيه صلى الله عليه وسلم ناسيا لذلك لقدر عليه كما قال سبحانه « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » والله تعالى لم يشأ ذلك .

فعدم النسيان إنما هو من الله تعالى وإحسانه لا من قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد قوى هذا القول أصحابه بما قيل فى قول الله تعالى فى أهل الجنة « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » .

من أن الاستثناء ليس على حقيقته ، وإنما المقصود أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس امراً واجباً بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى .

وقد ضعف هذا القول بعض المفسرين كأبى حيان الذى قال « وقول الفراء والزمخشرى يجعل الاستثناء كلا استثناء ، وهذا لا ينبغى أن يكون فى كلام الله تعالى ، بل ولا فى كلام فصيح (٢) .

وأرجح أن الاستثناء على حقيقته ، وأن النسيان الذى أفاده الاستثناء هو الذى يعقبه التذكر لا النسيان التام لأمور :

الأول : أن الأصل إبقاء الأشياء على حقيقتها ، وحيث يمكر هنا

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ٥٩٠

(٢) البحر المحيط ص ٤٥٩

إبقاء الاستثناء على حقيقته مع عدم الإخلال بالمبدأ المقطوع به ، وهو عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى مجال التبليغ عن الله تعالى فلا داعى الخروج به عن حقيقته .

الثانى : أن النسيان الذى يعقبه التذكر لا ضير فيه ، ولا يخل بوظيفة التبليغ ولا يزعزع الثقة بالنبى : أو القرآن ، ولو وقع من الرسول فائدة : هى : أن يسن لنا .

روى مالك فى الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنى لأنسى ، أو أنسى لأسن »(١) .

الثالث : أن هذا القول تؤيده أحاديث متعددة منها .

ما رواه البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ فى المسجد فقال : « يرحمه الله لقد أذكرنى كذا وكذا آية من سورة كذا » ، وما رواه البخارى ومسلم أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون » .

ويذكر ابن حجر : أن فى قول الرسول حجة لمن أجاز النسيان على النبى صلى الله عليه وسلم فيما ليس طريقه البلاغ مطلقاً ، وكذا فيما طريقه البلاغ لكن بشرطين أحدهما : أنه بعد ما يقع منه تبليغه ، والآخر : أنه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكره ، إما بنفسه ، وإما بغيره وهل يشترط فى هذا الفور ؟ قولان فأما قبل تبليغه فلا يجوز عليه فيه النسيان أصلا (٢) .

وعلى هذا فليس فى الآية ما يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) موطأ مالك ج ١ ص ٩٢

(٢) فتح البارى ج ٩ ص ٧٥ - ٧٦

نسى آيات من القرآن الكريم نسيانا تاماً يقدح فى عصمته فى التبليغ وكيف يكون هذا والله تعالى قد تكفل بحفظه «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» وأمنه من نسيانه على الوجه السابق «لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه».

العبوس والتولى عن الأعمى

قال الله تعالى: عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكرة. فمن شاء ذكره (١).

سبب نزول الآيات:

روى فى سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يدعو بعض زعماء قريش إلى الإسلام: وطمع فى إسلامهم الذى من شأنه أن يؤدى إلى إسلام من وراءهم، فأقبل ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن عمرو، وقيل: عمرو ابن قيس، وهو ممن أسلم قديما وأخذ يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه ويقول: أقرئنى وعلمنى مما علمك الله تعالى، والرسول مشغول بدعوة القوم، وألح ابن أم مكتوم، وود الرسول لو يكف ساعته تلك ليتمكن من تمام مخاطبته للقوم وتحقيق رغبته فى هدايتهم، ولكن ابن أم مكتوم كرر طلبه أثناء

---

(١) سورة عبس الآيات من ١ - ١٢

تشاغل الرسول صلى الله عليه وسلم بالقوم ، فكره الرسول قطعه لكلامه فعبس وأعرض عنه ، فنزلت الآيات .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص على أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرىء النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن وقال يا رسول الله : علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله وعبس في وجهه ، وتولى وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله أنزل الله تعالى عليه « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى » .
فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله وكلمه ، وقال له : ما حاجتك هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال هل لك حاجة في شيء ؟ وذلك لما أنزل الله تعالى « أما من استغنى . فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى »(١).

معنى الآيات.

قطب النبي صلى الله عليه وسلم وجهه ، وأعرض لأن جاءه الأعمى وهو ابن أم مكتوم والتعبير عنه بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول حين تشاغله بالقوم وأي شيء يجعلك يا محمد داريا بحال هذا الأعمى ، لعله يتطهر بما يتعلمه منك من دنس الجهل ، أو يتعظ فتنفعه الموعظة . أي أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك ، أو تذكر ولو دريت ما حدث هذا منك .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٠

وفى الآية تعريض بأن من تصدى الرسول لتزكيتهم وتذكيرهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر.

أما من استغنى عن الإيمان . وعما عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن فأنت تتعرض له ، وتقبل عليه ، وتهتم بإرشاده وليس عليك حرج فى أن لا يتزكى بالإسلام حتى يدفعك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم فما عليك إلا البلاغ .

وأما من جاءك مسرعا طالبا لما عندك من الرشد ، ومعرفة الخير وهو يخاف الله تعالى ، أو أذى الكفار فى الإتيان ، أو : العثار والكبوة إذ لم يكن معه قائد فأنت تتشاغل عنه .

« كلا » أى : لا تفعل بعدها مثلها ، وهو مبالغة فى إرشاده صلى الله عليه وسلم إلى عدم معاودة : ما عوتب عليه .

إن هذه الآيات خاصة ، والقرآن العظيم كله عامة موعظة يجب الاتعاظ بها ، والعمل بموجبها : « فمن شاء من عباد الله أن يذكره » ذكره واتعظ به(١) .

الشبهة

أن عبوس النبى صلى الله عليه وسلم فى وجه ابن أم مكتوم ، والإعراض عنه ، والتشاغل بمن استغنى ذنب ، ولهذا عاتب الله تعالى نبيه عليه .

الجواب عن الشبهة

أن النبى صلى الله عليه وسلم كان وهو يدعو زعماء قريش إلى الإسلام يقوم بواجب تبليغ الدعوة « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »

---

(١) روح المعانى ج ٩ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧

«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك». وانتهز فرصة لقائه بسادة قومه وإصغائهم له: وبالغ في وعظهم وإرشادهم، وحرص على هدايتهم «إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل» وكان يؤلمه كفرهم «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين».

وطمع هذه المرة في إسلامهم، ورجا بإسلامهم إسلام من وراءهم فيكون في هذا خير للإسلام والمسلمين.

أما ابن أم مكتوم فكان مسلما، وتعلمه من الرسول يمكن أن يتم في غير هذا الوقت الذى شغل فيه الرسول بدعوة زعماء قريش، ثم إن ابن أم مكتوم ألح، وكرر الطلب أثناء انشغال الرسول بأمر قومه، وشأن المشغول بالأهم إذا طلب منه المهم أن يؤجله. ويعرض عنه إلى أن ينتهى مما يشغله، لهذا أعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وتصدى للكفار، فعاتبه الله عز وجل على أنه ترك الأولى.

— إذ الأولى والمطالب به الرسول هو البلاغ «ما على الرسول إلا البلاغ» أما الهداية فهى إلى الله «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى».

أما وقد بلغ الرسول فليس عليه بعده شىء، ولا عليه بأس في أن لا يسلموا «وما عليك ألا يزكى».

أما تذكير المؤمنين فهو — بالإضافة إلى أنه واجب على الرسول — نافع للمؤمنين منفعة محققة «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» وهذا الأعمى الذى جاء ينشد التزكية والذكرى سينتفع بها، لأنه جاء سائلا، باحثا عنها، وشأن الطالب لشىء إذا وجده أن ينتفع به «وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى».

ويبين النيسابورى مخالفة الأولى فى هذه القصة من وجه آخر فيقول:

لا يخفى أن نظر النبى صلى الله عليه وسلم كان على أمر كلى هو : رجاء إسلام قريش فانه فى الظاهر أهم من إجابة رجل أعمى على الفور ، إلا أنه سبحانه عد هذا الجزئى كليا من جهة أخرى هى : تطييب قلوب الفقراء والضعفاء ، وإهمال جانب أهل الغنى والثراء ، فإن هذا أدخل فى الإخلاص وابتغاء رضوان الله ، وذلك مظنة التهمة والرياء(١) .

وذهب البعض إلى أن الذى عبس وتولى هو الكافر الذى كان مع النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد انتصر له أبو القاسم على بن الحسين البغدادى ، ورجحه من وجوه ثلاثة :

أولها : أن العبوس ليس من صفات النبى مع الأعداء ولا مع المؤمنين .

ثانيها : أن التصدى للأغنياء ، والتلهى عن الفقراء ليس من أخلاقه ، بل المعروف عنه التحنن ، والتعطف على المؤمنين .

ثالثها : أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث للدعاء والتنبيه فكيف يقول له ربه « وما عليك ألا يزكى » .

وقد حكى قولا آخر هو : أن هذه السورة نزلت فى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منه العبوس والتولى .

ثم يعقب على هذا بقوله : ونحن إن شككنا فى عين من نزلت فيه فلا ينبغى أن نشك فى أنها لم يعين بها النبى صلى الله عليه وسلم(٢) .

وكل من هذين القولين ضعيف ، لمخالفته ظاهر الآيات :

---

(١) غرائب القرآن ج ٣ ص ٢٦ .

(٢) تنزيه الأنبياء ص ١١٩ .

قال على القارى : وهذا التأويل مخالف لظاهر التنزيل ، بل كاد أن يكون مخالفا للإجماع وضعفه أيضاً الشهاب الخفاجى بأنه يخالف السياق ، والذى عليه المفسرون أنه النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى إلقاء الكلام له بدون الخطاب إكرام له عليه السلام عن أن يواجه بالعتب لا مبالغة فى العتب ، لأن فيه بعض اعراض(١) .

أخذ الفداء من أسرى بدر

عاتب الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فى شأن أسرى بدر فى قوله سبحانه « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم »(٢) .

الشبهة

الشبهة التى أثارها البعض هنا صورها فريق منهم على النحو التالى :

ان مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم كانت فى مرحلتين مرحلة القتال وكان الواجب فيها إعمال القتل فى العدو ، وترك الأسر لقوله تعالى « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » فالأسر معصية .

ومرحلة ما بعد القتال ، وكان الواجب فيها قتل الأسرى حيث يحرم استبقاؤهم وأخذ الفداء منهم لعدة أمور :

أولها : قوله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » أى يبالغ فى قتل الأعداء ، ويكثر منه .

---

(١) شرح الشفا على القارى ونسيم الرياض ٤ ص ١٨٧

(٢) سورة الانفال الآيات من ٦٧ ـــ ٦٩ .

ثانيها: قوله تعالى «تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة» وعرض الدنيا الذى لم يرض عنه الله هو الفداء.

ثالثها: قوله تعالى «لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» فهو يفيد أن المسلمين كانوا يستحقون العذاب بسبب أخذ الفداء لولا ما سبق من كتاب الله.

رابعها: بكاء النبى صلى الله عليه وسلم – وأبى بكر – بعد أخذ الفداء بسببه، إذ قال عليه السلام لعمر «أبكى للذي عرض على أصحابك من أخذ الفداء».

خامسها: قول النبى صلى الله عليه وسلم بعد أخذ الفداء «لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر».

وصورها فريق آخر بأنها مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم فى مرحلة ما بعد القتال التى تتمثل فى استبقاء الأسرى، وأخذ الفداء منهم، وهى معصية للوجوه السابقة.

الجواب عن الشبهة

يرد على الفريق الأول بأنه لا مخالفة من النبى صلى الله عليه وسلم فى مرحلة القتال وأما قوله تعالى «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» بعد التسليم بأن الأمر فيها المسلمين – لا للملائكة – فقد نفذه المسلمون، إذ قتلوا من أعدائهم عدداً كثيراً قارب السبعين، وما أسروا إلا بعد أن أعملوا القتل فى عدوهم.

وقوله تعالى «ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض» يدل على أنه بعد الاثخان فى العدو يجوز أسره، وقد أثخن الصحابة فى عدوهم فليس الأسر بعد هذا معصية. قال الفخر الرازى فى تفسيره:

إن قوله « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » يدل على أنه كان الأسر مشروعا ، ولكن بشرط سبق الأثخان فى الأرض ، والمراد بالإثخان هو القتل والتخويف الشديد ، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقا عظيما ، وليس من شرط الإثخان فى الأرض قتل جميع الناس ، ثم إنهم بعد القتل الكثير أسروا جماعة ، فكيف يمكن التمسك بهذه الآية فى أن ذلك الأسر كان ذنبا ومعصية(١) .

على أنى لا أوافق القائلين بأن معنى الآية : أنه لا يصح أسر العدو إلا بعد الإثخان وكثرة القتل فيه ، أما قبل الإثخان فلا يصح الأسر .

فإن الظاهر فى معنى الآية هو : ما صح وما استقام لنبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى قتلهم ويكثر منه ، ليذل الكفر ، ويقل حزبه ويعز الإسلام ، ويقوى أهله .

فالقتل المأمور به الأنبياء هو قتل من وقعوا فى الأسر فعلا — أى فى مرحلة ما بعد القتال ، لا القتل الذى يكون قبل الأسر ، وحال القتال ، وهذا المعنى هو الذى أطمئن إليه وأرجحه .

أولا : ألفاظ الآية ، وثانيا : الحديث الذى أخرجه مسلم(٢) ، ودلالته من عدة وجوه .

الأول : أن استشارة النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه كانت فيما يفعل بالأسرى بعد حضورهم بين يديه فقد قال ابن عباس — راوى الحديث — فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٩٨ .

(٢) فى كتاب الجهاد والسير حديث ٥٨ ج ٤ ٣٧٦ .

الثانى : قول النبى صلى الله عليه وسلم – وقد بكى وسأله عمر عن سبب بكائه – أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء .

فقد نص على أن سبب بكائه أخذ الفداء . وليس الأسر .

الثالث : قول الرسول صلى الله عليه وسلم : فيما روى عنه – لو نزل عذاب من السماء مانجا منه غير عمر ، وذلك أن رأى عمر كان قتل من وقعوا فى الأسر ، ولو كانت المخالفة فى الأسر لقال : لما نجا منه غير الذين لم يأسروا .

ويرد على الفريق الثانى – القائل بأن مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم إنما كانت فى مرحلة ما بعد القتال ، والتى تتمثل فى استبقاء الأسرى دون قتل ، وأخذ الفداء منهم – بما يأتى :

أولا : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده نص فيما يصنع بالأسرى ، ولذلك استشار أصحابه ، ولو كان عنده نص لأمضاه ولم يستشر يتبين لنا هذا من الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؛ فقال أبو بكر : يانبى الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماترى يا ابن الخطاب . قلت : لا والله يارسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم . فتمكن عليا من عقيل ، فيضرب عنقه ، وتمكنى من فلان ، نسيبا لعمر ، فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوى رسول الله ما قال أبو بكر ، ولم يهو ماقلت ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر

قاعدين يبكيان . قلت : يارسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة — شجرة قريبة من نبي الله — وأنزل الله تعالى .

« ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ... إلى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » فأحل الله الغنيمة لهم(١) .

وأما قوله تعالى « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » فهو خاص بحالة الحرب ، ولا يتناول مابعدها .

قال الفخر الرازي : إن قوله « فاضربوا » تكليف مختص بحالة الحرب عند اشتغال الكفار بالحرب ، فأما بعد انقضاء الحرب فهذا التكليف ما كان متناولا له(٢) .

ثانيا : أن قصد القائلين باستبقاء الأسرى ، وأخذ الفداء منهم كان تحقيق أمرين :

الأول : المال ، والمسلمون بحاجة إليه ليتقووا به على جهاد أعدائهم ، فإنه ينتظرهم جهاد مرير وطويل له أعباؤه وتكاليفه .

الثاني : اسلام هؤلاء الأسرى ، فإن تركهم أحياء قد يحببهم في الإسلام ويعطفهم إليه ، أو يخرج من أصلابهم من يدين بالإسلام ، ومصلحة الرسالة في إسلام الكفار أكثر منها في استئصالهم ، وهذا هو الذي حدا بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يدعو الله بهداية قومه عندما كانوا يشتدون عليه ويؤذونه بدل أن يدعو الله بإهلاكهم واستئصالهم .

(١) صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير حديث ٥٥ ج ٤ ص ٣٧٦ .
(٢) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٩٩ .

ثالثاً : حكم الرسول صلى الله عليه وسلم بأخذ الفداء كان استجابة لرأى الأغلبية ، فان أكثر الصحابة وافقوا أبا بكر عليه ، ولا حرج على الرسول فى أن يميل إلى رأى ارتآه أكثر أصحابه إذ من المعروف والمعهود أنه عند الاستشارة ، وانقسام المستشارين فى الرأى يعمل برأى الأغلبية ، وهذا ما فعله الرسول .

قد توجه اللوم فى الآية الكريمة « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » إلى الصحابة - الذين رغبوا فى عرض الدنيا ، « اختاروا أخذ الفداء من أجله - لا إلى الرسول إذ لا يتصور منه إرادة عرض الدنيا ، ولو أراده لجاءت الآية بصيغة « تريد أو « يريد » وإنما كل ما صدر منه أنه مال إلى رأى الأكثر يدل لهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبب بكائه « أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء » .

ولكن كيف نوفق بين ما يفيده قول الله تعالى « تريدون عرض الدنيا » من أنهم مالوا إلى أخذ الفداء لمجرد رغبتهم للدنيا ، وبين قول أبى بكر رضى الله عنه . أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون قوة لنا على الكفار ، وهو يفيد أن الباعث على أخـــذ الفداء هو التقوى به على الجهاد فى سبيل الله .

يبدو لى أن الصحابة الذين رأوا أخذ الفداء لم يكن الباعث عندهم جميعاً - على أخذ الفداء - واحداً ، وإنما اختلف عند أبى بكر وعلية الصحابة عنه عند من عداهم ، فعند الأولين كان التقوى به على مجاهدة الكفار ، وعند الآخرين كان الاستفادة بمال الفداء فى شئون دنياهم ، ونواحى معيشتهم - وهو محط اللوم فى الآية . إذ ينبغى أن تكون رغبات المسلم متجهة أولا ، وقبل كل شىء إلى إعزاز الدين ، ورفع شأنه .

وقد أراد الحكيم الخبير تربية المسلمين فى أول مواجهة مع عدوهم فتركهم يجتهدون فى أمر لا نص فيه ، فإذا أخطأوا فيه ، وعوتبوا على خطئهم ، وكان أدعى أن يظلوا طيلة حياتهم النضالية القادمة حذرين من الأخطاء التى تعرضهم لغضب الله وعذابه متجردين فى رغباتهم وأغراضهم لله ، لا الدنيا .

رابعاً : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اختار رأى أبى بكر لصوابه فى نظره ، بدليل أنه يمثل أبا بكر بإبراهيم وعيسى عليهما السلام ، كما مثل عمر بنوح وموسى عليهما السلام .

فإذا ما أخذ الرسول برأى رآه صوابا بعد الاجتهاد وإعمال الفكر والاستشارة فليس مذنبا فى هذا .

أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسارى ، وفيهم العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟

فقال أبو بكر رضى عنه : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم وقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فاضرمه عليهم نارا . فقال العباس : وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك .

فدخل النبى صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة .

فخرج رسول الله فقال : إن الله تعالى ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم عليه السلام قال من تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم .

ومثلك يا أبي بابكر مثل عيسى عليه السلام قال ، إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم .

ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : ربنا ا[illegible]س على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا ا[illegible]ـذاب الأليم . ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال . رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا أنتم عالة فلا يفلتن أحد إلا بفداء ، أو ضرب عنق فقال عبد الله رضى الله عنه : يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء ، فاني سمعته يذكر الاسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ! إلا سهيل بن بيضاء (١) .

فهذا الحديث يفهم منه أن كلا الرأيين : رأى أبي بكر ورأى عمر رضى الله عنهما كان صوابا عند النبي ، فاذا أخذ بأى منهما بعد الاجتهاد والموازنة ، فلا ذنب عليه ولا معصية منه ، والعتاب الموجه إليه فى هذه الآية عتاب على ترك الأولى . والأولى وعدم الأولى يشتركان فى كونهما مباحين ، وإنما يعاتب على ترك الأولى لا على سبيل العقوبة ، بل على سبيل الحث على فعل الأولى (٢) .

والأولى هنا الأخذ بوجهة نظر عمر رضى الله عنه ، لأن هؤلاء

---

(١) روح المعاني ج ٣ ص ٢٦٠ (٢) غرائب القرآن للنيسابوري ج ١٠ ص ٢٦

الأسرى زعماء الشرك ، وقتلهم إضعاف له . كما انهم طالما آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فمن العدل استئصالهم جزاء لهم على جرمهم.

ولهذا جاء القرآن بموافقة عمر على رأيه الذى هو انسب فى وقت كان فيه المسلمون قلة يتهددهم خطر الكفار المتربصين بالاسلام الدوائر والساعين للقضاء على دولته الناشئة .

اما بعد هذا وعندما تغيرت الأحوال، وأضحى الاسلام منيعا، ودولته قوية الأركان متينة البنيان ، فإنه يستوى قتل الأسرى، واستبقاؤهم « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب اوزارها » .

هذا ومن المعلوم أن مخالفة الأولى لا تقدح فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والخطأ فى الاجتهاد من الأنبياء، لا إثم فيه، ولا يطعن به فى حقهم والله ولا يقرهم عليه، بل ينبههم إليه .

وهنا يرد سؤال .

إذا كان اى نبى عندما يجتهد عرضة لأن يصيب ، وان يخطىء ، فلماذا يكلهم الله عز وجل إلى الاجتهاد الذى قد يخطئون فيه ، ولماذا لا يسعفهم بالوحى الذى يفصل فى الأمور والقضايا ولا يحوج إلى الاجتهاد ؟

والجواب :

ان الله عز وجل حكما فى ان يترك الرسل يجتهدون ، ثم ينبههم ويعاتبهم إذا اخطأوا نبين بعضها بالنسبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء مثلا — على النحو التالى :

الحكمة الأولى:

إقامة دليل على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وعبوديته ، وأنه

مع كونه رسولا لم يتجاوز أن يكون عبدا يصيب ويخطىء كما يصيب البشر ويخطئون ، وذلك حتى لا يفتن به أحد من أتباعه بنسبته إلى الله تعالى على وجه يتجاوز أن يكون رسوله ، كما حدث من النصارى فى شأن عيسى بن مريم عليه السلام .

الحكمة الثانية .

البرهنة على أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم فى إبلاغ الرسالة، وعدم كتمانه شيئاً مما أنزل إليه من ربه ، إذ لو كتم شيئاً لكتم آيات العتاب على ما خالف فيه الأولى روى البخارى عن أنس قال : جاء ز بن حارثة يشكو لجمل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إتقى الله وأمسك عليك زوجك » قال أنس : لو كان رسول الله كاتما شيئاً لكتم هذه الآية[1] .

الحكمة الثالثة :

تشجيع الأمة على الاجتهاد وإعمال الفكر فيما يعرض لها من قضايا وأحداث لا يجدون فيها نصوصاً فإن الأحداث تتجدد ، ولا تنتهى عند حد ، فكيف يواجهها المسلمون ولا نصوص فيها — إذا لم يجتهدوا ليتعرفوا على أحكامها ثم إن خطأ الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض اجتهاداته يكون سلوى لمن يجتهد ثم يخطىء فى اجتهاده ، ولو لم يخطىء الرسول لتألم كل من يخطىء فى اجتهاده من أمته .

وذكر بعض المفسرين : أن العتاب لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لا له ، وتقدير الآية « ماكان لأصحاب نبى » مستدلين بصيغة الجمع فى « تريدون عرض الدنيا » ولو كان العتاب للنبى لقال : تريد، وبأن الصحابة هم الذين رغبوا فى أخذ الفداء وهذا الرأى خلاف الظاهر كما قال الألوسى [2] من جهة .

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٤٠٢ (٢) روح المعانى ج ٣ ص ٢٥٩

ومن جهة أخرى معارض بحديث مسلم السابق الذى يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى حكم بأخذ الفداء - بعد استشارة أصحابه ورأى الصحابة غير ملزم له ، أما حكمه فهو الحاسم الملزم لغيره ، فالعتاب إذاً موجه إليه كذلك يدفع حديث مسلم السابق، وسياق الآية رأى القاضى عياض القائل : بأنه ليس فى الآية عتاب للنبى ، وإنما بيان لخصوصية له من بين سائر الأنبياء هى حل أخذ الفداء من الأسرى فكأنه قال : ما كان هذا لنبى غيرك ، وكما قال صلى صلى الله عليه وسلم « أحلت لى الغنائم ولم تحل لنبى قبلى » .

ويكون المقصودُ - على هذا - بالخطاب فى قوله « تريدون عرض الدنيا » من تجرد غرضه لعرض الدنيا من الأصحاب ، وليس المراد به النبى صلى الله عليه وسلم ولا علية أصحابه (١) وهذا القول ضعيف والأصح القول الأول .

والمعنى كما قال ابن جرير .

ما كان لنبى أن يحتبس كافرا قدر عليه ، وصار فى يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمن ، وإنما قال الله ذلك لنبيه ، لأن قتل المشركين الذين أسرهم يوم بدر ثم فادى بهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم « حتى يثخن فى الأرض » أى يبالغ فى قتل المشركين فيها ، ويقهرهم غلبة وقسرا .

« تريدون » أيها المؤمنون « عرض الدنيا » ما عرض للمرء منها من مال ومتاع أى تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا (٢) .

---

(١) الشفا جـ٢ ص ١٥٢

(٢) جامع البيان جـ ١٤ ص ٥٨

والحكم السابق اثباته فى اللوح ، والذى لولاه لمسهم العذاب هو :
أن لا يعذب قوماً قبل البيان لهم أمرا أو نهيا .
أو : أن لا يعذب المخطىء فى مثل هذا الاجتهاد .
أو : أن لا يعذب المسلمين ورسول الله فيهم .
أو أن : لا يعذب أهل بدر(١) .

زواج الرسول بزينب بنت جحش وما أثير حوله

إن بعض الذين تصدوا لتفسير القرآن الكريم ، وتحملوا أمانة تجلية معانيه قد صدرت منهم آراء ، وذكروا أقوالا اتخذت فيما بعد – منطلقا لضجيج أهوج وصيحات هستيرية تطعن فى الاسلام وترمى بالنقيصة أكمل الناس خلقاً وأحمدهم سيرة .

من ذلك أقوال تضمنتها تفاسير الطبرى والزمخشرى ، والنسفى ، ومن نحا نحوهم حول الآية الكريمة .

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهم وطرا وكان أمر الله مفعولا »(٢) .

فقد ذكرت هذه التفاسير : أن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى زينب بنت جحش وهى تحت زيد بن حارثة على حالة جعلت قلبه يتعلق بها ويود لو فارقها زيد فيتزوجها ، وخشى أن يقول الناس أمر رجلا بطلاق امرأته ، ونكحها حين طلقها والله أحق أن يخشاه من الناس .

وفى هذا طعن على نبينا صلى الله عليه وسلم فتح الباب لأعداء

(١) روح المعانى ج ٣ ص ٢٦١
(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٧

الإسلام ، والساعين للنيل منه من المستشرقين وغيرهم فاتخذوه دعامة لتجنيهم وتصايحهم وهاك ما ذكره ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية :

قال : يقـــول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم عتابا من الله له واذكر يا محمد إذ تقول للذى أنعم الله عليه بالهداية ، وأنعمت عليه بالعتق يعنى زيد بن حارثة مولى رسول الله ، أمسك عليك زوجك واتق الله وذلك أن زينب بنت جحش فيما ذكر رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعجبته ، وهى فى حبال مولاه . فألقى فى نفس زيد كراهتها ، لما علم الله مما وقع فى نفس نبيه ما وقع ، فأراد فراقها ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم زيد ، فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، وهو صلى الله عليه وسلم يحب أن تكون قد بانت منه لينكحها ، واتق الله وخف الله فى الواجب له عليك فى زوجتك ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، يقول: وتخفى فى نفسك محبة فراقه إياها لتتزوجها إن هو فارقها ، والله مبد ما تخفى فى نفسك من ذلك .

« وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، وتخاف أن يقول الناس أمر رجلا بطلاق امرأته ، ونكحها حين طلقها ، والله أحق أن تخشاه من الناس روى عن ابن وهب قوله : قال ابن زيد : كان النبى صلى الله عليه وسلم قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته ، فخرج رسول الله يوماً يريده ، وعلى الباب ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف وهى فى حجرتها حاسرة ، فوقع إعجابها فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما وقع ذلك كرهت الآخر ، فجاء فقال : يا رسول الله إنى أريد أن أفارق صاحبتى قال : مالك ، أرابك منها شىء ؟ قال . لا والله ما رابنى منها شىء يا رسول الله ولا رأيت إلا خيرا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك زوجك واتق الله (١) وقال الزمخشرى:

---

(١) جامع البيان جـ ٢٢ ص ١٠

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر زينب بعد ما أنكحها زيداً؟ فوقعت فى نفسه . فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادها لا ختطبها ، وسمعت زينب بالتسبيحة ، فذكرتها لزيد ، ففطن ، وألقى الله فى نفسه كراهة صحبتها ، والرغبة عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرسول الله : إنى أريد أن أفارق صاحبتى ، فقال مالك أرابك منها شىء ؟ قال : لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ، ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى فقال له . أمسك عليك زوجك واتق الله .

ثم يقول : ما أراد بقوله « واتق الله » ؟ قلت : أراد واتق الله . فلا تطلقها ، وقصد نهى تنزيه لا تحريم ، لأن الأولى أن لا يطلق ، وقيل أراد : واتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج .

فإن قلت : ما الذى أخفى فى نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها ، وقيل . مودة مفارقة زيد إياها ، وقيل : علمه بأن زيداً سيطلقها وسينكحها لأن الله قد اعلمه بذلك(١) .

وقال النسفى مثل قول الزمخشرى السابق .

فقد وضح من أقوال هؤلاء المفسرين ومن على شاكلتهم ، كالخطيب الشربينى ، والنيسابورى والواحدى ، ومحمد نووى الجاوى أنهم ينسبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم :

١ — تعلق قلبه بزينب بنت جحش عندما رآها فى ثياب تكشف عن محاسنها وجمالها وأنه لهذا تمناها لنفسه ، وود لو يطلقها زيد فيتزوجها .

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٤٢٧ — ٤٢٨

٢ ــ أنه أخفى فى نفسه أمراً وأظهر خلافه ، أخفى محبتها والرغبة فى طلاقها من زيد ليتزوجها ، وأظهر الحرص على بقائها مع زيد بقوله: أمسك عليك زوجك ، وخشى أن يقول الناس أمر رجلا بطلاق امرأته ونكحها حين طلقها ، وكان عليه أن يخشى الله وحده ، وليس الناس .

وحتى يتبين وجه الحق فى هذه المسألة بما ينزه ساحة نبينا صلى الله عليه وسلم عما نسب إليه فيها نذكر :

أولا : أن نبينا صلى الله عليه وسلم ليس ممن يفتتون بالنساء أو يميل قلوبهم رؤية الجميلات ، أو يتزوج لمجرد الشهوة ،

وثانيا : موقف الرسول من زواج زيد بزينب خاصة .

ثالثا : الأمر الذى أخفاه الرسول وأظهر خلافه ، وخشى فيه الناس وسبب هذا منه ، وحكمه .

أما الأول :

فان نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة تقوم على أساس من احترام آدميتها ، والبر بها وجبر خاطرها ، وصيانتها عن الامتهان والضياع ولهذا ظلل بجناح رحمته إحدى عشرة زوجة ما كان دافعه إلى الارتباط بهن شهوة عارمة يريد إشباعها ، وإنما إنسانية سامية أبت إلا أن تجبر خواطرهن ، وتعول من رزئت فى الزوج ، وافتقدت العائل منهن ويستدل على ذلك بأمور :

أحدها : أنه قضى ربع قرن من الزمن هى فترة الشباب العارم ، والرجولة الفتية زوجا لامرأة واحدة هى خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وكانت تكبره بخمسة عشر عاما حتى توفيت عن عمر يناهز الخامسة والستين ، بينما هو فى الخمسين من عمره ، فلو أنه كان رجلا شهوانيا ــ

كما يزعم المبشرون ، ويتبعهم فيه المستشرقون لما قنع بزوجة واحدة طيلة شبابه ، في حين أن بيئته تمارس تعدد الزوجات الذي لا حدود له .

كما أنه بإقرارهم جميعا كان عزوفا عن الخمر واللهو والميسر ، ومقارفة الفجور ، والزنا وكل ما يتلهى به الشباب .

إن من يقنع بزوجة واحدة ، فترة شبابه حتى الخمسين لا يصدق العقل أن تستبد به الشهوة بعد الخمسين إلى حد أن يجمع العديد من النساء في عصمته لمجرد قضاء لذة جسدية .

ثانيها : أن مشاغله صلى الله عليه وسلم في فترة ما قبل الأربعين لا تكاد تذكر بجانب مشاغله الكثيرة في العهد المدني الذي عدد فيه زوجاته ، والإنسان عندما تكثر أعباؤه . تفتر رغبته في النساء ، أما عند ما تخلو حياته من المسئوليات ، وتخف عن كتفه أثقال الحياة وأعباؤها ، فان همته تتجه إلى النساء ، وتفكيره يصبح في خدمة شهوته فلو أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان شهوانيا لظهر هذا منه في فترة ما قبل الأربعين .

ثالثها : أن أكثر من تزوجهن بعد خديجة كن قد تخطين مرحلة الشباب وكن غير جميلات ، والشهواني إنما ينعطف إلى الشابات الجميلات .

أما امثال سودة بنت زمعة ، وأم سلمة ، وأم حبيبة ، وزينب بنت خزيمة فلا يقول منصف إن الاقتران بهن كان بدافع الشهوة ، فلم يكن لهن من الجمال والشباب مايحفز إلى اتخاذهن زوجات ، إنما تزوجهن صلى الله عليه وسلم ليعوضهن حيث فقدن العائل .

أما سودة بنت زمعة فكانت امرأة متقدمة في السن ليس لها جمال ولا شباب فقدت زوجها — السكران بن عمرو العامري — وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام والمهاجرين إلى الحبشة ، وبقيت سودة بعده أرملة

منقطعة ، لا مال لها تعيش منه ، وليس من أهلها من يرق لحالها لكفرهم وإسلامها ، ولا شك أنها بين اهلها ستتعرض للضغط العنيف لتترك إسلامها ، فتزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم لينقذها من هذه الحياة القاسية ، ويعوضها خيرا عما فقدته من الزوج والعائل ، وأما أم سلمة هند ، فكانت زوجة لعبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ابن عمة الرسول واخيه في الرضاع ، هاجرا إلى الحبشة ، ثم عادا على امل انتهاء الأزمة مع قريش ، فاذا هي أشد تعقيدا من ذي قبل ، فهاجرا إلى يثرب — المدينة — وهناك أبلى زوجها في بدر وأحد بلاء حسناً ، وتوج بانتصاره على بني أسد بعد شهرين من أحد ، لكنه بعد عودته أدى ثمن النصر من حياته ، فمات على إثر إنفجار جرحه القديم ، وترك أم سلمة ، وقد تقدمت سنها ، وكثر عيالها .

عندئذ رأى الرسول الكريم أن يمد يده إلى أرملة اخيه في الرضاع وابن عمته المهاجر الشجاع يطلب يدها ، ليعوضها عن فقيدها ، ويكفى عيالها ، فرأت ام سلمة أن كبر سنها ، وكثرة عيالها عبء على الرسول ، لكنه عليه الصلاة والسلام اصر على المواساة والبر قائلا : أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما العيال فالى الله ورسوله . فهل بعد هذا يتقول متقول ان هذا الزواج كان الدافع إليه الولع بالنساء ؟

واما رملة بنت أبي سفيان :

فقد تزوجت من عبيد الله بن جحش الذي أسلم ، فأعلنت رملة معه إسلامها رغم أنف أبيها زعيم الفئة المشركة — في ذلك الحين — وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه تخلى عن العقيدة وتنصر ، فتخلت هي عنه ، وبقيت في دار الغربة وحيدة لا زوج يحميها ويعولها ، ولا أهل يؤنسونها فأي خذلان أوجع لها من هذا ؟ ولكن صاحب القلب الكبير ، والنفس

الكريمة ، يرفض أن يدع « رملة » لخذلانها الموجع ، فبعث إليها يخطبها لنفسه ، ووكل النجاشى فى تزويجها له ، ولما عادت شهدت المدينة احتفالا بعرسها أنساها كل ما كابدته.

ولا ننسى أن هذا العمل الجليل من النبى صلى الله عليه وسلم من شأنه أن يثير إعجاب أبى سفيان ويرضيه ، ويميل قلبه وعشيرته إلى الإسلام. إن لم يكن عاجلا فآجلا تقديرا لصاحب هذه الأريحية والنخوة .

فزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من أم حبيبة عمل جليل رائع ، ومساكين من تفوتهم روعته فينسبونه إلى عبث الشهوة .

وزينب بنت خزيمة :

التى لقبت بأم المساكين ، لشدة حبها للفقراء ، وعطفها عليهم وبرها بهم ، وقد تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ليعولها ، إذ لم يكن لها عائل بعد فقد زوجها عبيدة ابن الحارث شهيدا يوم بدر ، ولم تكن ذات جمال ولا شباب . ويقال إنها لم تلبث فى بيت النبوة إلا أسابيع معدودة ثم توفيت .

وجويرية بنت الحارث سيدة بنى المصطلق ، وصفية بنت حيى بن أخطب سيدة بنى النضير تزوجهما الرسول صلى الله عليه وسلم على أثر انهزام قوميهما . ووقوعهما فى ذل الأسر ، وهوان السبى ، والرحمة تقضى بإقالة عثرة العزيز إذا ذل .

أما جويرية بنت الحارث . فإن قومها بنى المصطلق قد هزموا هزيمة منكرة ، وسيقت نساؤهم سبايا ، ومنهن « جويرية » ابنة زعيمهم الحارث بن أبى ضرار ، وصارت — عند توزيع السبايا — من نصيب ثابت بن قيس ، فعرض عليها أن يكاتبها . لأنها لا تطيق — وهى بنت العز والجاه — أن تعامل معاملة الرقيق ، وتمتهن بالخدمة ، فذهبت إلى الرسول صلى الله عليه

وسلم تستعينه على أمرها . ولكن اريحية الرسول كانت أسمى من معارنة هينة ، فلتكن بخير يتجاوزها إلى قومها فى الدين والدنيا ، وقد كان .دفع فديتها إلى ثابت بن قيس فصارت حرة ، وتزوجها وأصبحت زوجة القائد المنتصر بعد أن كانت ابنة القائد المنهزم وأم المؤمنين بعد أن كانت كافرة ، وأصبح قومها أصهار رسول الله بعد أن كانوا أعداءه ؛ وبسبب هذه المصاهرة أعتق أهل مائة بيت من قومها ، وأسلم أبوها وسائر بنى المصطلق ، فهل يصح القول بعد هذا أن الزواج بجويرية كان عن شهوة جامحة ؟

وأما صفية بنت حيى بن أخطب . فقد وقعت ضمن نساء خيبر فى ذل الأسر ، ومهانة السبى ا وهى بنت سيد وزوجة سيد من سادات خيبر ، وإنسانية الرسول العالية تأبى أن تتركها أمة تمتهن وتذل بعد أن سقط فى الميدان أبوها ، وزوجها واخوها ، وإنما تجبر قلبها الكسير بتحرير ثم بزواج تصير به أعز مما كانت فى قومها ، وموضع الاحترام والتبجيل .

صحيح أنها كانت جميلة ، ولكن لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد مجرد الجمال لعثر عليه فى إحدى قريباتها الجميلات ولكن كان كما عرف عنه يكرم عزيز قوم ذل .

وأما عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر - رضى الله عنهم - فكان الزواج بهما لتأكيد الروابط مع صاحبيه الكبيرين بعلاقة المصاهرة ، ومما يدل على أن الزواج بأى منهما لم يكن دافعه الشهوة .

أن عائشة قد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سن السادسة ، ودخل بها فى سن التاسعة ولو كان قصد الرسول من الزواج مجرد التمتع بالمرأة لما خطب فتاة ينتظر على الدخول بها ثلاث سنين ، وإنما يعمد من أول الأمر إلى التزوج بفتاة فى سن العشرين أو حولها أكثر نضجا وأوفر شبابا ، وإنما تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ليؤكد الصلة بأبيها الذى

كان الصاحب الأول له ، وليكون في هـــذا الزواج تكريم لأبيها على مواقفه المشرفة الكثيرة في مؤازرة رسول الله وخدمة الاسلام .

وحفصة بنت عمر : ترملت بموت زوجها خنيس بن حذافة السهمي بعد قليل من موقعة بدر ، وقيل أحد من جراحات اصابته فيها وسنها يبلغ الثامنة عشرة وليس من الإنصاف لأرملة شهيد شابة أن تظل تقاسي لوعة الترمل ، لذا فقد عرضها ابوها الذي يحمل مسئوليتها ويقلقه ترملها في مثل هذا السن بالإضافة إلى قلة نصيبها من الجمال على ابي بكر رضي الله عنه ، فلم يجبه ، فتركه غاضبا إلى عثمان رضي الله عنه فاذا به يرفض عرض صاحبه معتذرا بأنه لا يريد التزوج هذا الوقت فكانتا صدمتين قاسيتين من اعز أصحابه - لقي بعدهما عمر رسول الله وقلبه يدمى من ألم الإعراض والرفض وكيانه يهتز قلقا وغضبا وأدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فطمأن عمر وواساه قائلا : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة ودخلت حفصة بيت النبوة لا بدافع من عرامة الشهوة وإنما من قبل النخوة .

وميمونة بنت الحارث : تأيمت من ابي رهم وعندما دخل المسلمون مكة سنة سبع لعمرة القضاء أعجبها مظهر المسلمين وهم يذكرون ويلبون فصاحت من فوق ظهر بعيرها : البعير وما عليه لله ورسوله وما كان من خلق رسول الله أن يخذلها ويخيب رجاءها فحقق رغبتها في شرف الأمومة المؤمنين

وما هو واضح أن من دواعي تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم أن يجتمع في بيت النبوة مثل هذا العدد من النساء لينقلن ما يرونه ويسمعنه من الهدى النبوي وأحكام الشريعة إلى المسلمين والمسلمات فيتيسر انتفاع الأمة بذلك .

وأيضا : ليكون عدل الرسول صلى الله عليه وسلم بين زوجاته المثل الحي والقدوة الحسنة لمن يضطر من المسلمين ان يعدد زوجاته .

الثانى — موقف الرسول من زواج زيد بزينب :

زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب ربيت على مرأى من الرسول ومسمع ، وشهدها تحبو من الطفولة إلى الصبا ، وتنمو من الصبا إلى الشباب ، وكأنت منه بمنزلة البنت أو الأخت الصغرى ، فكان يعرفها حق المعرفة قبل أن تتزوج زيدا ، وما كان يخفى عليه ماتتمتع به من جمال فلو كان جمال المرأة يبهر الرسول ، ويميل قلبه ، لخطبها لنفسه ، وتزوجها ، ولكنه ليس كغيره من الرجال الذين يفتنون بالجميلات ، ولذا خطبها لمولاه ، ومتبناه زيد بن حارثة فاستنكفت وقالت : أنا خير منه حسبا ، وأبى أخوها عبد الله بن جحش معللا بأن زيداً ليس كفؤا لها ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أصر على هذا الزواج لتزول الاعتبارات القائمة على العصبية وحدها ، ويدرك الناس جميعاً : أن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وهو يرى أن يبدأ بتطبيق هذا على امرأة من أقاربه ، فلتكن ابنة عمته هذه هى التى ينقض بها تقاليد العرب فى هذا المجال ، ونزل قول الله تعالى .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا(١) » .

ولم يكن أمام عبد الله وأخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الإذعان ، فقالا : رضينا يا رسول الله ، وبنى زيد بزينب(٢) .

الثالث — الأمر الذى أخفاه الرسول وأظهر خلافه :

بعد أن تزوج زيد بزينب لم يسلس له قيادها ، ولم يلن إباؤها ، بل جعلت تفخر عليه بنسبها ، وأعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن زيداً

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٦ (٢) حياة محمد لهيكل ص ٣١٥ وما بعدها

سيطلق زينب وأنه سيتزوجها بعده ، ومع هذا كان إذا جاء زيد يشكو إلى النبي سوء معاملتها له ، ويستأذن فى تطليقها يقول له النبي « أمسك عليك زوجك واتق الله » ويخفى النبي فى نفسه ما أعلمه الله به من تطليق زيد لها، وتزوجه بها خشية قالة الناس أن محمداً تزوج من كانت زوجة متبناه ، وكان على الرسول أن لا يعير اهتماماً لقول الناس ما دام ذلك بأمر الله ، فهو الأحق وحده أن يخشى وليس الناس :

قال ابن حجر العسقلاني : أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السدى ولفظه :

بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول أراد أن يزوجها زيد ابن حارثة مولاه ، فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله فزوجها إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه — بعد — أنها من أزواجه ، فكان يستحى أن يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقى الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ، ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيداً(١) .

فالذى كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم هو : إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه .

هذا هو الأصح ، وليس ما رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : جاء زيد بن حارثة فقال يا رسول الله : إن زينب اشتد على لسانها ،

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٤٠٣

وأنا أريد أن أطلقها فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، قال : والنبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يطلقها ويخشى قالة الناس(١) .

وقد رده القاضي عياض فقال : ولا تستريب في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الظاهر ، وأنه يأمر زيدا بإمساكها ، وهو يحب تطليقه إياها كما ذكره جماعة من المفسرين .

ثم قال : وبصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا « وكان أمر الله مفعولا » .

أي : لابد لك أن تتزوجها ، ويوضح هذا أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها ، أنه الذي أخفاه عليه الصلاة والسلام مما كان أعلمه الله به(٢) .

فالله أعلمه أن يظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه ، فقال « زوجناكها » فلو كان الذى أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها ، أو محبة طلاقها ، لكان يظهر ذلك ، لأنه يجوز أن يخبر أنه يظهره ، ثم يكتمه ، فلا يظهره ، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله تعالى أنها ستكون زوجة له .

وعتاب نبينا صلى الله عليه وسلم على قوله لزيد « أمسك عليك زوجك » مع علمه بأنه سيطلقها ، ويتزوجها هو بعده . عتاب على ترك الأولى .

وقد علل ابن العربي قول النبي لزيد « أمسك عليك زوجك » وقد أخبره الله بأن زيدا سيطلقها ، ويتزوجها هو : بأنه أراد أن يختبر منه مالم يعلمه الله به من رغبته فيها ، أو رغبته عنها ، فأبدى له زيد من النفرة عنها ، والكراهية فيها مالم يكن علمه منه في أمرها

---

(١) فتح الباري جـ ٨ ص ٤٠٣ (٢) الشفا جـ ٢ ص ١٨٢

وإنما أمره بالتمسك بها ، وقد علم أن الفراق لابد منه لإقامة الحجة، ومعرفة العاقبة ، ألاترى أن الله يأمر العبد بالإيمان ، وقد علم أنه لايؤمن، فليس فى مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم مايمنـــع من الأمر به عقلا وحكما(١) .

ولـكن يرد قول ابن العربى هذا قوله تعالى « وتخشى النـاس » فهو صريح فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما قال لزيد « أمسك عليك زوجك » خشية مقالة الناس .

ولا يصح أن يفهم من قول الله تعالى « والله أحق ان تخشاه » ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يخشى الله .

فإنه يخشى الله تعالى كما قال « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » ولـكن لما خشى الناس أيضا فى هذا الأمر كان مخالفا الأولى ، إذ الأولى أن يخشى الله وحده ، ولا يخشى أحدا معه كما قال تعالى « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله » .

الحكمة فى هذا الزواج إبطال آثار التبنى

يتضح هذا من قول الله تعالى « فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها لـكى لا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » اى زوج الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد ، وانقضت عدتها منه ، لـكى لا يكون للمتبنى ماللإبن الحقيقى من حقوق الميراث والنسب ، وإنما حق المولى والأخ فى الدين « وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلـكم قولـكم بأفواهكم » .

---

(١) أحكام القرآن جـ ٣ ص ١٥٣٢

ولا يستطيع احد ان ينقض تقاليد الأجيال المتوارثة إلا الرسول نفسه بقوة عزيمته ، وبحكم موقعه فى التشريع والقدوة ، حتى يكون أدعى لقبول الناس له وكان ما قضى الله من قضاء كائنا لامحالة ، فقضاؤه فى زينب ان يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ماض كائن .

« وكان أمر الله مفعولا » ، وما يقضى الله به إنما يكون لحكم سامية ، لا كما يزعم المبشرون والمستشرقون من ان الدافع إلى زواج الرسول بزينب هو الافتتان بها ، والإعجاب بجمالها .

امتناع الرسول من المباح لإرضاء زوجاته

قال الله تعالى :

« يا ايها النبي لم تحرمُ ما أحل الله لك تبتغى مرضات ازواجك والله غفور رحيم »(١) فهم البعض من عتاب الله نبيه على ان حرم على نفسه ما أحله الله له إبتغاء مرضاة أزواجه انه إرتكب ذنبا .

قال الزمخشرى : كان هذا ماحرمه الرسول على نفسه من ملك اليمين او العسل زلة منه ، لأنه ليس لأحد ان يحرم ما احل الله ، لأن الله عز وجل إنما احل ما احل لحكمة ومصلحة عرفها فى إحلاله ، فاذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة(٢) .

دفع هذه الشبهة :

لدفع هذه الشبهة وما قاله الزمخشرى نذكر سبب النزول ، وهو يوضح ماحرمه الرسول على نفسه مما كان حلاله ، وحنو الرسول صلى الله عليه وسلم وتلطفه فى معاملة زوجاته حتى كان يرضهن بما يشق على نفسه فنقول :

---

(١) أول سورة التحريم (٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٥٠

وردت روايات فى صحيحى البخارى ومسلم تفيد ان ماحرمه الرسول على نفسه هو العسل كذلك وردت روايات اخرى تفيد ان ما حرمه الرسول على نفسه هو وطء جاريته مارية ، فلنذكر كلا منهما ، لنعرف من الموازنة بينهما ايهما اصح، ولنعرف ايضا ايهما اكثر توافقا وانسجاما مع الفاظ الآيات — هذه الآية والآيات بعدها —

حديث العسل .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب ابنة جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت انا وحفصة عن ايتنا دخل عليها ، فلتقل له . اكلت مغافير ، إنى اجد منك ريح مغافير ، قال . لا ولكنى كنت اشرب عسلا عند زينب ابنة جحش ، فلن اعود له ، وقد حلفت لاتخبرى بذلك احدا»(١) .

وقد روى مسلم فى صحيحه روايتين . احداهما — كهذه — تفيد أن التى سقت الرسول العسل هى زينب بنت جحش ، وان المتظاهرتين عليه هما عائشة وحفصة .

والرواية الثانية تفيد ان التى سقته العسل هى حفصة، وان المتظاهرات عليه من نسائه سودة وعائشة وصفية وهى .

روى مسلم بسنده عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل ، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه . فيدنو منهن ، فدخل على حفصه فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فسألته

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٠٧

عن ذلك ، فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل ، فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة ، فقلت :

أما والله لنحتالن له ، فذكرت ذلك لسودة ، وقلت : إذا دخل عليك ، فإنه سيدنو منك فقولي له : يا رسول الله : أكلت مغافير ؟ فإنه سيقول لك : لا فقولي له : ما هذه الريح ؟ (وكان رسول الله يشتد عليه أن يوجد منه الريح) فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل ، فقولي له : جرست نحله العرفط وسأقول ذلك له ، وقوليه أنت يا صفية ، فلما دخل على سودة قالت : تقول سودة ، والذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي . وإنه لعلى الباب فرقاً منك ، فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ قال : لا . قالت : فما هذه الريح ؟ قال : سقتني حفصة شربة عسل ، قالت : جرست نحله العرفط(١) ، فلما دخل علي قلت له : مثل ذلك ثم دخل على صفية ، فقالت بمثل ذلك .

فلما دخل على حفصة قالت : يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال : لا حاجة لي به . قالت : تقول سودة : سبحان الله لقد حرمناه . قالت : قلت لها اسكتي(٢) .

والحديث الأول الذي فيه أن المتظاهرتين عائشة وحفصة أصح ، لأنه :

١ - يتوافق مع لفظ الآية ، وإن تظاهرا عليه ، فإنه بالتثنية .

---

(١) « الحلواء » كل شيء حلو . « المغافير » جمع مغافور (بضم الميم) صمغ حلو ، له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال لها العرفط (بضم العين والفاء) يكون بالحجاز و « جرست » أكلت .

(٢) صحيح مسلم ج ٣ ص ٦٧٢

٢ – ويتفق مع الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس أنه سأل عمر رضى الله عنهما عن المرأتين اللتين نزلت فيهما الآية « إن تتوبا إلى الله » فقال [illegible]ما عائشة وحفصة :

وعلى هذا فالذي أسره النبى إلى بعض أزو[illegible] هو شرب العسل ، فلما أنبأت به وأطلعه الله عليه عرف بعضه وهو : كنت شربت عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود ، وأعرض عن بعض هو قوله عليه الصلاة والسلام « وقد حلفت » .

حديث مارية

روى النسائى بسنده عن أنس بن مالك بلفظ « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » الآية(١) .

ورواه ابن جرير أيضاً بعدة روايات منها . ما رواه عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدء الحديث فى شأن أم ابراهيم القبطية أصابها النبى صلى الله عليه وسلم فى بيت حفصة ، فى نوبتها .

فوجدت حفصة فقالت : يا نبى الله ، لقد جئت إلى شيئا ما جئت إلى أحد من أزواجك ، فى يومى ، وفى دورى ، وعلى فراشى قال : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ، ؟ قالت : بلى ، فحرمها ، وقال لها : لا تذكرى ذلك لأحد ، فذكرته لعائشة ، فأظهره الله عليه ، فأنزل الله تعالى « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك » الآيات كلها . فبلغت أن

---

(١) تفسير بن كثير ج ٤ ص ٣٨٦

رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عن يمينه ، وأصاب جاريته .

وقد رواه الدارقطنى أيضاً عن ابن عباس عن عمر بنحو رواية ابن جرير .

وفى هذه الرويات أن دخول الرسول صلى الله عليه وسلم بمارية فى بيت حفصة إنما كان فى يوم حفصة . ولكن فى رواية أخرى أن ذلك كان فى يوم عائشة فى بيت حفصة(١).

كذلك تفيد الروايات السابقة أن الذى أسره النبى صلى الله عليه وسلم إلى حفصة هو تحريم مارية على نفسه.

لكن أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن أبى حاتم عن مجاهد أن النبى صلى الله عليه وسلم أسر إلى حفصة تحريم مارية ، وأن أبا بكر وعمر يليان الناس بعده ، فأسرت ذلك إلى عائشة ، فعرف بعضه وهو أمر ماريه . وأعرض عن بعض ، وهو : أن أبا بكر وعمر يليان بعده مخافة أن يفشو(٢) وقيل بالعكس ، أى عرف البعض الذى هو ولاية أبى بكر وعمر من بعده ، وأعرض عن البعض الذى هو أمر مارية .

وهناك قول ثالث : بأن الآية نزلت فى المرأة التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها إرضاء لأزواجه .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآيه « ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » فى المرأة التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم(٣).

وقد ضعف العلماء هذا القول : قال ابن كثير : وهذا قول غريب »

---

(١) روح المعانى جـ٩ ص ١٠٥ (٢) روح المعانى جـ٩ ص١٠٨

(٣) ابن كثير جـ٤ ص ٣٨٧

وقال ابن العربى :

أما من روى أن الآية نزلت فى الموهوبة فهو ضعيف فى السند ضعيف فى المعنى أما ضعفه فى السند ، فلعدم عدالة رواته ، وأما ضعفه فى معناه ، فلأن رد النبى صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريما لها ، لأن من رد ما وهب له لم يحرم عليه إنما حقيقة التحريم بعد التحليل (١).

ولهذا فنحن نستبعده . ويبقى معنا القولان: الأول وهو تحريم العسل ، والثانى وهو تحريم مارية .

أما الأول . فإن رواياته وردت فى الصحيحين ، وأما الثانى فرواياته فى غير الصحيحين ، ولهذا يرجح القاضى عياض أن [illegible] فى قصة العسل كما أن النسائى يصف إسناد عائشة فى العسل بأنه جيد فى غاية الصحة ، ففى شرح النووى على صحيح مسلم قال القاضى : إن الصحيح فى سبب نزول الآية أنها فى قصة العسل لا فى قصة مارية المروى فى غير الصحيحين ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح .

قال النسائى : إسناد حديث عائشة فى العسل جيد صحيح غاية(١).

ولكن يعكر على الأول أمران :

أولهما : أن الامتناع معلل فى الآية بابتغاء مرضات الزوجات ، وامتناع الرسول صلى الله عليه وسلم عن العسل بعد أن أخبرته زوجاته بأن رائحته غير طيبة كان لكراهيته الشديدة لكل ذى رائحة كريهة ، فقد عرف عنه أنه يعجبه أن يوجد منه الريح الطيبة ، أو يجدها ، ويكره الريح الخبيثة لمناجاة الملك ، فليس إذن تحريمه ما أحل الله على هذا القول لابتغاء مرضات زوجاته .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ج ٣ ص ٦٧٤

(٤) أحكام القرآن ج ٤ ص ١٨٣٣

ثانيهما : قوله تعالى « وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً » فإن الحديث الذى أسره هو : شرب العسل عند زينب أو حفصة — رضى الله عنهن جميعاً — وهذا لم يكن سرا غائباً عن بعض زوجاته حتى يطلعهن عليه ، بل كان معلوما لدى زوجاته قبل أن يخبر به الرسول كما تدل على ذلك الروايات السابقة .

فمن هذا نرى أن حديث العسل أقوى من جهة رواية الشيخين له ، وحديث مارية أكثر موافقة لألفاظ الآيات ، ولا مانع من القول بعد كل هذا بأن الآية نزلت بعد القصتين ، فاقتصر بعض الرواة على إحداهما ، والبعض الآخر على نقل الأخرى .

وامتناع الرسول صلى الله عليه وسلم عما أحله الله له ارضاء لأزواجه كان لما عهد فيه من الحنو على زوجاته والتلطف فى معاملتهن ، وتحمل مايشق على نفسه فى سبيل راحتهن يدل لذلك .

مارواه البخارى بسنده عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهما قال والله إن كنا فى الجاهلية مانعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ماقسم ، قال : فبينا أنا فى أمر أتأمره ، إذ قالت امرأتى لو صنعت كذا وكذا ، قال : فقلت لها : مالك ولما ههنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده فقالت لى : عجبا لك يا ابن الخطاب ، ماتريد أن تراجع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان فقام عمر فأخذ رداءه مكانه ، حتى دخل على حفصة فقال لها ، يابنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه ، فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم(١) .

---

(١) صحيح البخارى ج٣ ص١٢٤ .

فامتناع الرسول صلى الله عليه وسلم عما يحبه ، وتعرضه لما يشق عليه من أجل إرضاء زوجاته كان أمرا معهودا منه ، إلا أن الأولى بالنسبة للشيء الذي امتنع منه هنا عدم الامتناع منه ، فلما ترك الأولى وامتنع منه عوتب عليه نظرا لسمو مقامه وعد الزمخشري له زلة ، وتعليله بما علل به زلة من الزمخشري نفسه ، ولهذا رد عليه ابن المنير في الانتصاف بقوله :

ما أطلقه الزمخشري في حق النبي صلى الله عليه وسلم تقول وافتراء والنبي منه براء ، وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين :

الأول : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله ، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان .

الثاني : الإمتناع مما أحله الله عز وجل كقوله تعالى « وحرمنا عليه المراضع من قبل » أي منعنا لا غير ، وقد يكون مؤكدا باليمين مع إعتقاد حله ، وهذا مباح صرف وحلال محض .

ثم يقول . فعلى القسم الثاني تحمل الآية ، والتفسير الصحيح يعضده ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حلف بالله لا أقرب مارية ، ولما نزلت الآية كفر عن يمينه ، ويدل عليه .

« قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » وهذا القدار مباح ليس في إرتكابه جناح ، وإنما قيل له « لم تحرم ما أحل الله لك » رفقا به وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ، ولمنصبه أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه ... إلى أن يقول . والزمخشري حمله على المحمل الأول ومعاذ الله أن يعتقد النبي تحريم ما أحله الله له ... وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله(٢) .

---

(٢) الانتصاف ج ٣ ص ٢١١ – ٢١٥

الإذن لبعض المتخلفين عن تبوك

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة أن الروم يعدون العدة لقتاله ويجهزون جيوشهم للانقضاض على المسلمين : وبما أن الهجوم أفضل وسائل الدفاع فقد أمر رسول الله صلى الله عليـــه وسلم أصحابه بالاستعداد والتجهيز لغزو الروم ، وذلك فى رجب من السنة التاسعة للهجرة .

يقول ابن هشام ، وذلك فى زمن عسرة من الناس : وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، إلا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم(١) .

وسارع المسلمون بالتجهيز ، ومد سراتهم أيديهم بالبذل لأهل الحاجة والفاقة ليعينوهم على الجهاد ، مسابقين إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، لكن المنافقين وهم لا يصدقون بوعيد الله ، ومغفرته وجنته تواصوا بالتخلف وقال بعضهم لبعض « لا تنفروا فى الحر » فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التخلف عن الغزو معتذرين بعدم الاستطاعة « لو استطعنا لخرجنا معكم » والواقع أنهم كاذبون فى اعتذارهم ، فهم يستطيعون الخروج « والله يعلم إنهم لكاذبون » فأذن لهم الرسول فى القعود بناء على ما أبدوه من عذر فنزلت الآية الكريمة .

« عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين »(٢) والمعنى كما قال ابن جرير :

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٢٥ (٢) سورة التوبة الآية ٤٣

عفا الله عنك يا محمد ماكانَ منك فى إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك ، وفى التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم ، وما كان ينبغى لك أن تأذن لهم فى التخلف عنك إذ قالوا لك : لو استطعنا لخرجنا معك . حتى تعرف من له العذر منهم فى تخلفه ، ومن لا عذر له منهم ، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره ، وتعلم من الكاذب منهم . المتخلف نفاقا وشكا فى دين الله (١) .

وقد تمسك الطاعنون فى عصمة الأنبياء بهذه الآية فى الطعن على نبينا من وجهين :

الأول : قوله تعالى « عفا الله عنك » والعفو يستدعى سابقة المعصية

الثانى : قوله تعالى : « لم أذنت لهم » فهو استفهام إنكارى يفيد أن ذلك الإذن كان معصية .

الجواب

أن إذن الرسول فى التخلف لمن اعتذروا بعدم الاستطاعة ليس معصية ، لأنه لم يخالف نهيا تقدم له ، وإنما ترك فى هذا الأمر لاجتهاده ، والإنسان فى اجتهاده يحكم بحسب ما يظهر له ، والرسول صلى الله عليه وسلم كبشر قد أظهر له هؤلاء الناس أنهم لا يستطيعون الخروج معه للغزو ، والمنافقون كانوا مبالغة منهم فى التهوية ، والخداع ، وإخفاء حقيقتهم يحلفون بالله على ما يقولون (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون) فلا جرم أن يصدقهم كل من يسمعهم والنبى كبشر لا إطلاع له على بواطنهم ، إلا فيما يطلعه الله عليه منهم ،

---

(١) جامع البيان جـ ١٤ ص ٢٧٢

لا حتى وقت الإذن لهم فى التخلف لم يكن قد أطلعه الله على أنهم منافقون كاذبون .

فلا معصية إذن من النبى صلى الله عليه وسلم : وإنما مخالفة للأولى ، إذ كان الأولى له أن يتوقف عن الإذن حتى ينكشف أمرهم ، ويتبين الصادق فى العذر من الكاذب .

يقول الألوسى : إن المعنى : لم سارعت إلى الإذن لهم ، ولم تتوقف حتى ينجلى الأمر كما هو قضية الحزم اللائق بشأنك الرفيع (١)

إذ لو توقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى الاذن لهم بالتخلف لظهروا على حقيقتهم واتضح نفاقهم ، إذ كانوا مصرين على القعود وإن لم يأذن لهم فيه الرسول .

قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا (١)

فيكون قعودهم عن الغزو رغم عدم الإذن لهم فيه فاضحا لأمرهم ، كاشفا نفاقهم وفى ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين حتى لا ينخدعون بهم بعد ذلك .

وعلى هذا فقوله « عفا الله عنك » أى ما صدر منك من مخالفة الأولى و « لم أذنت لهم » إنكار على الرسول الإذن فى التخلف الذى هو خلاف الأولى .

وقد حكى القاضى عياض قولا : بأن الآية فوق أنها لا تدل على سابقة معصية لا تدل على المعاتبة بفعل خلاف الأولى ، لأنه صلى الله

---

(١) روح المعانى ج ٣ ص ٣١٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٦٠

عليه وسلم كان مخير بين الأمرين : إن شاء أذن لهم فى التخلف ، وإن شاء لم يأذن لهم ، فقد قال الله تعالى له « فأذن لمن شئت منهم » فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا .

ونقل عن علماء السلف قولهم : كان لنبينا صلى الله عليه وسلم أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحى يبين حكمه حيث أذن له فى الاجتهاد ، والمجتهد يحكم بما يرى أنه مناسب ومعنى « عفا الله عنك » على هذا لم يلزمك ذنبا (١)

وقول القاضى عياض هذا فيه ضعف من جهتين .

الأولى : أن الآية ظاهرة فى العتاب على ترك الأولى ، وألفاظها تدل عليه بوضوح ، وتلمس غير هذا فى الآية فيه بعد .

الثانية : أن الآية التى معنا نزلت قبل آية النور التى فيها تخيير الرسول بين الإذن وعدمه .

قال قتادة : عاتبه كما تسمعون ، ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال : (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ... (٢)) .

وعلى هذا فالأصح أن الآية تدل على العتاب على ترك الأولى ، ولا تدل على سابقة معصية .

هذا وإن بدء الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالعفو قبل العتاب فى هذه الآية (عفا الله عنك لم أذنت لهم) لطف منه سبحانه بنبيه ،

---

(١) الشفا وشرحها نسيم الرياض جـ ٤ ص ١٧٧ ، ١٧٨

(٢) تفسير ابن كثير ٢ ص ٣٦٠

و كرام له ، وتعليم لنا أن نحسن الأدب مع حبيبه صلى الله عليه وسلم .

ولكن الزمخشرى فى تفسير هذه الآية عبارتان فيهما سوء أدب فى حق نبينا وما كان له — ولا لغيره — أن يقولهما ، وقد استقبحهما العلماء المنصفون ، المقدرون نبيهم حق قدره ، العارفون ما يجب له من التعظيم والتوقير .

أولاهما : قوله إن (عفا الله عنك) كناية عن الجناية ، لأن العفو مرادف لها(١) .

وقد عقب على هذه العبارة أحمد بن المنير الإسكندرى قائلا : ليس — للزمخشرى — أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد مرين : إما أن لا يكون هو المراد وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب — وخصوصا فى حق المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فالزمخشرى على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام ، ولقد أحسن من قال فى هذه الآية : إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدءه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء : لم أذنت لهم ؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام ، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام(٢) .

الثانية قوله — عقب العبارة السابقة — : ومعناه : أخطأت وبئسما فعلت .

وقد عقب عليها الشيخ محمد عليان المرزوقى قائلا : خاطب الله

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢١٥

(٢) الانتصاف ٢١ ص ٢١٥

رسوله خطاب الرقة والرأفة ، وفسره المصنف (الزمخشرى) بخطاب الغلظة والقسوة وشتان ما بينهما(١) .

وقد أحسن الإمام ابن المنير ، والشيخ محمد عليان صنعا فى تعقيبهما على الزمخشرى الذى تجاوز حده مع أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم .

استغفار الرسول

فى القرآن الكريم آيات تأمر الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم بالاستغفار من ذنبه ، وآيات تفيد أن الله تعالى غفر له ذنبه . يدل على وقوع ذنب منه أمر بالاستغفار منه ، وغفر له الله .

من هذه الآيات قوله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات(٢)) .

وقوله تعالى . (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ، واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما(٣)) .

وقوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك(٤)) على تفسير الوزر بأنه الذنب .

وقوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر(٥)) .

وفى هاتين الآيتين إخبار من الله نه يسر لنبيه أمر الفتح ليغفر له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر .

---

(١) حاشية الشيخ عليان على الكشاف جـ ٢ ص ٢١٥

(٢) سورة محمد الآية ١٩ (٣) سورة النساء الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦

(٤) سورة الشرح الآيتان ٢ ، ٣ (٥) سورة الفتح الآيتان ١ ، ٢

دفع الشبهة :

تدفع الشبهة التى طرأت للبعض من فهمهم لهذه الآيات بواحد من اثنين :

الأول : حفظ الرسول صلى الله عليه وسلم من الذنوب قبل النبوة ، وعصمته منها بعد النبوة ، فلا تقع منه ، ووضع الوزر على هذا عن الرسول كناية عن عصمته من الذنوب .

قال أبو حيان : (ووضعنا عنك وزرك) كناية عن عصمته عن الذنوب ، وتطهيره من الأدناس ، عبر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة فى انتفاء ذلك كما يقول القائل : رفعت عنك مشقة الزيارة ، لمن لم يصدر منه زيارة ، على طريق المبالغة فى انتفاء الزيارة منه(١) .

الثانى : أن الذنب هو مخالفة الأولى ، وهو ليس بذنب حقيقة ، وإنما بالنسبة إلى مقام الرسول العالى ، وإنقاض ظهره به ، لاستعظامه إياه ، وهذا القول هو الأظهر .

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستغفار فى الآية الكريمة « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما » لا يستلزم وقوع الذنب من الرسول ، يتبين هذا من سوق سبب نزولها والتى قبلها وهو :

كما أخرجه الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن قتادة ابن النعمان قال : إبتاع عمى رفاعة بن رافع جملا من الدرمك لجعله فى مشربة وفى المشربة سلاح له — درعان وسيفاهما وما يصلحهما — فعدى عليه من تحت الليل فنقبت المشربة ، وأخذ

---

(١) البحر المحيط ج ٨ ص ٤٨٨

الطعام والسلاح... قال : فتحسسنا فى الدار وسألنا، فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا ناراً فى هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم..

فقال لى عمى : يا ابن أخى لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له قال قتادة فأتيت رسول الله فقلت : يارسول الله ، إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سأنظر فى ذلك ، فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له : أسير بن عروة فكلموه فى ذلك ، واجتمع إليه ناس من أهل الدار ، فأتوا رسول الله ، فقالوا : يارسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة : فأتيت رسول الله فكلمته فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة . فرجعت ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله فى ذلك ، فأتانى عمى رفاعة فقال لى : يا ابن أخى ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الله المستعان ، فلم نلبث أن نزل القرآن « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق .. الآية »(١) .

ويلاحظ من هذا : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحكم فى هذه القضية قبل نزول الآيات بشىء ، وإنما توقف .

وأن الذى حصل منه صلى الله عليه وسلم هو حسن الظن ببنى أبيرق ،

(١) فتح القدير للشوكانى حـ ١ ص ٥١٢

لإسلامهم ، وعدم قيام دليل قوى ، ولا بينة على سرقتهم ، والغالبه على المسلمين فى ذلك العهد الصدق والأمانة والغرض من النهى فى قوله « ولا تكن للخائنين خصيما » هو : أن لا يحسن الظن بقوم لمجرد أنهم مسلمون ، وأن لا يساعد من يظن أنه صاحب الحق ، بل يسوى بين الخصمين فى كل شىء حتى تظهر براءة أحدهما وخيانة الآخر .

ويكون أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار من ذلك ، لأنه حسن الظن بقوم ، لأنهم مسلمون ، ومال قلبه بعد شهادة الشهود لصالحهم - إلى براءتهم هذه هى المحامل التى ينبغى أن تحمل عليها الآيات السابقة ، وبها يتأكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقع منه ذنب ، وغيره من الأنبياء مثله .

وإذا فسر الوزر فى الآية الكريمة « ووضعنا عنك وزرك » بالحمل الثقيل فلا مجال لتوهم وقوع ذنب من الرسول إذن ، حيث يكون معنى الآية :-

وحططنا عنك حالك الثقيل الذى جعل لظهرك نقيضا أى صوتا ، والنقيض : صوت المحامل ، والرحال ، والمفاصل ، فنقيض الظهر : ما يسمع لمفاصله من الصوت لثقل الحمل ، وإسناد الإنقاض للحمل إسناد للسبب فهو مجاز .

ولكن ما هو المراد بالحمل المنقض هنا ؟

اختلفت فيه الأقوال ونسوق منها ما يلى :

أحدها : ما كان يضايق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويثقل على نفسه من إصرار قومه على الكفر ، وتماديهم فى العناد ، ورفض الحق ، فأزال الله تعالى عنه هذا بتيسير نشر الدين ، وإسلام كثير منهم ، وفى شرح المواقف :

قد جاء الوزر — بمعنى الثقل كقوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » فجاز أن يكون هنا مستعملا للثقل الذى كان عليه من الغم الشديد لإصرار قومه على إنكاره ، والشرك بالله ، ولعدم استطاعته على تنفيذ أمر الدين ، فلما أعلى الله شأنه ، وشد أزره فقد وضع عنه وزره وثقله ، ويقوى هذا التأويل قوله تعالى « ورفعنا لك ذكرك » وقوله « إن مع العسر يسرا »(١) .

الثانى : أن وزره شدة حرصه عليه السلام على إسلام أولى العناد ، ووضعه عنه عدم تكليفه إلا بالبلاغ دون الهداية فقيل له « إن عليك إلا البلاغ » و « لست عليهم بمصيطر »(٢) .

الثالث : الوزر : ما أثقل ظهره من أعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها ، وحفظ موجباتها ، والمحافظة على حقوقها ، فسهل الله تعالى ذلك عليه ، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له(٣) .

— الرابع : الوزر هو : الحيرة التى كانت له قبل البعثة ، وطلبه شريعة يعمل بها ، ووضعه عنه إنزال شريعة إليه ، بددت حيرته ، وسكنت نفسه ، ووضحت منهجا لنفسه وللناس معه .

قال النيسابورى : المراد : إزالة الحيرة التى كانت له قبل البعث ، كان يريد أن يعبد ربه ، وما كانت نفسه تسكن إلى الشرائع المتقدمة ، لوقوع التحريف فيها(٤) .

وذكر هذا أيضاً الشيخ محمد عبده قال :

---

(١) شرح المواقف للجرجانى المقصد الخامس ص ٩٥٦
(٢) ذكره النيسابورى فى غرائب القرآن حـ ٣٠ ص ٤٣٦
(٣) مفاتيح الغيب حـ ٨ ص ٤٢٩ .
(٤) غرائب القرآن حـ ٣٠ ٤٣٦ .

وقد شرح الله صدر نبيه بإخراجه من تلك الحيرة التى كان يضيق لها صدره بما كان يلاقيه فى سبيله من جحود قومه، وعنادهم، فكان يلتمس الطريق لهدايتهم، فعلمه الله كيف يسلك إلى نفوسهم، وهداه بالوحى إلى الدين الذى يتقدم به من الملكة التى كانوا أشرفوا عليها، وقد كان ما يهمه من أمرهم حملا ثقيلا عليه فوضعه الله عنه، وأراحه من ثقله بقيادة الله له فى سبيل نجاتهم، وتعهده بالوحى كلما التبس عليه أمر، أو ضاق عليه مذهب، فهذه الهداية التى تكفل له بها قد وضع عنه ذلك العبء الثقيل كما قال «ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك»(١).

وهناك أقوال أخرى عدا هذه ذكرها بعض المفسرين أضربت عنها صفحا لضعفها وعدم الاقتناع بما تضمنته.

ونعود إلى آية الفتح لنذكر المقصود بالفتح، وهل هو سبب للمغفرة أو ليس بسبب فنقول:

الفتح: هو الظفر بالبلاد عنوة أو صلحاً. بحرب أو بغير حرب، لأنه مغلق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به فقد فتح.

واختلف فى هذا الفتح فروى قتادة عن أنس: أنه فتح مكة، وقال مجاهد. إنه فتح خيبر وقيل. هو فتح فارس والروم، وسائر بلاد الإسلام التى يفتحها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم.

وهذه البلاد لم تكن فتحت عند نزول الآية، فتكون عدة للرسول بالفتح، وجيء به على لفظ الماضى، لأنها فى تحققها بمنزلة الكائنة، كأنه تعالى قال. إنا فتحنا لك فى حكمنا وتقديرنا، وما قدره وحكم به فهو كائن لا محالة.

---

(١) تفسير جزء عم ص ٤٤٦.

وقال أكثر المفسرين : هذا الفتح هو صلح الحديبية ، وهو الأصح وهو رواية عن أنس .

وقال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام في قلوبهم ، فأسلم في ثلاث سنين خلق كثير فعز الإسلام بذلك ، وأكرم الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم .

والفتح ليس سببا للمغفرة والتقدير : إنا فتحنا لك فتحا مبينا فاستغفر ليغفر لك الله ومثله « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره » .

وقيل : الفتح لم يكن ليغفر له ، بل لتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، ولكنه لما عدد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم كأنه قيل : يسرنا لك الفتح لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض العاجل والآجل .

وقيل : إن الفتح سبب للمغفرة من حيث إنه جهاد للعدو وفيه الثواب أو : من حيث إنه كان سببا لدخول مكة ، والطواف بالبيت ، وأداء فريضة الحج والعمرة(١) .

---

(١) تفسير الخازن والنسفي جـ ٤ ص ١٥١ ، ١٥٢ .

الخاتمة

شبه على عموم الأنبياء وردها

قد انتهينا من دفع الشبه التى أثارها بعض من الناس لم يعرفوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام قدارهم – حول عشرة من الرسل الكرام بما نزه ساحتهم عن طوق ذنب أى منهم .

لكنا وجدنا من زعم وقوع ذنوب من عموم الأنبياء ، لا من نبى معين .

وتمسكوا بظواهر بعض النصوص – قرآنا وسنة – على زعمهم ، إلا أن فهم هذه النصوص فهما صحيحا يظهر بطلان مزاعمهم ، ويقطع دابر مفترياتهم ، فتبقى صحيفة الأنبياء جميعا نقية مشرقة .

من هذه النصوص التى استندوا إليها :

١ – قول الله تعالى « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك » .

أى لقد أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى من قبلك من الرسل مثله ، أى لو شرك أحد منهم لحبط عمله .

وقد فهم البعض – خطأ – من هذا أنه يجوز أن يشرك أحد من الأنبياء .

والفهم الصحيح الذى يدفع هذا الوهم هو : أن ذلك على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها ، أو : أن الخطاب للرسل والمراد أممهم .

٢ – قول الله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا

تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ».

وهذه الآية قد سبق توضيح معناها بما لا يبقى مجالا لطعن طاعن .

فإن كل نبى ، وكل رسول عندما يقرأ ، ويحدث قومه يلقى الشيطان إلى أوليائه شبها ليجادلوا بها الأنبياء والرسل فيما يتلون ويحدثون ، ولكن الله تعالى يبطل هذه الشبهة بالحجج الواضحة الدامغة للباطل .

أو : أن كل نبى وكل رسول عندما يتمنى هداية قومه فإن الشيطان يلقى إليهم بما يصرفهم عن الهدى ، ويقف حجر عثرة فى طريق إيمانهم ولكن الله تعالى لا يبقى أثراً لوساوس الشيطان فى نفوس بعض عباده ويتميز الحق لهم من الباطل فيؤمنوا

٣ – قول الله تعالى « يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم »

وقد فهم البعض من الاستثناء هنا أن بعض المرسلين يقع منهم ظلم ويصدر منهم سوء

والفهم الصحيح يبعد هنا ويؤكد أن المرسلين لا يقع منهم ذنب يطعن فيهم وأن المعنى على واحد من اثنين :

أحدهما : أن الاستثناء منقطع والمعنى : لا يخاف عندى المرسلون حال خطابى إياهم ، أو لا يخاف عندى المرسلون من غيرى لكن من ظلم نفسه بالمعصية وأذنب من غير الأنبياء ، ثم بدل توبة وندما بعد عمل سوء فإنى أقبل توبته وأغفر ذنبه وأرحمه .

ثانيهما : أن الاستثناء متصل ، والمقصود بما صدر منهم من ظلم وسوء هو الصغائر غير الخسية التى تقع منهم سهوا ، أو خطأ فى الاجتهاد ،

وما خالفوا فيه الأولى ، وأطلق عليه ظلم وسوء نظرا لسمو مقامهم ، وعلو شأنهم .

٤ – قول الله تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

فهم يقولون : إن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه قد ضاقت الأمور عليهم ، واشتد البلاء بهم ، ومن آمن معهم حتى استبعدوا نصر الله لهم ، فكان الله تعالى يبين لهم أن نصره ليس بعيدا عنهم ، ولكنه قريب منهم « متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

فالرسل إذن تساووا مع غيرهم من البشر في نفاد الصبر ، والضجر من الشدائد إلى حد أن عدوا نصر الله بعيدا منهم ، فكيف يحدث هذا من الرسل ؟

والمعنى الصحيح هو : أن الرسل والمؤمنين معهم عندما اشتد البلاء بهم ، وزلزلوا زلزالا شديدا تمنوا النصر من الله وطلبوه ، ولا شيء على من إذا ضاق الحال به وازعج من عدوه إزعاجا شديدا ، أن يطلب من ربه كشف الضر عنه ، وإعطاءه النصر يدل لهذا ما بعده « ألا إن نصر الله قريب » .

فهو يدل على إجابة الله مطلبهم من النصر العاجل ، فالرسل واثقون من النصر وأنه آت إن قريبا أم بعيدا لكنهم – رحمة بمن آمن معهم واشتد البلاء بهم – يطلبونه قريبا (١) .

ويدل لهذا أيضا ما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت

---

(١) تفسير أبو السعود ج ١ ص ١٦٤ والشفا ج ١ ص ١٠٧ .

قال: قلنا: يا رسول الله ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه، فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون »(١)

فالرسل واثقون من أن ربهم سيتم لهم أمرهم، ويعلى كلمته، ويمكن لدينه إن قريبا أم بعيدا، وعندما يشتد الكرب، ويطول البلاء بالمؤمنين معهم يطلبون النصر القريب ولا مطعن من هذا فى حقهم.

أما أن الرسل تيأس من النصر، وتظن أن الله أخلفهم ما وعدهم به فهذا هو المستبعد فى حق الرسل، ولا يصدق العقل السليم وقوعه منهم.

قوله تعالى « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين »(٢)

فى قوله « كذبوا » قراءتان: التخفيف والتشديد.

فعلى قراءة التخفيف والبناء للمفعول، لا يصح أن يفهم منه ما توهمه البعض من أن الرسل يئسوا من النصر على مكذبيهم، وظنوا أن الله أخلف وعده بالنصر عليهم (٣)

لأن هذا يقتضى شكهم فيما جاءهم به الوحى، وحاشا الرسل هذا.

ومنعا لهذا الفهم الخاطىء كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تقرأ الآية بالتشديد.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٦

(٢) سورة يوسف الآية ١١٠

(٣) على عود الضميرين فى « وظنوا » و « أنهم » على الرسل.

ومعناها : حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن اتباعهم — الذين آمنوا — قد كذبوهم ، لطول البلاء وتأخر النصر عنهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت له : — وهو يسألها عن قول الله تعالى « حتى إذا استيأس الرسل » قال : قلت : أكذبوا أم كذبوا (مشددة أو مخففة) قالت عائشة : كذبوا (بالتشديد) قلت : قد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ، قالت : أجل لعمرى ، لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها « وظنوا أنهم قد كذبوا » ، قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن اتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك (١)

فها هى أم المؤمنين رضى الله عنها لما وجدت فى قراءة التخفيف احتمال أن تفهم بما لا يليق برسل الله عدت إلى قراءة التشديد ، وقولها معاذ الله ، إنكار لأن يظن الرسل بربهم ما لا يليق .

وأما ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه يرى : أن المعنى وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، لأنهم بشر ، وتلا قول الله تعالى « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (٢)

---

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ٩٥

(٢) وذلك على عود الضمير فى « وظنوا أنهم » على الرسل ، و « كذبوا » مبنى للمفعول والله أعلم .

فقد وجهه القشيرى بأنه هاجس خطر على قلوبهم فصرفوه عنها .

ووجه الحكيم الترمذى : بأنهم ظنوا تخلفه لتخلف بعض شروطه لأنهم اتهموا الوحى (١)

وهناك أوجه أخرى فى توجيه قول ابن عباس تظهر عليها مسحة الضعف لذا لم أذكرها .

وكما أن قراءة التشديد لا توهم ما يقدح فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقراءة التخفيف يمكن أن تفهم الآية - عليها - على وجوه مقبولة تستقيم وتبرئة ساحة الأنبياء عما لا يليق نسبته إليهم وهى :

الأول : أن الرسل لما طالت مدة إمهال مكذبيهم ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم أخلفوا ما وعدوهم به من نصرهم على عدوهم فليس يأس الرسل .

وظنهم التكذيب معناه : اليأس من نصر الله وكذب وعد الله (٢)

الثانى : أن اتباع الرسل ظنوا - إذ لم يروا لوعدهم النصر نتيجة وأثراً ظاهرا بسبب تراخيه عنهم - أنهم قد كذبوا فيما أخبروه به قومهم من انهم ينتصرون عليهم (٣)

الثالث : أن أمم الرسل المكذبين لهم ظنوا أن رسلهم كذبتهم فى قولهم : إنهم منتصرون عليهم (٤)

---

(١) نسيم الرياض ج ٤ ص ١٣

(٢) هو مبنى على الضمير فى (ظنوا) للرسل وفى (أنهم) لاتباعهم ، و (كذبوا) مبنى للمفعول ، والمراد أتباع الرسل (نسيم الرياض ج ٤ ص ٦٢) .

(٣) هو مبنى على عود الضمير فى (ظنوا) على الأتباع .

(٤) هو مبنى عود الضميرين فى (وظنوا أنهم) لأمم الدعوة ، وأن فاعل كذبوا الرسل .

الرابع : ظن الذين لم يؤمنوا بالرسل أن الرسل كذبوا بما وعدوا من النصر على أعدائهم (١)

ومعنى « جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين »

لما بلغ الحال إلى الحد المذكور جاء نصرنا للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة فنجى النبي ومن آمن به ، ولا يرد عذابنا عن القوم الكافرين .

فهذه الآية على الوجوه السابقة لا تقتضي شكا من الأنبياء فيما جاءهم به الوحي ولا ظنا أن الله أخلف وعده لهم بالنصر على أعدائهم .

والحديث الذي يفيد أن كل البشر قد أذنبوا ، أو قاربوا الذنب إلا يحيى بن زكريا قد رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا بلفظ « ما من أحد إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا » وأخرجه أيضا البزار عن ابن عمر مرفوعا .

ورواه الثعالبي أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل بني آدم يلقى الله عز وجل بذنبه ، فيعذبه أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا ، فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين »

---

(١) هو مبني على عود الضمير في « ظنوا » للمرسل إليهم وفي (أنهم) للرسل .
وحسن عود الضمير إلى المرسل إليهم ، ولم يجر لهم ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم ، أو : أن ذكر المرسل إليهم جرى في قوله قبل (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) والظن على هذا بمعنى التوهم والحسبان ؛
وأما الظن على قراءة التشديد فيحتمل واحدا من اثنين : إما أن يكون بمعنى الحسبان ، والتقدير : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم . وإما أن يكون بمعنى اليقين . والمعنى : وأيقن الرسل أن الأمم - أمم الدعوة - كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك .

وذكره القاضي عياض في الشفا بلفظ «ما من أحد إلا ألم بذنب أو كاد إلا يحيى بن زكريا».(١)

وقد ضعف قال الشهاب الخفاجي: وسنده ضعيف، ثم قال ومتابعته تقويه في الجملة (٢).

وعلى تسليم أن المتابعة اكسبته قوة حتى صار يحتج به فيجاب عنه بأحد جوابين:

الأول: أن الذنب بالنسبة للانبياء عليهم الصلاة والسلام هو مخالفة الأولى، وسمي ذنبا نظرا لعلو مقامهم، وسمو منزلتهم عند الله، وحسنات الأبرار سيئات المقربين:

أو: أنه الصغائر غير الخسية التي صدرت منهم سهوا، أو خطأ في التأويل.

الثاني: أن الحديث ذكر أن كل إنسان قد كانت منه إحدى الحالتين فعل الذنب، أو الهم به من غير أن يفعله، وعلى هذا فالذين فعلوا الذنب هم من عدا الأنبياء، والذين هموا ولم يفعلوا هم الأنبياء، ويفسر الهم بأنه حديث النفس، أو ميل الطبع، وكل منهما لا يطعن به في مقام الأنبياء يدل على هذا ما ثبت ثبوتا قاطعا من عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب بالأدلة العقلية والنقلية وسبحان ربك رب العزة عما يصفون — وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

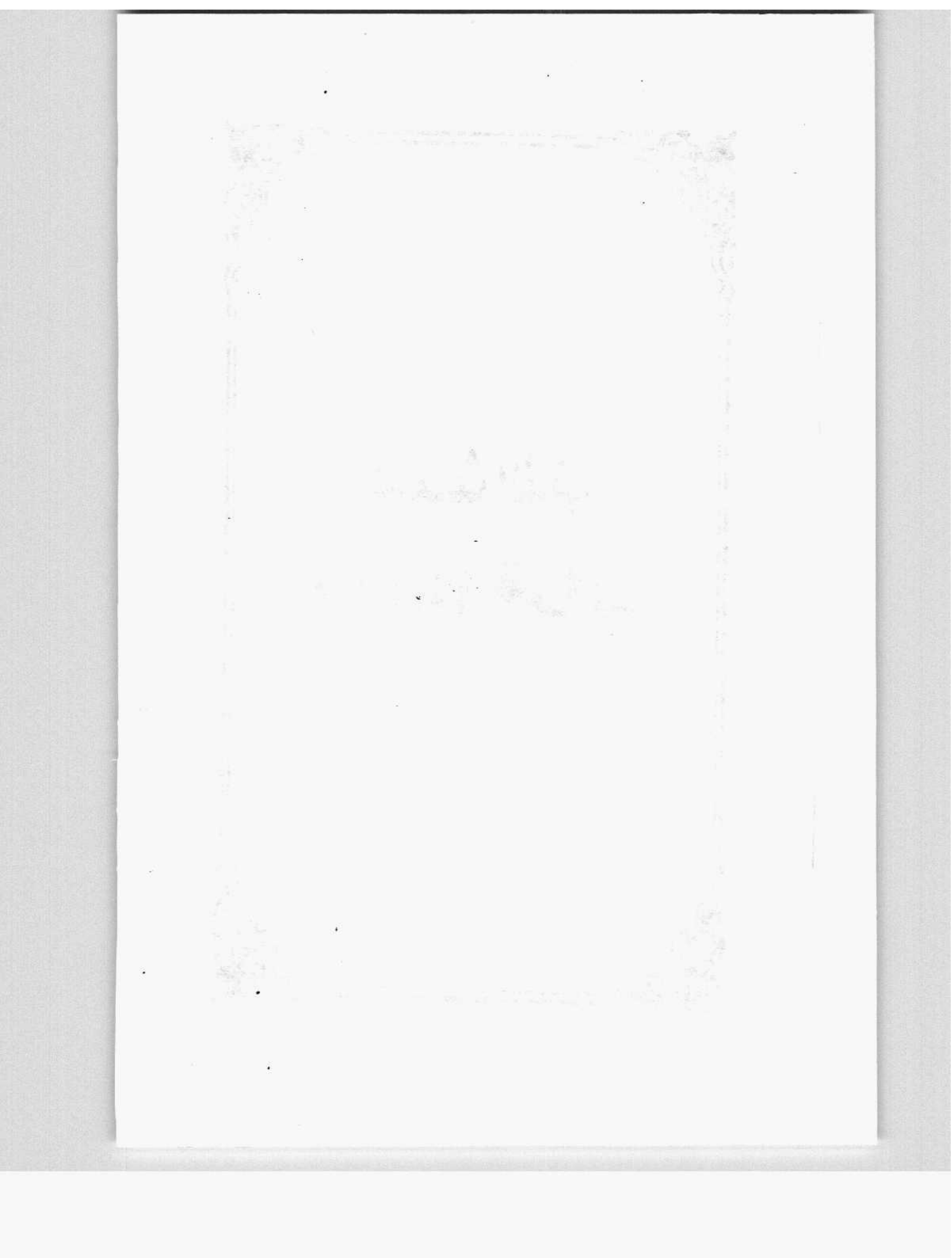
(١) معنى «ألم» «وقع منه ذلك قليلا» و«كاد» قرب منه فهو بمعنى هم في الرواية الأخرى.

(٢) نسيم الرياض جـ ٤ ص ٢٤٠



المبحث الثانى

علوم قرآن



القرآن الكريم وتنزلاته

مقدمة:

الحمد لله كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه.. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد خلقه وإمام رسله نبينا محمد الذى أنزل عليه ربه كتابا قال فى حقه ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

صلاة وسلاما عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، والتابعين وأتباعهم المباركين الذين تعلموا القرآن وعلموه فصاروا خير الأمة وسادة الـ...

وبعد،،،

فإن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وكتابه الخالد الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ ليكون لأتباعه منارة اهتداء، ومصدر إشعاع واقتداء، وإماما يقودهم إلى خيرى الدنيا والآخرة، ودستورا ينهلون منه تشريعهم القويم وقانونهم المستقيم الذى ينظم لهم حياتهم فيجعل الإيمان إطارها، والعدل سمتها والأمن طابعها والاستقرار معينها فينعم الناس فى رحابه ويفيئون فى ظلاله، فيكون ذلك أكبر معين لهم على تحقيق العبادة وطاعة الله تعالى، وبذلك يتحقق الغرض من وجودهم كما أخبر سبحانه بقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا

[1] سورة الحشر آية ٢١

ليَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1].

هذا.. ولقد شغل فكرى وقلبى إنحسار هذه المعـانى الكريمـة مـن النفوس، وإبعاد القرآن الكريم.. وهو دستورنا نحن المسلمين ومصدر تشريعنا الذى ارتضاه الله لنا.. عن تدبير شئون حياتنا وتنظيم جميع أمورنا، والاهتداء به فيما يهمنا من أمر ديننا ودنيانا..

ولعل من أهم أسباب ذلك: هو الجهل بالقرآن وترك تعليمـه، وعـدم معرفة قدره وفضله، وهو الذى قال الله فى شأنه ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُـورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]

وقال فى شأن تاليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَـامُوا الصَّـلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَـن تَبُـورَ * لِيُـوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3]

وقال فى شأن حملته وحفظته ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِـنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَـبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[4]

---

(1) سورة الذاريات آية ٥٦ – ٥٨

(2) سورة المائدة آية ١٥، ١٦

(3) سورة فاطر آية ٢٩، ٣٠

(4) سورة فاطر آية ٣٢، ٣٣

والذى أمرنا الله تعالى بتلاوته ليلا ونهارا فقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]

هذا: وإن من الوفاء للقرآن الكريم والإعتراف بحقه وحقيته أن نضع أمام عين القارىء الكريم بعض المباحث والعلوم التى ينبغى أن يعرفها الذين يشتغلون بتفسير القرآن الكريم والدراسات القرآنية.

وقبل الشروع فى بيان تلك المباحث والعلوم يجدر بنا أن نعرف القرآن فى لغة العرب ثم فى اصطلاح العلماء ثم نذكر عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه، ثم نذكر أقوال العلماء فى ترتيب آياته وسوره فنقول:

القرآن لغة: هو مصدر للفعل قرأ بمعنى تلا تقول، قرأته قرء وقراءة وقرآنا ويشهد لهذا ورود القرآن مصدرا بمعنى: القراءة فى الكتاب الكريم نفسه قال تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[2] أى قراءته.. فهو مصدر على وزن فُعلان بضم الفاء كالغُفران والشكُران.. ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسما للكلام المنزل على سيدنا محمد

---

[1] سورة المزمل آية ٢٠

[2] سورة القيامة آية ١٧، ١٨

ﷺ، من باب تسمية المفعول بالمصدر - حيث سمى المقروء قرآنا.. والفعل (قرأ) يأتى بمعنى الجمع والضم..

والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في ترتيب - والقرآن في الأصل كالقراءة حيث إنه والقراءة مصدر للفعل - قرأ - كما بينا ذلك..

وأما تعريفه فى اصطلاح العلماء، فقد ذكر العلماء له عدة تعريفات تقرب معناه وتميزه عن غيره.. وأشهر هذه التعريفات هو:

إن القرآن: الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المنقول إلينا بالتواتر المتحدى بأقصر سورة منه، المكتوب بين دفتى المصحف الشريف...

وقد عرفه الأصوليون والفقهاء وأهل العربية بتعريف قريب مما ذكرناه فقالوا:

القرآن: هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، المعجز بلفظه، والمتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس...

وقد خص القرآن بالكتاب المنزل على نبينا محمد ﷺ، فصار له كالعلم الشخصى. وهو فى نفس الوقت مشترك لفظى بين كل القرآن وأجزائه. فيطلق بالاشتراك اللفظى على مجموع القرآن، وعلى كل آية من آياته، فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله: قرأ قرآنا، ويقال لمن قرأ بعضه قرأ قرآنا..

وهو ما يفهم من كلام الفقهاء، حينما قالوا يحرم على الجنب قراءة القرآن، فإنهم يقصدون قراءة كله أو بعضه على السواء[1].

---

[1] مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى جـ١ ص٧ ،١٦ بتصرف.

وجه تسمية القرآن بهذا الاسم:

ذكر بعض العلماء أن تسمية الكتاب المنزل على محمد ﷺ قرآنا من بين سائر كتب الله التى أنزلها على رسله عليهم السلام، لكونه جامعا لثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2]

تنزلات القرآن الكريم

لقد تكلم الله تعالى بالقرآن الكريم على الوجه الذى يليق بذاته المقدسة، ثم أثبته سبحانه فى اللوح المحفوظ فى الوقت الذى لاعلم لأحد به ولا بالكيفية التى لاعلم لأحد بها.

وهذا الإثبات للقرآن الكريم فى اللوح المحفوظ هو ما يطلق عليه العلماء التنزل الأول للقرآن الكريم ودليل هذا قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[3]

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4] وقد ذكر العلماء بأن هذا التنزل الأول للقرآن الكريم كان جملة لامفرقا، لأن الحكمة من التنجيم لامكان لوجودها عند ذلك..

---

[1] سورة النحل آية ٨٩
[2] سورة الأنعام آية ٣٨
[3] سورة البروج آية ٢١، ٢٢
[4] سورة الواقعة آية ٧٧ – ٨٠

الحكمة من إثبات القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ:

والحكمة من إثبات القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ قبل إنزاله على النبى ﷺ ترجع إلى الحكمة من وجود اللوح المحفوظ نفسه حيث جعله الله سبحانه سجلاً جامعاً لكل ما قضاه وقدره، وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد..

فاللوح المحفوظ شاهد بقدرة الله تعالى الدالة على عظمته وعلمه وحكمته، وهذا يعمق ويقوى الإيمان بالله تعالى ويبعث الطمأنينة فى نفس العبد فيما يظهره الله تعالى لعباده من مكنون ما قضاه الله تعالى وقدره..

التنزل الثانى للقرآن الكريم:

ثم أنزل الله تعالى القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا جملة واحدة، فى ليلة مباركة ذات قدر من ليالى رمضان وهذا النزول هو ما يطلق عليه العلماء التنزل الثانى للقرآن الكريم.

ولقد تضافرت الأدلة الكثيرة على ذلك والتى منها قوله تعالى ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1]

وقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2]

وقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[3]

---

[1] سورة الدخان آية ١ -٤

[2] سورة القدر آية ١ -٣

[3] سورة البقرة آية ١٨٥

فهذه الآيات تدل على أن القرآن الكريم أنزل جملة فى ليلـــة واحـــدة تسمى بليلة القدر، وتوصف بكونها مباركة، وهي من ليالى شهر رمضان.

ومن الأخبار الصحيحة الدالة على أن القرآن الكريم أنزل من اللـــوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا جملة واحدة: ما أخرجه الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال (فصل القرآن مـــن الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ).

وأخرج الحاكم والبيهقى من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال (أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثـــم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة).

وأخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (أنزل القرآن فى ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا وكان بمواقـــع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى إثر بعض).

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه ســـأله عطيـــة بـــن الأسود، فقال: أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[1] وقوله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2] وهذا أنـــزل فـــى شـــعبان وشوال وذى القعدة وذى الحجة، وفى محرم وصفر، وشهر ربيع، فقال ابـــن عباس: إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً فى الشهور والأيام...

---

[1] سورة البقرة الآية ١٨٥

[2] سورة القدر الآية ١

قال السيوطى، قال أبو شامة (رسلا أى رفقا، وعلى مواقع النجوم أى على مثل مساقطها، يريد أنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقا، يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق)[٣]

فهذه عدة روايات توضح أن القرآن أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزل منجما بعد ذلك.. وهذه الروايات صحيحة، وقد قال السيوطى، وهى وإن كانت موقوفة على ابن عباس إلا أن لها حكم المرفوع إلى النبى ﷺ وذلك لما هو مقرر عند علماء الحديث أن قول الصحابى الذى لا مجال للرأى فيه، ولم يعرف هذا الصحابى بالأخذ عن الإسرائيليات يكون قوله هذا له حكم المرفوع إلى النبى ﷺ.

ومما لاشك فيه أن نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا من الأمور التى لا مجال للرأى فيها، لأنها من الغيبيات التى لا تعرف إلا من النبى ﷺ.

الحكمة من نزول القرآن الكريم جملة من اللوح المحفوظ:

والحكمة من نزول القرآن الكريم جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، هى تفخيم وتعظيم شأن القرآن الكريم وشأن من أنزل عليه ﷺ وإعلام سكان السموات السبع أن القرآن هو آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل ﷺ لأشرف الأمم – وكذلك فى نزوله إلى السماء الدنيا، تشويق للنبى ﷺ – حيث يكون القرآن الكريم قريبا منه..

---

[٣] الإتقان فى علوم القرآن: للسيوطى جـ١ ص٥٣، ٥٤ وانظر كشف الأستار عن زوائد البزار للحافظ نور الدين الهيثمى جـ٣ ص٨٢ – مؤسسة دار الرسالة.

التنزل الثالث للقرآن الكريم:

ثم، لما أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إلى الناس كافة، جاءت المرة الثالثة والأخيرة لنزول القرآن الكريم، حيث نزل القرآن الكريم من السماء الدنيا على النبي ﷺ منجما، أي مفرقا بواسطة سفير الوحي جبريل عليه السلام.

بحسب الدواعي والأسباب طوال سنين البعثة المحمدية... وهذا ما يسمية العلماء (بالتنزل الثالث للقرآن الكريم).

وأدلة هذا التنزل قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1]

ولقد كانت مدة بعثة النبي ﷺ ثلاثا وعشرين سنة حيث نبيء ﷺ - في سن الأربعين - وتوفي ﷺ في سن الثالثة والستين، ويؤكد ذلك ويدل عليه ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أنزل على الرسول ﷺ وهو ابن أربعين فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنيين ثم توفي ﷺ)[2]

وفي رواية ثانية عن ابن عباس قال (بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين)[3]

---

[1] سورة الشعراء آية ١٩٢ - ١٩٥

[2] صحيح البخاري جـ٣ ص١٢٩٨ كتاب فضائل الصحابة باب مبعث النبي ﷺ.

[3] صحيح البخاري جـ٣ ص١٢٩٨ كتاب فضائل الصحابة باب مبعث النبي ﷺ.

حكمة نزول القرآن الكريم منجماً

لقد تكلمنا فيما سبق عن تنزولات القرآن الكريم فى تنزولاته الثلاثة وبينا الحكمة من نزوله جملة من الواح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا فى الليلة المباركة التى هى ليلة القدر - ونبين هنا الحكمة من نزوله بعد ذلك منجماً على النبى ﷺ فنقول:

إن الناظر فى نزول القرآن الكريم منجماً على النبى ﷺ يستطيع أن يستخلص حكماً عديده منها الآتى:-

الحكمة الأولى:- تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ:

لقد وجه رسول الله ﷺ دعوته إلى الناس، فوجد منهم نفوراً وقسوة، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الجفوة، وجبلوا على العناد، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخبر الذى يحمله إليهم، حتى قال الله فيه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف (٦). فكان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ فترة بعد فترة، بما يثبت قلبه على الحق، ويشحذ عزمه على المضى قدما فى طريق دعوته، ولا يبالى بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع.

ويبين الله له سنته فى الأنبياء السابقين الذين كذبوا وأوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله، وأن قومه لم يكذبوه إلا علوا واستكبارا، فيجد عليه الصلاة والسلام فى ذلك السنة الإلهية فى موكب النبوة عبر التاريخ التى يتأسى بها تسلية له إزاء أذى قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه قال تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ الأنعام(٣٣،٣٤). ويقول أيضا ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ آل عمران (١٨٤).

ويأمر الله نبيه ﷺ في القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله فيقول تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ الأحقاف (٣٥).

ويطمئن نفسه بما تكفل به من كفايته أمر المكذبين فيقول تعالى ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا * وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا﴾ المزمل (١٠، ١١).

وهذا هو ما جاء في حكمة قصص الأنبياء بالقرآن قال تعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ هود (١٢٠).

ولكلما اشتد ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعماً وتسلية له يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ما كان منهم قال تعالى ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يس (٧٦). ﴿ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم﴾ يونس (٦٥).

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر فيقول تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾ المائدة (٦٧). ويقول أيضاً ﴿وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ الفتح (٣) ويقول كذلك ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ المجادلة (٢١).

وهكذا كانت آيات القرآن تنزل على رسول الله ﷺ تباعا وتسلية له بعد تسلية، وعزاء بعد عزاء، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه ولا يستبد به الأسى، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلا، فله فى قصص الأنبياء أسوة، وفى مصير المكذبين سلوى، وفى العدة بالنصر بشرى، وكلما عرض له شئ من الحزن بمقتضى الطبع البشرى تكررت التسلية، فثبت قلبه على دعوته، واطمأن إلى النصر.

وهذه الحكمة هى التى رد الله بها على اعتراض الكفار فى تنجيم القرآن بقوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ الفرقان (٣٢).

قال أبو شامة: [١] "فإن قيل: ما السر فى نزوله منجماً؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه، فقال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ أى أنزلناه مفرقا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى لنقوى به قلبك، فان الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل عليه السلام"[٢].

---

[١] أبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى، الفقيه الشافعى، له "الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز" و "شرح على الشاطبية المشهورة فى القراءات. توفى سنة ٦٦٥ هجرية.

[٢] أنظر الإتقان صفحة (٤١) ج ١

الحكمة الثانية:- التحدى والإعجاز.

فالمشركون تمادوا فى غيهم، وبالغوا فى عتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحد يمتحنون بها رسول الله ﷺ فى نبوته، ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم، كعلم الساعة قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ ١٨٧ – الأعراف، واستعجال العذاب قال تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ٤٧ – الحج فيتنزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم، وبما هو أوضح معنى فى مؤدى أسئلتهم، قال تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ الفرقان (٣٣). أى ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التى هى مثل فى البطلان.

وحيث عجبوا من نزول القرآن منجماً بين الله لهم الحق فى ذلك، فإن تحديهم به مفرقاً مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل فى الإعجاز، وأبلغ فى الحجة من أن ينتزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله، ولهذا جاءت الآية عقب إعتراضهم وهى قوله تعالى ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أى لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمنا وبما هو أبين معنى فى إعجازهم، وذلك بنزوله مفرقاً، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات فى حديث ابن عباس عن نزول القرآن حيث قال "فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواب"[1]

---

[1] أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس.

الحكمة الثالثة:- تيسير حفظه وفهمه:

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أميّة لا تعرف القراءة والكتابة، سجلُّها ذاكرة حافظة، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدون، ثم تحفظ وتفهم قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة (٢)، وقال أيضاً ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الأعراف (١٥٧)، فما كان للأمة الأميّة أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة، وأن تفهم معانية وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقا خير عون لها على حفظه فى صدورها وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة رضى الله عنهم وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها، واستمر هذا منهجا للتعليم فى حياة التابعين، فعن أبى نضرة قال: "كان أبو سعيد الخدرى يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشى، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات"[1] وعن خالد بن دينار قال: "قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسا خمسا"[2] وعن عمر قال: "تعلموا القرآن خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ﷺ خمسا خمسا"[3]

---

(1) أخرجه ابن عساكر.

(2) أخرجه البيهقى.

(3) أخرجه البيهقى فى شعب الايمان.

الحكمة الرابعة: مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع:

فما كان الناس ليسهل قيادتهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمة، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطبون بها من الفساد والرذيلة، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يجلي لهم صبحها ويرشدهم إلى الهدى، ويضع لهم أصول التشريع حسب المقتضيات أصلا بعد آخر فكان هذا طباً لقلوبهم.

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذي بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام.

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التي تزكو بها النفس ويستقيم عوجها، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر. ويبين قواعد الحلال والحرام التي يقوم عليها صرح الدين، وترسو دعائمه في المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء.

ثم تدرج التشريع بالأمة في علاج ما تأصل في النفوس من أمراض اجتماعية بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان، خالصة لله، تعبده وحده لا شريك له.

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين في جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله.

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه.

ففى مكة شرعت الصلاة، وشرع الأصل العام للزكاة مقارنا بالربا قال تعالى ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ الروم (٣٨، ٣٩).

ونزلت سورة الأنعام - وهى مكية - تبين أصول الإيمان، وأدلة التوحيد، وتندد بالشرك والمشركين، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأنعام (١٥١، ١٥٢).

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام:

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المداينة وآيات تحريم الربا.

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة، أما بيان حقوق كل من الزوجين، وواجبات الحياة الزوجية، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة

أو انفصامها بالطلاق، أو انتهائها بالموت ثم الإرث - أما بيان هذا فقد جـاء فى التشريع المدنى.

وأصل الزنى حرم بمكة قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء (٣٢). ولكن العقوبات المترتبة عليـه نزلـت بالمدينة.

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الإسراء (٣٣). ولكن تفصيل عقوباتها فى الأعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة.

وأوضح مثال لذلك التدريج فى التشريع تحريم الخمر.

فقد نزل قولة تعالى ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ النحل (٦٧). فى مقـام الإمتنان بنعمه سبحانة - وإذا كان المراد بالسكر مـا يسـكر مـن الخمـر، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب - وهـذا مـا عليـه جمهور المفسرين - فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السكر يشـعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر.

ثم نزل قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ البقرة (٢١٩). فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتـب علـى الإتجار بها من ربح، ومضارها فى أثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر فـى الجسم، وفساد فى العقل وضياع للمال وإثارة لبواعث الفجـور والعصـيان، ونفرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع.

ثم نزل قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ النساء (٤٣). فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر في الأوقات التي يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة، حيث جاء النهي عن قربان الصلاة في حال السكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه في صلاتهم.

ثم نزل قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ المائدة (٩٠، ٩١). فكان هذا تحريما قاطعا للخمر في الأوقات كلها.

ويوضح هذه الحكمة ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شئ "لا تشربوا الخمر أبدا لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل "لا تزنوا" لقالوا: "لاندع الزنى أبدا"[1]

وهكذا كان التدريج في تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث، فقد استشار رسول الله ﷺ صحابته في أسرى بدر، فقال عمر: اضرب أعناقهم، وقال أبو بكر: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، وأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر، فنزل قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال (٦٧، ٦٨)[2].

---

[1] أخرجه البخاري.

[2] من حديث أخرجه أحمد عن أنس.

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل: لن نغلب من قلة، فلقنوا درسا قاسيا فى ذلك، ونزل قوله تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة (٢٥ - ٢٧)[1].

ولما توفى عبد الله بن أبى - رأس المنافقين - دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قال عمر: أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا،؟ يعدد أيامه. ورسول الله ﷺ يبتسم، ثم قال له إنى قد خيرت، قد قيل لى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٨٠)، فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، قال عمر، فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ التوبة (٨٤، ٨٥)، فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل"[2].

وحين تخلف نفر من المؤمنين الصادقين فى غزوة تبوك، وأقاموا بالمدينة، ولم يجد رسول الله ﷺ لديهم عذرا هجرهم وقاطعهم حتى ضاقوا

---

[1] أخرجه البيهقى فى الدلائل.
[2] أخرجه البخارى وأحمد والنسائى والترمذى وابن ماجه وغيرهم.

ذرعا بالحياة ثم نزل القرآن لقبول توبتهم قال تعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التوبة (١١٧، ١١٨)[1] ويشير إلى هذا ما روى عن ابن عباس فى نزول القرآن: "وتنزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم"[2].

الحكمة الخامسة:- الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد:

إن هذا القرآن الذى نزل منجماً على رسول الله ﷺ فى أكثر من عشرين عاماً تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسج، ودقيق السبك، مترابط المعانى، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل فى كلام البشر قال تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود (١)، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل فى مناسبات متعددة، ووقائع متتالية، وأحداث متعاقبة؛ لوقع فيه التفكك والإنفصام، واستعصى أن يكون بينه التوافق والإنسجام قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء(٨٢).

---

[1] من حديث طويل أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما، والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار.
[2] أخرجه الطبرانى والبزار عن ابن عباس - وأخرجه ابن أبى حاتم من وجه آخر.

فأحاديث رسول الله ﷺ - وهى فى ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم - لا تنتظم حباتها فى كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض فى وحدة وترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقا وانسجاما، فكيف بكلام سائر البشر وأحاديثهم قال تعالى ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء (٨٨)[1].

الاستفادة من نزول القرآن منجما فى التربية والتعليم

تعتمد العملية التعليمية على أمرين :

أولهما : مراعاة المستوى الذهنى .

وثانيهما: تنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلى الخير والرشاد.

ونحن نلحظ فى حكمة نزول القرآن منجماً ما يفيدنا فى مراعاة هذين الأمرين على النحو الذى ذكرناه آنفا، فإن نزول القرآن الكريم تدرج فى تربية الأمة الإسلامية تدرجا فطرياً لإصلاح النفس البشرية، واستقامة سلوكها، وبناء شخصيتها، وتكامل كيانها، حتى استوت على سوقها، وآتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة.

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه، والعمل بما فيه.

---

[1] انظر هذه الحكمة فى مناهل العرفان للزرقانى صفحة (٥٤) ج ١.

وبين نزول القرآن فى مطلع الوحى بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة قال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق (١-٥)، ونزول آيات الربا والمواريث فى نظام المال، أو نزول آيات القتال فى المفاضلة التامة بين الإسلام والشرك - بين ذلك وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التى تلائم مستوى المجتمع الإسلامى فى تدرجه من الضعف إلى القوة، ومن القوة إلى شدة البأس.

والمنهج الدراسى الذى لا يراعى فيه المستوى الذهبى للطلاب فى كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والإنتقال من الإجمال إلى التفصيل، أو لا يراعى تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسمية هو منهج فاشل لا تجنى منه الأمة ثمرة عملية سوى الجمود والتخلف.

والمدرس الذى لا يعطى طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيثقل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظا أو فهما أو يحدثهم بما لا يدركوه، أو لا يراعى حالهم فى علاج ما يعرض لهم من شذوذ خلقى أو يفشو من عادات سيئة، الذى يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك. يحول العملية التعليمية إلى متاهات موحشة، ويجعل غرف الدراسة قاعات منفرة.

وقس على هذا الكتاب المدرسى، فالكتاب الذى لا تنتظم موضوعاته وفصوله، ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب، ولا تترتب جزئياته ترتيبا محكما منسقا، ولا يكون أسلوبه واضحا فى أداء المعنى المقصود، كتاب ينفر الطالب من قراءته، ويحرمه من الاستفادة منه.

والهدى الإلهى فى حكمة نزول القرآن منجماً هو الأسوة الحسنة فى صياغة مناهج التعليم، والأخذ بأمثل الطرق فى الأساليب التربوية بقاعة الدرس، وتأليف الكتاب المدرسى[1].

هذا وبعد أن انتهينا من بيان الحكمة من نزول القرآن الكريم على النبى ﷺ منجماً يجدر بنا أن نبين ونوضح هل الكتب السماوية الأخرى نزلت جملة واحدة أما نزلت مفرقه كالقرآن الكريم؟

لقد اشتهر على ألسنة العلماء حتى كادوا يجمعون على أن الكتب السماوية السابقة نزلت على الأنبياء السابقين عليهم السلام جملة واحدة ولم تنزل مفرقة كما نزل القرآن الكريم على النبى ﷺ ولقد ساق العلماء عدداً من الأدلة على ذلك منها.

١ – أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن اليهود قالوا يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى عليه السلام، ففى هذا دليل على أن التوراة نزلت جملة واحدة.

٢– (أ) جاء فى القرآن الكريم ما يدل على نزول التوراة جملة واحدة ففى سورة الأعراف قال الله تعالى ﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

---

[1] انظر مناهل العرفان جزء ١ صـ ٤٦ وما بعدها – وانظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جزء ١ ص ٤٠ وما بعدها – انظر كذلك كتاب مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ١٠٧ وما بعدها.

[2] سورة الأعراف ١٤٤، ١٤٥.

(ب) وأخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام أيضا أنه رجع إلى قومه غضبان أسفاً بعدما علم أنهم قد صنعوا من حليهم عجلا وعبدوه من دون الله ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ (١)

(جـ) وقال الله تعالى أيضاً ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (٢)

٣- روى النسائي وغيره أنه لما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وأمر قومه بما فيها من الواجبات فثقلت عليهم وأبوا قبولها فرفع الله الجبل فوقهم كأنه ظلة وخافوا أن يقع عليهم فقبلوا ما فيها من الواجبات)(٣).

٤- أخرج ابن أبي حاتم عن ثابت بن الحجاج أنه قال إن التوراة نزلت جملة واحدة.

والتوراة كما هو معروف أعظم الكتب السابقة التي سبقت نزول القرآن الكريم فإذا ثبت كونها نزلت جملة واحدة كان نزول غيرها كذلك من باب أولى.

وفي هذا يقول القرطبي: عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (٤)

أن اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقاً على النبي ﷺ قالوا هلا أنزل عليه - القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود (٥).

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٠.
(٢) سورة الأعراف آية ١٥٤.
(٣) انظر تفسير بن كثير جزء ٣ ص ٤٩٩ ط دار الشعب.
(٤) سورة الفرقان آية ٣٢.
(٥) انظر القرطبي المجلد السابع جزء ١٣ ص ٢٨.

حكمة نزول الكتب السماوية السابقة

جملة واحدة على الانبياء السابقين

وكما أن لنزول القرآن الكريم مفرقاً على النبى ﷺ من حكم عظيمة بيناها قبل ذلك فإن لنزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة حكمة كذلك وهى.

١- أن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤن - والقرآن أنزل على نبى أمى لا يقرأ ولا يكتب كما أخبر بذلك القرآن الكريم فقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ (١).

وقال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢)

وروى فى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا" (٣)

٢- ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ.

٣- ومنه ما هو جواب لمن يسأل عن أمور فنزل مفرقاً ليكون أوعى للنبى ﷺ، وأيسر على العامل به، فكان كلما نزل وحى جديد زاده قوة قلب.

وإن قال قائل (لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة كالكتب السابقة فيحفظه النبى ﷺ فى صدره ما دام ذلك فى قدرة الله؟

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧.
(٢) العنكبوت آية ٤٨.
(٣) صحيح البخارى كتاب الصوم باب قول النبى لا نكتب ولا نحسب جزء ٢ [illegible] وصحيح مسلم باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال حديث رقم ١٠٨٠.

ونجيب عن ذلك فنقول إن في قدرة الله أن يعلم النبـــي ﷺ الكتـــاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك لحكمة بالغة - يعلمهـــا هو ولا معترض عليه في حكمه فهو سبحانه كما حكى عن ذاته فقـــال ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1]

والله أعلـم

---

[1] سورة الأنبياء آية ٢٣.

لماذا انزل الله تعالى القرآن الكريم

أنزل الله تعالى القرآن الكريم هداية للخلق إلى طريق الحق قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [1]

وتنظيما لمعاملات الناس فيما بينهم قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [2]

ومبشرا للطائعين بما أعد لهم في جنات النعيم، ومنذرا للعاصين بما ينتظرهم في الدار الآخرة من عذاب أليم. قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [3]

وقال تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [4]

وبالجملة فإن الله تعالى قد أنزل القرآن الكريم نبراسا يهتدى به الناس ليسعدوا في الدنيا وليفلحوا في الآخرة قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [5]

---

[1] سورة ابراهيم آية ١
[2] سورة النساء آية ١٠٥
[3] سورة الاسراء آية ٩،١٠
[4] سورة النساء آية ١٦٥
[5] سورة النحل آية ٨٩

نزول بعض سور القرآن الكريم دفعة واحدة

كان القرآن ينزل على النبى ﷺ نجوماً بحسب الدواعى والأسباب. ومع ذلك فكان هناك من السور ما نزل جملة واحدة كسورة الفاتحة والإخلاص والكوثر وغيرها.

قال السيوطى فى الإتقان: إن من سور القرآن سوراً أنزلت جملة واحدة على النبى ﷺ وهى الفاتحة، والإخلاص، والكوثر وتبت، ولم يكن، والنصر والمعوذتان نزلتا معا، والمرسلات.

أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال: كنا مع النبى ﷺ - فى غار - فنزلت عليه ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فأخذتها من فيه، وإن فاه رطب بها فلا أدرى بأيهم ختم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [1] أو ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [2]، [3] وسورة الصف[4].

ومن السور أيضا سورة الأنعام على القول بأنها مكية، وهو رأى جمهور العلماء، ويدل على ذلك:

كثرة الآثار التى صرحت بنزولها بمكة جملة واحدة، ومن هذه الآثار ما جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لقد نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح.

---

[1] المرسلات آية ٥٠

[2] المرسلات آية ٤٨

[3] صحيح مسلم جـ٤ ص ١٧٥٥ كتاب السلام باب قتل الحيات وصحيح البخارى ج٤ ص١٨٧٤ كتاب التفسير - باب تفسير سورة (والمرسلات)

[4] الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ١ ص ٢٠.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (نزلت علىَّ سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد)[1].

ومن السور التى نزلت جملة واحدة سورة الفتح، ومما يدل على ذلك ما أخرجه البخارى والترمذى والنسائى وابن حبان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: (كنا نسير ليلا مع رسول الله ﷺ فسألته عن شىء ثلاثا فلم يرد على، فحركت بعيرى، ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فىَّ القرآن، فما نشبت إذ سمعت صارخاً يصرخ بى فجئت وأنا أظن أنه قد نزل فىَّ شئ، فقال النبى ﷺ (لقد نزلت على الليلة سورة أحب إلى من الدنيا وما فيها) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[2]

وأخرج الحاكم عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم قالا: (نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها)[3].

ومما يدل على أن سورة النصر نزلت جملة واحدة ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لى ابن عباس: (تَعلَمُ – وقال (هارون: تدرى) – آخر سورة نزلتِ من القرآن؟ نزلت جميعا؟ قلت نعم – ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ – قال: صدقت..[4].

عدد سور القرآن الكريم وآياته وكلماته وحروفه:

---

(1) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢٢

(2) صحيح البخارى جـ٤ ص١٥٣١ كتاب المغازى باب غزوة الحديبية. وص١٩١٥ كتاب فضائل القرآن – فضل سورة الفتح.

(3) المستدرك للحاكم جـ٢ ص٤٥٢.

(4) صحيح مسلم جـ٤ ص٢٣١٨ – كتاب التفسير

القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة ومعجزتها الخالدة أنزله الله على رسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم، فبلغه ﷺ لأصحابه الذين حرصوا كل الحرص على تلقيه منه ﷺ مباشرة وجدوا واجتهدوا فى حفظه وتلاوته وفهمه والعمل بما فيه من أوامره ونواهيه، ثم بلغه أصحابه رضى الله عنهم للتابعين، والتابعون لأتباع التابعين وهكذا حتى وصل إلينا خالصا نقيا خاليا من كل زيغ وزيف مشمولا بعناية لم يحظ بها أى كتاب سماوى قبله، وصدق الله إذ يقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

ولقد كان من كمال العناية بالقرآن أن يقل فريق من علماء المسلمين جهودهم المباركة فأحصوا سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، وكانت نتيجة ما وصل إليه جهد هؤلاء العلماء الأفاضل من هذه الإحصائيات ما يأتى:

أولا: أن عدد سور القرآن الكريم (١١٤) مائة وأربع عشرة سورة، وأولها سورة الفاتحة وآخرها سورة الناس.

وسور القرآن الكريم أربعة أقسام:

١- الطوال ٢- المئون ٣- المثانى ٤- المفصل.

فالطوال:

سبع سور هى: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف. واختلف فى السابعة أهى الأنفال وبراءة معا لعدم الفصل بينهما بالبسملة، أو هى سورة يونس عليه السلام.

والمئون: وهى السور التى تزيد آياتها عن مائة آية أو تقاربها.

---

(1) سورة الحجر آية ٩

والمثاني: وهي التي تلي المئين في عدد الآيات وسميت بذلك لأنها تثنى في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمئين...

والمفصّل: وهو من أول سورة الحجرات - وقيل من أول سورة (ق) - إلى آخر القرآن.

وهناك أقوال أخرى في تحديد أول المفصل وما ذكرناه هو الأظهر.

والمفصّل ثلاثة أقسام:

أ- طوال المفصّل : وهو من سورة الحجرات أو (ق) إلى سورة النبأ.

ب- وأوساط المفصّل : وهو من سورة النبأ إلى سورة الضحى.

جـ- وقصار المفصّل : وهو من سورة الضحى إلى آخر القرآن الكريم.

وقد سمي المفصل بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بسم الله الرحمن الرحيم..

هذا وقد ورد حديث.. عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال (أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل)[1] رواه الطبري بإسنادين أحدهما صحيح.

وأطول سور القرآن على الإطلاق سورة (البقرة) وأطول آية (آية الدين).

عدد آيات القرآن الكريم:

ثانياً: أن عدد آيات القرآن الكريم (٦٢١٩) ستة آلاف ومائتان وتسع عشرة آية في قول المكيين..

و(٦٢٣٦) ستة آلف ومئتان وست وثلاثون آية في قول الكوفيين..

---

[1] جامع البيان لابن جرير الطبري تحقيق [illegible] جـ١ ص: ٣ - دار المعرفة بيروت.

و(٦٢٠٤) ستة آلاف ومائتان وأربع آيات فى قول البصريين.

و(٦٢٢٦) ستة آلاف ومائتان وست وعشرون أو (٦٢٢٥) ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون آية فى قول أهل الشام.

وسبب هذا الإختلاف هو الإختلاف فى بعض مواضع الوقف بالنسبة لرؤوس الآيات..

عدد كلمات القرآن:

ثالثاً: أن كلمات القرآن الكريم (٧٧٤٣٩) سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة فى قول عطاء بن يسار..[1].

وقد وردت أقوال متعدده فى عدد الآيات والكلمات والحروف غير ما ذكرناه، لافائدة فى الإطالة بذكرها..

رابعاً: أن عدد حروف القرآن الكريم (٣٤٠٧٤٠) ثلاثمائة وأربعون ألفا وسبعمائة وأربعون حرفا..

وهناك أقوال أخرى فى عدد الحروف حذفناها اختصارا..

عدد أجزاء القرآن الكريم:

خامساً: أن عدد أجزاء القرآن الكريم (٣٠) ثلاثون جزءا وعدد أحزابه (٦٠) ستون حزبا..[2].

---

(١) البيان فى عدد آى القرآن عمرو الدانى مخطوط لوحة ٢٦.

(٢) البيان فى إعجاز القرآن ص٢٠٦ – وانظر مقدمة تفسير ابن كثير جـ١ ص٧ - انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٢ ص٦٤ وما بعدها - طبعة ثالثة - الحلبى

ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، وقد أنزله رب العزة سبحانه آيات وسورا منها القصار ومنها الطوال وقد عرّف العلماء الآية بأنها الجملة من كلام الله تعالى المندرجة فى سورة من القرآن. وعرفوا السورة أيضا بأنها: الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع.

وترتيب الآيات فى القرآن الكريم توقيفى عن رسول الله ﷺ، وذكر كثير من العلماء الإجماع على ذلك. و [illegible] الإمام الزركشى فى كتابه البرهان - وأبو جعفر بن الزبير[1] - فى (مناسباته) إذ يقول: ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ، وأمره من غير خلاف بين المسلمين..

وجزم الإمام جلال الدين السيوطى بذلك فقال: الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لاشبهة فى ذلك.

فقد كان جبريل عليه السلام يتنزل بالآيات على رسول الله ﷺ، ويرشده إلى موضعها من السورة أو الآيات التى نزلت قبل، فيأمر الرسول ﷺ كتبة الوحى بكتابتها فى مواضعها، ويقول لهم: ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا أو كذا، أوضعوا آية كذا فى موضع كذا.. كما بلغها أصحابه كذلك - فعن عثمان بن أبى العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: (أتانى جبريل فأمرنى أن

---

[1] هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي، كان من النحاة الحفاظ توفى سنة ٨٠٧ هجرية.

أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ - إلى آخرها - النحل (٩٠)[1].

وثبتت قراءة رسول ﷺ لسور عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة أو فى خطبة الجمعة كسورة البقرة وآل عمران والنساء، وصح أنه قرأ الأعراف فى المغرب، وأنه كان يقرأ فى صبح الجمعة ﴿الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (السجدة) و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ سورة الإنسان.. وكان يقرأ سورة -ق- فى الخطبة- ويقرأ الجمعة والمنافقون فى صلاة الجمعة.

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل عام مرة فى رمضان، وثبت أنه عارضه فى العام الأخير من حياته ﷺ مرتين، وكان ذلك العرض على الترتيب الذى نعرفه الآن..

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن الكريم كما هو فى المصحف المتداول فى أيدينا توقيفيًا لاشك فى ذلك.

قال السيوطى فى كتابه الإتقان بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة التى كان ﷺ يقرأها بتمامها:

تدل قراءته ﷺ لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفى، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبى ﷺ يقرأ على خلافه فبلغ ذلك مبلغ التواتر[2].

---

(1) حديث [illegible] بإسناد حسن.

(2) الإتقان للسيوطى [illegible] ص٦٢.

ترتيب السور

اختلف العلماء فى ترتيب سور القرآن على ثلاثة أقوال:

القول الأول:-

ذهب بعض العلماء إلى أن ترتيب سور القرآن على النحو الذى نراه فى المصحف توقيفى تولاه النبى ﷺ، كما أخبر به جبريل عليه السلام عن أمر ربه، فكان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتب السور كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذى لد[illegible] [illegible]ن رضى الله عنه الذى لم ينازع أحد من [illegible]يه، مما يدل على عدم المخالفة، والإجماع عليه.

ومما يؤيد هذا القول أن الرسول ﷺ قرأ بعض السور مرتبة فى صلاته - فقد روى ابن أبى شيبة أن النبى ﷺ كان يجمع المفصّل فى ركعة.

وذكر السيوطى فى الإتقان أن ابن الحصار قال: ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى كان رسول الله ﷺ يقول: ضعوا آية كذا فى موضع كذا، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة علي وضعه هكذا فى المصحف[1].

القول الثانى:

وذهب بعض العلماء إلى أن ترتيب سور القرآن الكريم على النحو الذى نراه فى المصحف باجتهاد من الصحابة رضى الله عنهم، بدليل اختلاف مصاحفهم فى الترتيب.

---

(1) الإتقان للسيوطى جـ ١ ص٦٢.

فمصحف (على) رضى الله عنه كان مرتب على النزول، أوله (اقرأ) . (المدثر) ثم (ن) ثم (المزمل) ثم (تبت) ثم (الكوثر)، وهكذا إلى آخر المكى . المدنى..

وكان أول مصحف ابن مسعود رضى الله عنه البقرة ثم النساء ثم آل عمران، وأول مصحف – أبىّ – الفاتحة، ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران.

قال ابن فارس: جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال، وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذى تولته الصحابة، وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات فى السور فهو توقيفى تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه، ومما استدل به، لذلك اختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور فمنهم من رتبها على النزول وهو مصحف (على) كان أوله (اقرأ) ثم (المدثر) ثم (ن) ثم (المزمل) ثم (تبت) ثم (الكوثر) وهكذا إلى آخر المكى والمدنى، وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران، على اختلاف شديد، وكذا مصحف أبىّ وغيره[1].

وممن قال بأن ترتيب السور باجتهاد الصحابة رضى الله عنهم الإمام مالك والقاضى أبو بكر الباقلانى فى أحد قوليه.

القول الثالث:

وذهب بعض العلماء إلى أن بعض السور ترتيبها توقيفى عن النبى ﷺ وبعضها ترتيبه باجتهاد الصحابة رضى الله عنهم.

حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور فى عهد النبى ﷺ.

---

[1] الإتقان للسيوطى جـ١ ص٦٢

فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصل، في حياته ﷺ كما روى عن النبى ﷺ أنه قال (إقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران)[1].

وروى أيضاً أنه ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين.[2]

وقال ابن حجر: ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لايمتنع أن يكون توقيفيا - ثم قال: ومما يدل على أن ترتيبها توقيفى ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس بن أبى أوس حذيفة الثقفى قال: كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف - الحديث - [illegible] لنا رسول الله ﷺ (طرأ على حزب من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه) فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا كيف تُحزّبون القرآن قالوا نحزّبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (ق) حتى نختم - ثم قال ابن حجر: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ ثم قال: ويحتمل أن الذى كان مرتبا حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه[3] انتهى.

القول الراجح من الأقوال الثلاثة:

وإذا ناقشنا هذه الأقوال الثلاثة يتضح لنا أن القول الأول وهو القائل بأن ترتيب السور توقيفى عن النبى ﷺ هو القول الراجح - لترجيح أكثر

---

(1) صحيح مسلم جـ١ ص٥٥٣ - كتاب صلاة المسافرين - باب فضل قراءة القرآن البقرة.

(2) صحيح البخارى جـ٤ ص ١٩١٦ - كتاب فضائل القرآن فضل المعوذات.

(3) الإتقان للسيوطى جـ١ ص٦٣ - وانظر مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى جـ١ ص٢٤٢ - ٣٥١.

العلماء له ولتضافر الأدلة عليه.. قال السيوطي: قال أبو بكر بن الأنباري أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جوابا لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسور، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن.

وقال الكرماني في البرهان: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين، وكان آخر الآيات نزولا ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[1]

فأمره جبريل عليه السلام أن يضعها بين آيتي الربا والدين.. وقال الطيبي: أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقا على حسب المصالح ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ.

وقال أبو جعفر النحاس: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث واثلة (أعطيت مكان التوراة السبع الطوال) ثم قال: فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ، وأنه من ذلك الوقت وإنما جمع في المصحف على شيء واحد لأنه جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن.

وقال ابن الحصار: ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي.

---

[1] سورة البقرة آية ٢٨١

وقال السيوطى: وما يدل على أنه توقيفى كون الحواميم رتبت ولاء، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء بل فصل بين سورها، وفصل بين (طسم) الشعراء) و(طسم) القصص بـ (طس) النمل مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديا لذكرت المسبحات ولاء وأخرت طس عن القصص – والذى ينشرح له الصدر ماذهب إليه البيهقى وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال[1].

أما القول الثانى الذى يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة رضى الله عنهم لم يستند إلى دليل يعتمد عليه فاجتهاد بعض الصحابة فى ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارا منهم قبل أن يجمع القرآن جمعا مرتبا، فلما جمع فى عهد عثمان رضى الله عنه بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم، ولو كان الترتيب إجتهاديا لتمسكوا بها.

وأما القول الثالث الذى يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفى، وبعضها ترتيبه اجتهادى، فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفى، أما القسم الاجتهادى فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادى، إذ أن ثبوت التوقيفى بأدلته لا يعنى أن ما سواه اجتهادى، مع أنه قليل جداً.

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات.

---

(1) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ١ ص٦٢،٦٣

وجوب احترام هذا الترتيب:

وسواء أكان ترتيب السور توقيفيا أو اجتهاديا فإنه يجب احترامه. خصوصا في كتابة المصحف، **لأنه** صادر بإجماع، والإجماع حجة، ولأن مخالفة هذا الترتيب تجر إلى الفتنة ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد أمر واجب.

حكمة تسوير القرآن سور:-

لتجزئة القرآن الكريم إلى سور فوائد جليلة وحكم عظيمة منها:

١- التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وحفظه، **لأنه لو** كان سبيكة واحدة ليس بها حلقات لصعب عليهم حفظه وفهمه، وأعياهم أن يخوضوا عباب القرآن الخضم الذي لا يشاهدون فيه عن كثب مرافيء ولا شواطيء.

٢- الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام فإن في كل سورة موضوعا بارزا تتحدث عنه. كسورة **البقرة**، وسورة يوسف، وسورة **النمل**، وسورة الجن.

٣- الإشارة إلى أن طول **السورة ليس** شرطا في إعجازها بل هي **معجزة** وإن بلغت الغاية في **القصر كسورة الكوثر** فهي ثلاث آيات ومع ذلك فهي معجزة كسورة **البقرة**.

٤- التشويق: إذا أتم سورة من **القرآن** ثم شرع في قراءة سورة أخرى كان ذلك أنشط له وأبعث على **التحصيل** منه لو استمر على القرآن بطوله. ومثله المسافر إذا قطع ميلا أو فرسخا نفس ذلك عنه ونشط للسير. [illegible]ن أجزاء وأحزابا وأخماسا.

٥- أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه - ومنه حديث أنس رضى الله عنه (كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا) ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل.

٦- أن التفصيل بحسب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحق المعانى والنظم[1].

قال السيوطى في الإتقان: قيل الحكمة فى تسوير القرآن سورا تحقيق كون السورة بمفردها معجزة وآية من آيات الله، والإشارة إلى أن كل سورة نمط مستقل فسورة يوسف تترجم عن قصته وسورة إبراهيم كذلك، وبراءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم إلى غير ذلك، وكون السور سورا طوالا وأوساطا وقصارا تنبيها على أن الطول ليس من شرط الإعجاز فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهى معجزة إعجاز سورة البقرة، ثم ظهرت لذلك حكمة فى التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه[2].

---

(1) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى جـ١ ص٢٤٤.
(2) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ١ ص٦٦.

فضل القرآن الكريم ومكانته

إن هذا القرآن الذي بين أيدينا نقرؤه ونسمعه ونحفظه ونكتبه هو كلام رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم وهو الذكر المبارك والنور المبين، تكلم الله تعالى به حقيقة على الوصف الذي يليق بجلاله وعظمته، وألقاه على جبريل الأمين أحد الملائكة الكرام المقربين عليهم سلام الله أجمعين، فنزل به على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين - قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [1] فأعجز البلغاء، وأعيى الفصحاء وفرض احترامه على جميع الخلق من لدن نزوله إلى يوم الدين وحمل أعداءه على الإعتراف بفضله وسمو قدره حتى قال قائلهم وهو الوليد بن المغيرة حين سمعه من النبي ﷺ: والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه[2].

لذا كان هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ وآيته الخالدة التي تحدى بها العرب، وقد نزل بلسانهم وهم أرباب الفصاحة والبيان فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله وصدق الله تعالى إذ يقول في حقه ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [3].

---

(1) سورة الشعراء آية ١٩٢ - ١٩٥

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٩ ص٧٢، وروح المعاني للألوسي جـ ٢٩ ص ١٢٠، وانظر السيرة النبوية لابن هشام

(3) سورة الإسراء آية ٨٨

ولقد كتب الله لهذا القرآن الحفظ الدائم والنقل المتواتر على مر العصور دون تحريف أو تبديل وأخبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (1) ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة المنزلة على الرسل من قبل لأن الكتب السابقة لم تكن لها صفة الدوام كالقرآن ولكنها جاءت موقوتة بزمن خاص وهو زمن رسالة الرسول الذى أنزل عليه ومدة بقاء تلك الرسالة.

شمول رسالة القرآن الكريم للإنس والجن:

هذا ولم تكن رسالة القرآن الكريم خاصة بالإنس فقط، بل تجاوزت الإنس إلى الجن قال تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (2)

وقال أيضا ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (3)

صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان:

ولقد كان من أهم سمات هذا القرآن بعد هيمنته على سائر ماسبقه من الكتب السماوية، ووفائه بحاجات البشر، أنه جاء صالحا لكل زمان ومكان بما اشتمل عليه من الخصائص، وما حواه من التعاليم التى تعالج المشكلات

---

(1) سورة الحجر آية 9

(2) سورة الأحقاف آية 29 - 31

(3) سورة الجن آية 1 ، 2

الإنسانية واحتياجات البشرية في شتى مراقف الحياة - روحية كانت أو عقلية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، يضع لكل مشكلة حلاً، ولكل مرض علاجاً، ولكل داء دواء، وذلك في أسس عامة وإطارات شاملة تترسمها الإنسانية وتبنى عليها في كل عصر ما يلائمها، وتأخذ منها في كل مصر ما يتناسب معها، وبذلك اكتسب القرآن الكريم صلاحيته لكل زمان ومكان، وصار القانون المرضى، والدستور الدائم لهداية خلق الله تعالى لما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

يقول الشيخ مناع القطان: والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها، المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها لاعاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها إلا القرآن، قال تعالى ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1] والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى، فحرى بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام، وكما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر[2].

والقرآن الكريم أفضل كتب الله تعالى، أنزله الله على أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام ليسوس به خير أمة أخرجت للناس، ومما يؤكد هذا ويوضحه قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ *

---

[1] سورة طه آية ١٢٣: ١٢٤

[2] مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص١٩ طه. مكتبة المعارف بالرياض.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[1].

وقوله تعالى ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

فقد أنزل الله تعالى القرآن ذا قدر فى ليلة ذات قدر على نبى ذى قدر، ليكون هدى ورحمة للعالمين، وليكون آية على صدق الرسول ﷺ، وبرهانا ساطعا على نبوته ورسالته وحجة قاطعة إلى يوم الدين.

أسماء القرآن وأوصافه

وقد سمى الله تعالى القرآن الكريم بأسماء كثيرة منها:

القرآن: قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[3] فسمى قرآنا لجمعه الأحكام والقصص والأمثال وغير ذلك.

والكتاب: قال تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[4].

الفرقان: قال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[5] سمى بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال والحلال والحرام.

والذكر: قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[6].

---

[1] سورة القدر بتمامها.
[2] سورة الدخان آية ١ - ٦
[3] سورة الإسراء آية ٩
[4] سورة الأنبياء آية ١٠
[5] سورة الفرقان آية ١
[6] سورة الحجر آية ٩

والتنزيل: قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

إلى غير ذلك مما ورد في القرآن الكريم من أسماء للقرآن تدل في جملتها على شرف القرآن الكريم وجلالة قدره إذ أن تعدد الأسماء يدل على شرف المسمى كما هو معروف في العربية.

وقد غلب على القرآن من أسمائه: اسم القرآن والكتاب، ولعل ذلك لكونه يتلى ويقرأ كثيرا بالألسن، كما يكتب ويدون بالأقلام.

قال الدكتور محمد عبد الله دراز: روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشئ بالمعنى الواقع عليه - وفي تسميته بهذين الإسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، وأعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا.. أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيأته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر - وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز، إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند..[3].

---

[1] سورة الشعراء آية ١٩٢

[2] سورة الحجر آية ٩

[3] النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، ص١٢، ١٣ ط دار القلم بالكويت.

أوصـــاف القـــرآن

ولقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأوصاف عظيمة تبـين فضـله وتظهر قدره وتوجب على الناس تعظيمه واحترامه فقال تعالى ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (1) فبين سبحانه أنه حق لاشك ولا مريـة فيه وأنه هدى يهتدى به المتقون فى أمور دينهم ودنياهم.

وقال سبحانه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُـرْآنُ هُـدًى لِلنَّـاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (2).

وقال أيضا ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (3).

وقال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَـيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (4).

وقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (5).

وقال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (6)

وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّـلَتْ مِـنْ لَـدُنْ حَكِـيمٍ خَبِيرٍ﴾ (7).

---

(1) سورة البقرة آية ١، ٢
(2) سورة البقرة آية ١٨٤
(3) سورة آل عمران آية ٥٨
(4) سورة النساء آية ١٧٤
(5) سورة المائدة آية ١٥، ١٦
(6) سورة يونس آية ٥٧
(7) سورة هود آية ١

فوصفه الحق تبارك وتعالى بأنه كتاب محكم أى متقن رصين لايتطرق إليه أدنى خلل فى لفظه أو فى معناه.

وقال تعالى أيضا فى وصفه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[1].

وقال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

وقال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3].

وقال تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[4].

وقال تعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[5].

وقال تعالى ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾[6].

وقال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[7].

---

[1] سورة الحجر آية ٨٧
[2] سورة النحل آية ٨٩
[3] سورة الإسراء آية ٩،١٠
[4] سورة الإسراء آية ٨٢
[5] سورة الإسراء آية ٨٨
[6] سورة طه آية ١ - ٤
[7] سورة الفرقان آية ١

وقال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

وقال تعالى ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[2].

وقال تعالى ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[3]

وقال تعالى ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[4].

وقال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[5].

وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[6].

وقال تعالى ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾[7].

وقال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[8].

وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[9].

---

[1] سورة الشعراء آية ١٩٢ – ١٩٥
[2] سورة الشعراء آية ٢١٠ – ٢١٢
[3] سورة العنكبوت آية ٤٩
[4] سورة يس آية ١، ٢
[5] سورة يس آية ٦٩، ٧٠
[6] سورة ص آية ٢٩
[7] سورة ص آية ٦٧
[8] سورة الزمر آية ٢٣
[9] سورة فصلت آية ٤١، ٤٢

وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[1]

وقال تعالى ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3].

وقال تعالى ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[4].

وقال تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5]

وقال تعالى ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6]

وقال تعالى عن الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[7].

وقال تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[8].

فهذه الأوصاف العظيمة الكثيرة للقرآن الكريم التى نقلناها، وغيرها مما لم ننقله تدل كلها على عظمة هذا القرآن وفضله وجلالة قدره ووجوب

---

[1] سوورة الشورى آية ٥٢، ٥٣
[2] سورة الزخرف آية ٤
[3] سورة الجاثية آية ٢٠
[4] سورة ق آية ١
[5] سورة الواقعة آية ٧٥ - ٨٠.
[6] سورة الحشر آية ٢١
[7] سورة الجن آية ١، ٢.
[8] سورة البروج آية ٢١ . ٢٢

تعظيمه واحترامه والتأدب عند تلاوته والبعد حال قراءته عن الهزء به واللهو واللعب والإلغاء فيه.

وكيف لا يوصف القرآن الكريم بهذه الأوصاف وهو خير كتاب أنزل على خير رسول أرسل إلى خير أمة أخرجت للناس بأنفس الشرائع وأسماها وأكملها على الإطلاق.

قال الإمام مكى بن أبى طالب القيسى رحمة الله تعالى عليه فأعظم ما يستشعره المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء، وصفة من ليس له شبيه ولا ند، وكتاب إله العالمين، ووحى خالق السموات والأرضين، وهو هادى الضالين، ومنقذ الهالكين، ودليل المتحيرين، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو السراج المنير وهو الحق المبين، وهو الصراط المستقيم[1].

وقال الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين:

الحمد لله الذى امتن على عباده بنبيه المرسل ﷺ وكتابه المنزل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2] حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الإعتبار بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام وفرق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور، وفيه شفاء لما فى الصدور، ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله، ومن ابتغى العلم فى غيره

[1] الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة (لمكى بن أبى طالب القيسى ص٥٥)
[2] سورة فصلت آية ٤٢

أضله الله، هو حبل الله المتين.. ونوره المبين، والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى، وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير، ولا تنقضى عجائبه ولا تتناهى غرائبه، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد، وهو الذى أرشد الأولين والآخرين، ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [1] فكل من آمن به فقد وفق، ومن قال به صدق، ومن تمسك به فقد هدى، ومن عمل به فقد فاز [2].

بعض الأحاديث الشريفة فى فضل القرآن الكريم

ولقد بين لنا رسول الله ﷺ أيضا فضل القرآن الكريم وجلالة قدره وعظيم نفعه في أحاديث كثيرة منها:

ما أخرجه البخارى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه) [3].

وأخرج الترمذى فى سننه عن الحارث بن عبد الله الهمدانى الأعور قال: مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث، فدخلت على علىّ فأخبرته، فقال: أوقد فعلوها؟ قلت نعم، قال: أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول (ألا إنها ستكون فتنة) قلت فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لاتزيغ

---

[1] سورة الجن آية ١، ٢

[2] إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالى جـ١ ص٢٧٢.

[3] صحيح البخارى جـ٤ ص١٩٠٤ فضائل القرآن باب (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم، خذها إليك يا أعور.[1]

وأخرج مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين)[2].

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ولا أقول ألم حرف ولكن، ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)[3].

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعته يقول (تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة) قال ثم مكث ساعة ثم قال تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أوغيايتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول ما أعرفك، فيقول له هل تعرفني؟ فيقول ما أعرفك؟ فيقول أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد

---

[1] سنن الترمذي المجلد الرابع ص٢٤٥، وجامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير جـ٩ ص٣٥٢

[2] صحيح مسلم جـ١ ص٥٥٩ كتاب صلاة المسافرين

[3] سنن الترمذي جـ٤ ص٢٤٨ في ثواب القرآن وصححه

بشماله، ويوضع على رأسه تاج من الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بم كسينا هذه فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلا) [1].

وهناك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ توضح لنا فضل القرآن الكريم وتبين قدره ستأتي في المباحث التالية إن شاء الله تعالى.

وفي شرف القرآن الكريم ومدحه يقول الإمام البوصيري رحمه الله تعالى:

دعني ووصفي آيات له ظهرت ✿ ظهور نار [illegible] ليلا على علم

فالدر يزداد حسنا وهو منتظم ✿ وليس ينقص قدرا غير منتظم

فما تطاول آمال المديح إلى ما ✿ فيه من كرم الأخلاق والشيم

آيات حق من الرحمن محدثة ✿ قديمة صفة الموصوف بالقدم

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ✿ من النبيين إذ جاءت ولم تدم

محكمات فما تبقين من شبه ✿ لذي شقاق وما تبغين من حكم

ما حوربت قط إلا عاد من حرب ✿ أعدى الأعادي إليها ملقي السلم

ردت بلاغتها دعوى معارضها ✿ رد الغيور يد الجاني عن الحرم

لها معان كموج البحر في مدد ✿ وفوق جوهره في الحسن والقيم

فما تعد ولا تحصى عجائبها ✿ ولا تسام على الإكثار بالسأم

قرت بها عين قاريها فقلت له ✿ لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم [2]

---

1. [illegible] ص ٣٤٨.
2. [illegible] البوصيري ص٢١ - ٢٢.

وقال الإمام الشاطبي في الشاطبية:

وإن كتـــاب الله أوثـــق شافع ✿ وأغنـــى غنـــاء واهبـا متفضلا

وخيـــر جلـيس لا يمـل حديثه ✿ وتـــرداده يـــزداد فيـــه تجملا

وحيث الفتــى يـرتاع فــى ظلمـاته ✿ مـــن القـــبر يـلقاه سنــا متهللا

هنـــالك يهنيه مقيلا وروضــــة ✿ ومن أجلـــه فى ذروة العز يجـتلــى

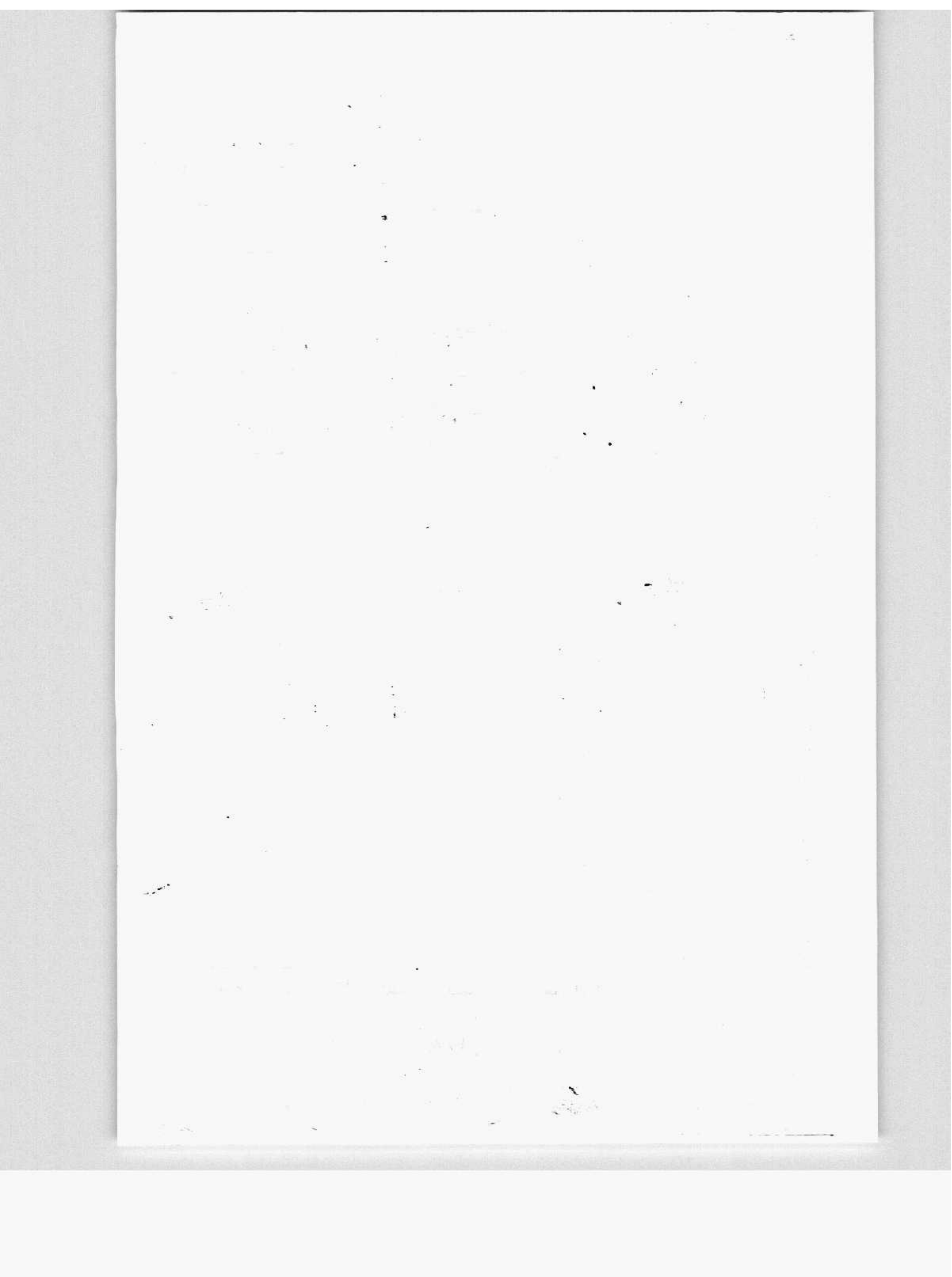
ينـاشد فــــى إرضـائــه لحبيبه ✿ وأجـــدر بــه سؤلا إليه موصـلا

فيــا أيهـا القارى به متمـسكــا ✿ مجـــلا لـــه فـــى كـل حال مبجلا

هنيئـــا مـــريئا والداك عليـهما ✿ مربـس أنـوار من التـاج والحلــى [1]

---

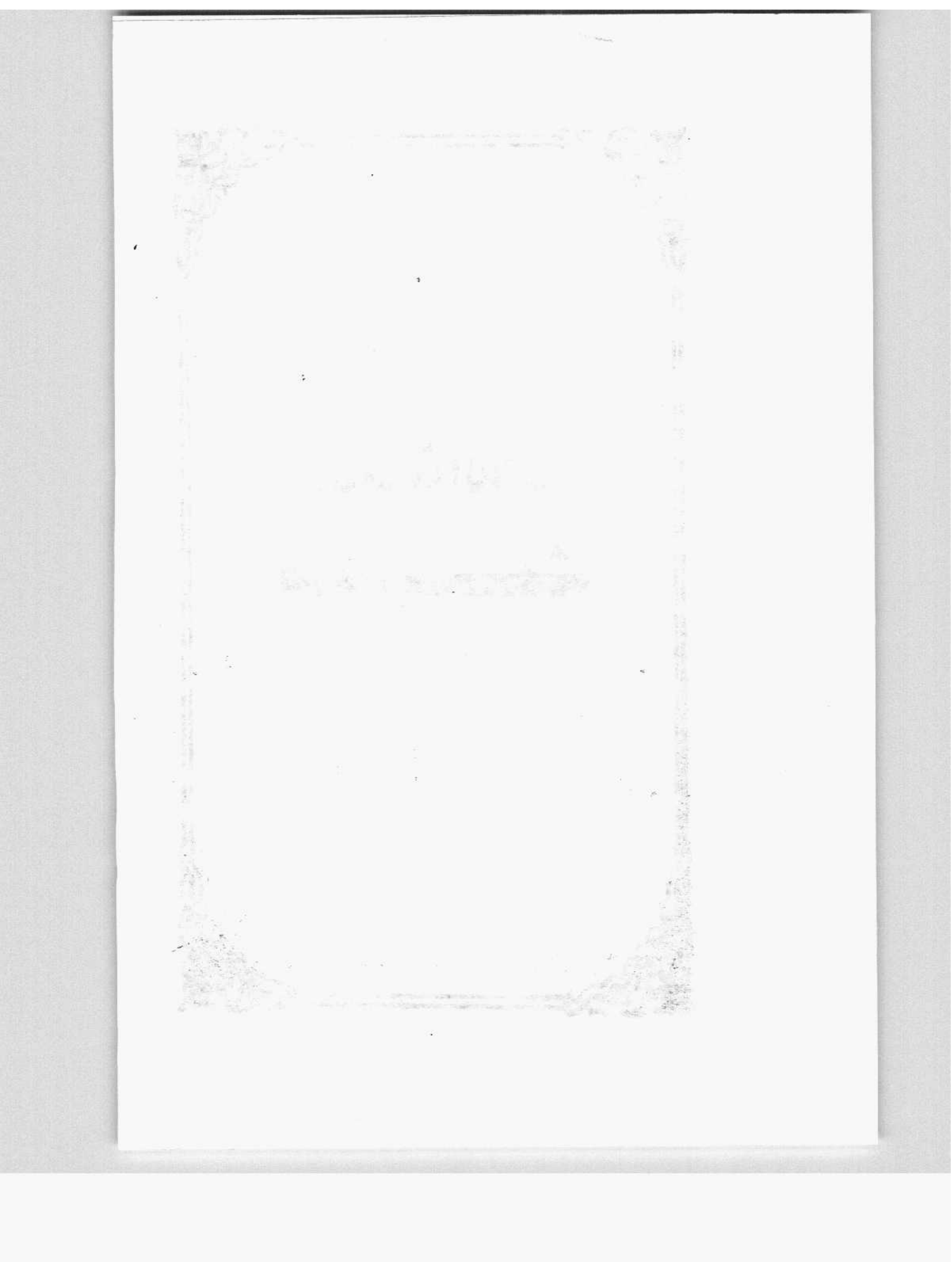
[1] الشاطبية المسماة بحرز الأمانى للإمام أبو القاسم الشاطبى ص ١، ٢.





المبحث الثالث

حديث



الحديث الأول

أولا : رواية البخارى

١١٠- حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة حدثنا أبو إسحاق الشيبانى قال سألت زر بن حبيش عن قول الله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) . قال حدثنا ابن مسعود أنه رأى جبريل له ستمائة جناح. [١]

ثانيا : رواية مسلم

١١٠ -- وحدثنى أبو الربيع الزهرانى حدثنا عباد - وهو ابن العوام - حدثنا الشيبانى قال سألت زر بن حبيش عن قول الله عز وجل (فكان قاب قوسين أو أدنى) قال أخبرنى ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح[٢] .

---

[١] خ/ك/ بدء الخلق، ب- إذا قال أحدكم ﴿آمين﴾ والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه.

[٢] أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب (٧٤ - ٧٥).

الراوى الأعلى

زر بن حبيش ﷺ

زر بن حبيش بن حباشة بن أوس بن بلال بن جعالة بن نصر بن غاضرة الأسدى ثم الغاضرى أبو مريم مشهور من كبار التابعين أورده أبو عمر لإدراكه وقد روى عن عمر وعثمان وعلى وأبى ذر وابن مسعود والعباس وعبد الرحمن بن عوف وحذيفة وأبى بن كعب وغيرهم روى عنه إبراهيم النخعى وعاصم بن أبى النجود وعدى بن ثابت وإسماعيل بن أبى خالد وأبو إسحاق الشيبانى وآخرون.

وقال عاصم كان من أعرب الناس وكان بن مسعود يسأله عن العربية وقال أيضا عن زر خرجت من الكوفة فى وفد مالى هم إلا لقاء أصحاب محمد فلقيت عبد الرحمن بن عوف وأبيا فجالستهما وقال أيضا كان أبو وائل عثمانيا وزر علويا وكان مصلاهما فى مسجد واحد وكان أبو وائل معظما لزر وعنه قال كان زر أكبر من أبى وائل وقال بن عيينة عن إسماعيل بن أبى خالد قلت لزر كم أتى عليك قال عشرون ومائة سنة وروى بن أبى شيبة عن محمد بن عبيد عن إسماعيل مثله ومات سنة ثلاث وثمانين أو قبلها بقليل وروى الطبرانى من طريق أبى بكر بن عياش عن عاصم عن زر خطبنا عمر بالشام فذكر الحديث وقال البرديجى فى الأسماء المفردة فى التابعين زر بن حبيش كان جاهليا يعنى أدرك الجاهلية وكذا قال أبو أحمد الحاكم فى الكنى[1].

---

[1] الإصابة فى تمييز الصحابة ج:٢ ص ٦٢٢ - ترجمة رقم ٢٩٧٣

معانى المفردات

فكان قاب قوسين أو أدنى: أى فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم أو ما بين محمد وربه قـاب قوسين أى قدر قوسين عربيين وهذا الأخير هو الأصح والقوس يذكر ويؤنث وهو مـا كان يستخدم فى الحرب وفى الصيد ويجمع قيس و أقواس وقياس.

المعنى العام

هذا الحديث رواه لنا سيدنا عبد الله بن مسـعود ﷺ الصحابـة رضوان الله عليهم عند مدارستهم لقوله سبحانه ﴿قاب قوسين أو أدنـى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[1] ذهب كثير من الصحابة رضـوان الله عليهم أن المقصود بهاتين الأيتين شدة الوحى الذى أوحى إلى النبى ﷺ فى هذه الليلة كان من جبريل عليه السلام مستندين فى ذلك إلى قول ابن مسعود ﷺ أنه رأى أن النبى جبريل له ستمائة جنـاح لكـن الراجـح والذى رأى أن النبى جبريل له ستمائة جناح لكن الراجح والذى يؤيـده ظاهر الحديث أن الرسول ﷺ فى هذه الليلة عرج به إلـى السموات العلا وعرج به إلى حضرة القدس وكان أقرب ما يكون من ربه فى هذه الليلة أى كان بينه وبين ربه مقدار قوسين عربيين وذلك بعد كتابة عن شدة القرب وأوحى الله إليه ما أوحى ومن بين ما أوحاه إليه فـى هـذه الليلة فريضة الصلاة.

ومن ذهب إلى القول بأن القرب فى هذه الليلة كان من جـبريل هذا مردود عليهم لأن كان على مدار أكثر من عشر سنين ينزل جبريل عليه السلام بالوحى وكان يلتصق به ولم ينكر هذا أحد وفـى الأحكـام وقربه منه دفعة لشأن جبريل فكيف يكون هو المقصود هنـا، وكيـف

[1] سورة النجم الأنبياء ٩، ١٠

تتحقق معجزة الإسراء والمعراج هذا من ناحية ومن ناحية أخرى الناظر الى قوله تعالى ﴿فأوحى إلى ربه﴾[1] أن الضميرة يعود إلى الله والمعيد هو الرسول بدليل قوله تعالى ﴿سبحان الذى أسرى بعبده﴾[2] إذا أن النبى ليس عبد لجبريل ولكنه عبد الله عز وجل، والمتأول لذلك.

يقول أن هناك محذوف والتقدير فأوحى إلى عبد الله ومن المعلوم أن لا يلجأ إلى التأويل إلا عند استحالة المعنى.

ومن ناحية أخرى: فقد زيلت الآية بقول ما أوحى إشارة إلى الأختبار فيما يوحى به وهذا ألا يكون إلا لله عز وجل أما جبريل كان ينزل يوحى فهو مبلغ رسول ومبلغ ومكلف من قبل الله ولا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يأتى به.

---

[1] سورة النجم آية ١٠

[2] سورة الإسراء آية ٢

ما يستفاد من الحديث .

١- مدارسة الصحابة أن والسنة النبوية المطهرة.

٢- بيان منزلة النبى ﷺ حيث أنه أرتقى إلى مكان لن يصل إليه أحد قبله ولا أحد بعده.

٣- أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، رآها النبى ﷺ مرارا كما أخبر بذلك الصحابة.

٤- قرب النبى ﷺ من ربه قربا شديدا كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾.

٥- أوحى الله إلى النبى ﷺ فى هذه الليلة بها رأى عيانا بلا واسطة من بين ما أوحى إليه الصلاة.

الحديث الثانى

أولاً : رواية البخاري

١١١- حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن عامر عن مسروق قال قلت لعائشة - رضى الله عنها - يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه فقالت لقد قف شعرى مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب ، من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ثم قرأت (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) الآية ، ولكنه رأى جبريل - عليه السلام - فى صورته مرتين .[١]

---

[١] خ/ك / التفسير- سورة النجم، ب/ حدثنا يحيى.

ثانيا : رواية مسلم

١١١ - حدثني زهير بن حرب حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن داود عن الشعبي عن مسروق قال كنت متكئا عند عائشة فقالت يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت ما هن قالت من زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال وكنت متكئا فجلست فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى) . فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض » . فقالت أولم تسمع أن الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) أولم تسمع أن الله يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم) قالت ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) . قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) [١].

---

[١] أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب (٧٤ - ٧٥).

معاني المفردات

لقد قف شعري: قام شعري كأنه وقف وهذا يحدث عند الدهشة من أمـر غريب وهو تعبير يستعمل حاليا عند الخـوف تقـول شعري وقف وهذا كناية عن الحالة النفسية التي يكـون فيها الإنسان عند الخوف والدهشة.

يا أمتـــــاه: أي يا أمي ومعلوم أن زوجات الرسول ﷺ هن أمهات المؤمنين بنص القرآن، وأزواجه أمهاتهم.

وراء حجـــاب: خلف سور أو حائط أو ساتر.

تدركـــــه: تراه أو تحيطه.

تـــــدري: تعلم.

وحيـــــا: الوحي هو مبلغ ما أراد الله تعالى إلى عباده عن طريق الرسول السماوي بالرسول الأرض يعني جبريل عليـه السلام والنبي ﷺ .

المعنى العام

هذا الحديث برواية عائشة ﷺ كان الصحابة رضوان الله عليهم عند مدارستهم لقوله سبحانه ﴿قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[1] ذهب كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أن المقصود بهاتين الأيتين شدة الوحى الذى أوحى إلى النبى ﷺ فى هذه الليلة كان من جبريل عليه السلام مستندين فى ذلك إلى قول ابن مسعود ﷺ أنه رأى أن النبى جبريل له ستمائة جناح لكن الراجح والذى رأى أن النبى جبريل له ستمائة جناح لكن الراجح والذى يؤيده ظاهر الحديث أن الرسول ﷺ فى هذه الليلة عرج به إلى السموات العلا وعرج به إلى حضرة القدس وكان أقرب ما يكون من ربه فى هذه الليلة أى كان بينه وبين ربه مقدار قوسين عربيين وذلك بعد كتابة عن شدة القرب وأوحى الله إليه ما أوحى ومن بين ما أوحاه إليه فى هذه الليلة فريضة الصلاة.

ومن ذهب إلى القول بأن القرب فى هذه الليلة كان من جبريل هذا مردود عليهم لأن كان على مدار أكثر من عشر سنين ينزل جبريل عليه السلام بالوحى وكان يلتصق به ولم ينكر هذا أحد وفى الأحكام وقربه منه دفعة لشأن جبريل فكيف يكون هو المقصود هنا، وكيف تتحقق معجزة الإسراء والمعراج هذا من ناحية ومن ناحية أخرى

---

[1] سورة النجم الأنبياء ٩،١٠

الناظر إلى قوله تعالى ﴿فأوحى إلى ربه﴾[1] أن الضميرة يعود إلى الله والمعيد هو الرسول، بدليل قوله تعالى ﴿سبحان الذى أسرى بعبده﴾[2] إذا أن النبى ليس عبد لجبريل ولكنه عبد الله عز وجل، والمتأول لذلك.

يقول أن هناك محذوف والتقدير فأوحى إلى عبد الله ومن المعلوم أن لا يلجأ إلى التأويل إلا عند استحالة المعنى.

ومن ناحية أخرى: فقد زيلت الآية يقول ما أوحى إشارة إلى الأختبار فيما يوحى به وهذا ألا يكون إلا الله عز وجل أما جبريل كان ينزل يوحى فهو مبلغ رسول ومبلغ ومكلف من قبل الله ولا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يأتى به.

---

[1] سورة النجم آية ١٠

[2] سورة الإسراء آية ١

ما يستفاد من الحديث

٦- مدارسة الصحابة أن والسنة النبوية المطهرة.

٧- بيان منزلة النبى ﷺ حيث أنه أرتقى إلى مكان لن يصل إليه أحد قبله ولا أحد بعده.

٨- أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، رآها النبى ﷺ مرادا كما أخبر بذلك الصحابة.

٩- قرب النبى ﷺ من ربه قربا شديدا كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾.

١٠- أوحى الله إلى النبى ﷺ فى هذه الليلة بها رأى عيانا بلا واسطة من بين ما أوحى إليه الصلاة.

الحديث الثالث

أولا : رواية البخاري

١١٢ - حدثنا محمد بن عبد الله بن إسماعيل حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن ابن عون أنبأنا القاسم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم ، ولكن قد رأى جبريل فى صورته ، وخلقه ساد ما بين الأفق . [١]

ثانيا : رواية مسلم

١١٢- وحدثنا ابن نمير حدثنا أبو أسامة حدثنا زكرياء عن ابن أشوع عن عامر عن مسروق قال قلت لعائشة فأين قوله (ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) قالت إنما ذاك جبريل صلى الله عليه وسلم كان يأتيه فى صورة الرجال وإنه أتاه فى هذه المرة فى صورته التى هى صورته فسد أفق السماء[٢] .

---

[١] خ/ بدء الخلق، ب/ إذا قال أحدكم (آمين) والملائكة فى السماء.

[٢] هه مسلم كتاب الإيمان باب (٧٥ - ٧٩).

معانى المفردات

أعظـــــم : دخل فى أمر عظيم كأنه ارتكب كبيرة من الكبائر.

صورته : يعنى هيئته أو خلقته التى خلقه الله عليها.

الأفـــق : السماء والأفق يعنى العلو وهو الناحية والجمع آفـــاق والمقصود من ناحية الشمس فسحب الضوء أو سد مـــا بين السماء والأرض.

المعنى العام

هذه الأحاديث الشريفة السابقة تتعلق بثلاث مسائل هى:-

الأولى: رؤية الرسول ﷺ لله عز وجل ليلة الإسراء والمعراج.

الثانية: علم الغيب أو ما سيحدث مستقبلا وهو ما يسمى بالتنبوء أو التكهن.

الثالثة: أن الرسول ﷺ بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه ولم يكتم منه شيئا.

أما عن المسألة الأولى: وهى رؤية الرسول ﷺ لربه فهى ثابتة بنص القرآن الصريح وإذا راجعت سورة النجم تجد ذلك واضحا ومن أنكرها لجأ إلى التأويل ومعلوم أنه لا يلجأ إلى التأويل إلا عند استحالة المعنى فكبار الصحابة رضوان الله عليهم أمثال أبى هريرة وابن مسعود وابن عباس وأبى ذر وكعب والحسن ومن ذهب معهم من الملحدين الائمة مثل أحمد بين حنبل جميعهم رضى الله عنهم يذهبون إلى أن الرسول ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج بعينه وبعض كان يحلف على ذلك لكن السيدة عائشة ﷺ فى هذا الحديث تنكر الرؤية فعندما سألها مسروق قالت قف شعرى أى وقف شعرى وهذه الكلمة تقال عند هول المفاجئة وللحديث وإلاندها مش نقول شعرى وقف وأستدلت بالآية

﴿لا تدركه الأبصار﴾[١] معلوم أن الله سبحان وتعالى منزه عن صفات المخلوقات لكن الرؤية ليلة الإسراء كانت بمقاييس الآخرة أما بمقاييس الدنيا فهي مستحيلة على الله عز وجل وهذا ما أرادته السيدة عائشة أما ما ذهب إليه غيرها الصحابة فهم يرون أن الرؤية كانت بالقلب والبصيرة وليست بالعين المجردة فالرؤية تمت بمقايس الأخرة وليست بمقاييس الدنيا من جعل المرئى فى جهة ومنها اتصال وغيرها أو رآه بعين الله وسمعهم بإذن الله مصداقا لقوله ﴿أنه هو السميع البصير﴾[٢] فأقرب من مذكور فى الآية هو الرسول ﷺ والضمير يعود إليه ومعنى ذلك أن الله تجلى عليه بسمع من سمعه وبصر من بصره ليراه ويسمعه فى هذه الليلة.

فلا تعارض بين الرأيين فالسيدة عائشة تنكر الرؤية بمعنى الإحاطة والإدراك وهذا لا يختلف عليه أحد وأيضا احتجت على رأيها بالاستدلال من القرآن ولم تبنه على قوله رسول الله ﷺ والاستدلال يختلف من شخص لأخر وقد سقط إذا تطرق إليه الاحتمال.

أما عن المسألة الثانية: وهى علم الغيب أو ما فى علم الله تعالى وهذا أمر أستأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه قال تعالى ﴿وما تدرى نفس

---

[١] سورة الأنعام آية ١٠٣

[٢] سورة الإسراء آية ١

ماذا تكسب غدا﴾[١] وهذا الغيب لا يطلع عليه أحد إلا من أراد الله أن يطلعه على بعض غيبة كما أخبرنا الرسول ﷺ عن أمور ستحدث وحدثت مصداقا لقوله ﴿فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾[٢].

أما من ينجه وينبأ بالمستقبل فهذا أنهى عنه وهذا كذب وبهتان قد يصدقون بالمصادفة والغالب هم كذابون ولذلك نهانا الرسول ﷺ عن الذهاب إليهم قال ﷺ (من أتى عرافا أو كاهنا أو خالطا فقد كفر بما أنزل على محمد ......).

أما عن المسألة الثالثة: وهى بلاغ الرسول ﷺ بعض ما نزل من القرآن وهذا ما يراه بعض أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والكفار. وهذا الأمر واضح ولا يحتاج إلى أدلة غير التى جاءت فى القرآن الكريم عتاب الله لرسوله فى قوله ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾[٣] فلو كتم شيئا لكان أدلى أن يكتم هذا العتاب.

ففى الآية الكريمة دلالة على أن الرسول ﷺ ما كتم ما أمر بتبلغه عن رب العزة سبحانه وتعالى ولكن الله سبحانه قد حذره من كتمان شئ

---

[١] سورة لقمان آية ٣٤.

[٢] سورة الجن آية ٢٦-٢٧.

[٣] سورة الاحزاب آية ٦٧.

— ولو على سبيل الفرض بدليل قوله تعالى فى سورة الحاقة (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) [1] فهذا دليل على أنه ﷺ بلغ ما أنزل إليه فضلا عن الأمر النازل إليه من رب العزة سبحانه بالتبليغ فى قوله (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) [2].

والله أعلم

---

[1] سورة الحاقة آية (٤٤،٤٥،٤٦،٤٧).

[2] سورة المائدة آية " ٦٧ ".

المباحث الفقهية

وقال عياض: رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة عقـــلا، وثبتـت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين فى الآخرة، وأمـــا فـى الدنيا فقال مالك: إنما لم ير سبحانه فى الدنيا لأنه باق، والباقى لا يـرى بالفانى، فإذا كان فى الآخرة ورزقوا أبصارا باقية رأوا الباقى بالباقى.

فإن قلت كيف التوفيق بين نفى عائشة الرؤية واثبات ابن عبـاس إياها (قلت) يحمل نفيها على رؤية البصر واثباته على رؤيـــة القلـب والدليل على هذا ما رواه مسلم من طريق أبى العالية عن ابن عباس فى قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى. ولقد رآه نزله أخرى) [1] قـال رأى ربه بفؤاده مرتين وله من طريق عطاء عن ابن عباس قال رآه بقلبــه وأصح من ذلك ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء أيضا عن ابـن عباس قال لم يره رسول الله ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه وقد رجح القرطبى قول الوقف فى هذه المسألة وعزاه لجماعة من المحققين وقواه لأنه ليس فى الباب دليل قاطع وغاية ما استدل به ظواهر متعارضة قابلة للتـأويل قال وليس المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية وانما هى مـن المقدمات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعى ومال ابن خزيمة فى كتـاب التوحيد إلى الإثبات واطنب فى الاستدلال وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤيا وقعت مرتين مرة بعينه ومرة بقلبه والله أعلم.

---

[1] سورة النجم آية(١١،١٣).

ما يستفاد من الحديث

١- أن الرسول ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج بعين قلبه وبمقاييس الآخرة ولم يره بمقاييس الدنيا.

٢- أن الغيب لا يعلمه إلا الله فالكهنه والعرافون والمنجمون فإنهم يحاولون معرفة بعض الأشياء من الجن الذين يحاولون أن يسترقوا السمع من السماء.

٣- أن الرسول ﷺ بلغ جميع ما أنزل إليه من السماء ولو كتم شيئا لكان أولى أن يكتم آيات العتاب التى جاءت فى القرآن الكريم.

٤- حرص السيدة عائشة رضى الله عنها على توضيح المعانى والمسائل الهامة التى تتعلق بالعقيدة.

٥- أن الإسلام دين يحمى اتباعه من الانحرافات و الخرافات والدجل والشعوذة وغيرها من الأمور التى تهلك الناس وتنغص عليهم حياتهم.

الحديث الرابع

أولا : رواية البخاري

١١٣- حدثنا عبد الله بن أبى الأسود حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العمى حدثنا أبو عمران الجونى عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه فى جنة عدن »[١]

ثانيا : رواية مسلم

١١٣- حدثنا نصر بن على الجهضمى وأبو غسان المسمعى وإسحاق بن إبراهيم جميعا عن عبد العزيز بن عبد الصمد - واللفظ لأبى غسان قال حدثنا أبو عبد الصمد - حدثنا أبو عمران الجونى عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »[٢].

---

[١] خ/ك / التفسير، سورة الرحمن، ب ﴿ومن دونهما جنتان﴾ الرحمن آية (٦٢).

[٢] أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب (٧٥ - ٧٩).

الراوي الأعلى

عبد الله بن قيس ﷺ

عبد الله بن قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ذكر العسكري أنه رأى النبي ﷺ وآله وهو صغير وأبوه صحابي يأتي ذكره وروى هو عن أبيه وزيد بن خالد وأبي هريرة وأبن عمر روى عنه إبناه محمد والمطلب وإسحاق بن يسار والد محمد بن إسحاق صاحب المغازي ووثقه النسائي وعمل لعبد الملك بن مروان على العراق وولي المدينة في أول إمرة الحجاج وذكره البخاري وأبو حاتم وإبن حبان في التابعين وذكره في الصحابه أبن أبي خيثمة البغوي وإبن شاهين واستدركه أبو موسى من أجل حديث وهم فيه بعض الرواة قال إبن أبي خيثمة حدثنا إبن أبي أويس حدثني أبي عن عبد الله بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عبد الله بن قيس بن مخرمة قال قلت لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ فصلى ركتين ركعتين حتى صلى ثلاث عشرة ركعة الحديث .. أخرجه البغوي عن بن أبي خيثمة وقال يشك في سماعه وأخرجه بن شاهين عن البغوي أستدركه أبو موسى من طريق بن شاهين قال البغوي رواه مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عبد الله بن قيس عن زيد بن خالد الجهني قال قلت لارمقن فذكر الحديث.

قلت وهذا هو الصواب وهكذا أخرجه مسلم وأصحاب السنن من طريق مالك وأبو أويس كثير الوهم فسقط عليه الصحابي وسماع أبي أويس كان مع مالك فالعمدة على رواة مالك ولولا قول العسكري أن لعبد الله بن قيس رؤية لم أذكره إلا في القسم الرابع ولو كما قال العسكري لكانت له

معاني المفردات

جنتـــان: الجنة هى البستان والحديقة ومكان الاستمتاع ولذلك أطلق على المكان الذى أعده الله لعباده الصالحين فى الآخــرة ليتنعمــوا فيه.

آنيتهمـــا: الإناء الوعاء وجمعة آنية وجمع الآنية أوان وهى ما يستخدم للطعام والشراء.

رداء الكبر: الرداء الذى يلبس وتثنيته رداء آن ورد وان وارتـــدى أى لبس الرداء ، وهو فى حق الله عز وجل كناية عــن الســتر والحجاب الذى بينه وبين خلقه.

جنة عدن: جنان عدن أى جنات إقامة بكسر الدال لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء ومنه سمى المعدن ومركز كل شئ معدنـــه فجنة عدن هى وسط الجنات ومركزها.

رواية عن عمر فمن يقاربه ولم يوجد ذلك والله أعلم ووقع لابن منده فيه خبط ذكرته في ترجمة عبد الله بن قيس بن عكرمة في القسم الرابع [1].

[1] الإصابة في تمييز الصحابة ج: ٥ ص ٢٣ - ترجمة رقم ٦١٩٣

المعنى العام

هذا الحديث الشريف يتعلق بالمسألة الأولى التى شرحناها فى الحديث السابق ولكنه جاءت زيارة فا رواية الأمام مسلم عن سؤالى الصحابة للسيدة عائشة عن معنى قوله ﴿ثم دنا فتدلى﴾ [١].

والسيدة عائشة تركز على أن من زعم وفهم أن الرسول ﷺ رأى ربه بمقاييس الرؤية الدنيوية فقد دخل فى أمر عظيم وكبير وفى بعض الروايات أعظم على الله وهى الكذبة الكبيرة.

لأنه لا يثبت له سبحانه وتعالى صفات خلقه من الحوادث وهذا مستحيل على الله سبحانه وتعالى أما الرؤية بمقاييس الآخرة فلم ينصرف إليه الحديث.

وأما عن معنى قوله ﴿ثم دنا فتدلى﴾ فالبعض يرى أن الدنون يعنى به جبريل عليه السلام وهذا المعنى بصيد ولكن الدنو والقرب كان من رب العزة سبحانه وتعالى وهذا هو الواضح من النص ومن ذهب إلى ذلك لبيان عظيم منزلة النبى ﷺ عند ربه واستراق أنوار معرفته عليه.

وأرى أن الدنو كان للرسول ﷺ فقد دنا من ربه وقرب وتدلى جبريل وبعد عن هذا المكان فالدنو للرسول ﷺ والتدلى لجبريل عليه

---

[١] سورة النجم آية(٨).

ـلام وقال بعض العلماء هذا على التقديم والتأخير لأن المعنى ثم تدلى
ـا لأن التدلي سبب الدنو قال (بن الأعرابي: تدلى دون قرب من علو)

تبين السيدة عائشة ﵂ أن الرسول ﷺ رأى جبريل عليه السلام فــي
ـورته الحقيقة وهذا لا يتعارض في فهم الحديث فإذا كان رأى ربـــه
ـن باب أولى يرى جبريل وقد ثبت رؤيته لجبريل عليه السلام علـــى
ـورته الحقيقية في أول نزول الوحي عند فتــور الوحـــي وانقطاعــه
ـندما عاد إليه الوحي رآى جبريل أثناء عودته من حراء كما جاء فـــي
ـب السيرة النبوية وفي هذه الليلة تكررت الرؤيـــة وهــذا المعنـــى لا
ـعارض مع ظاهر نص الحديث.

ما يستفاد منه الحديث

١- تنزيه الله سبحانه وتعالى عن صفات الحوادث والمخلوقات.

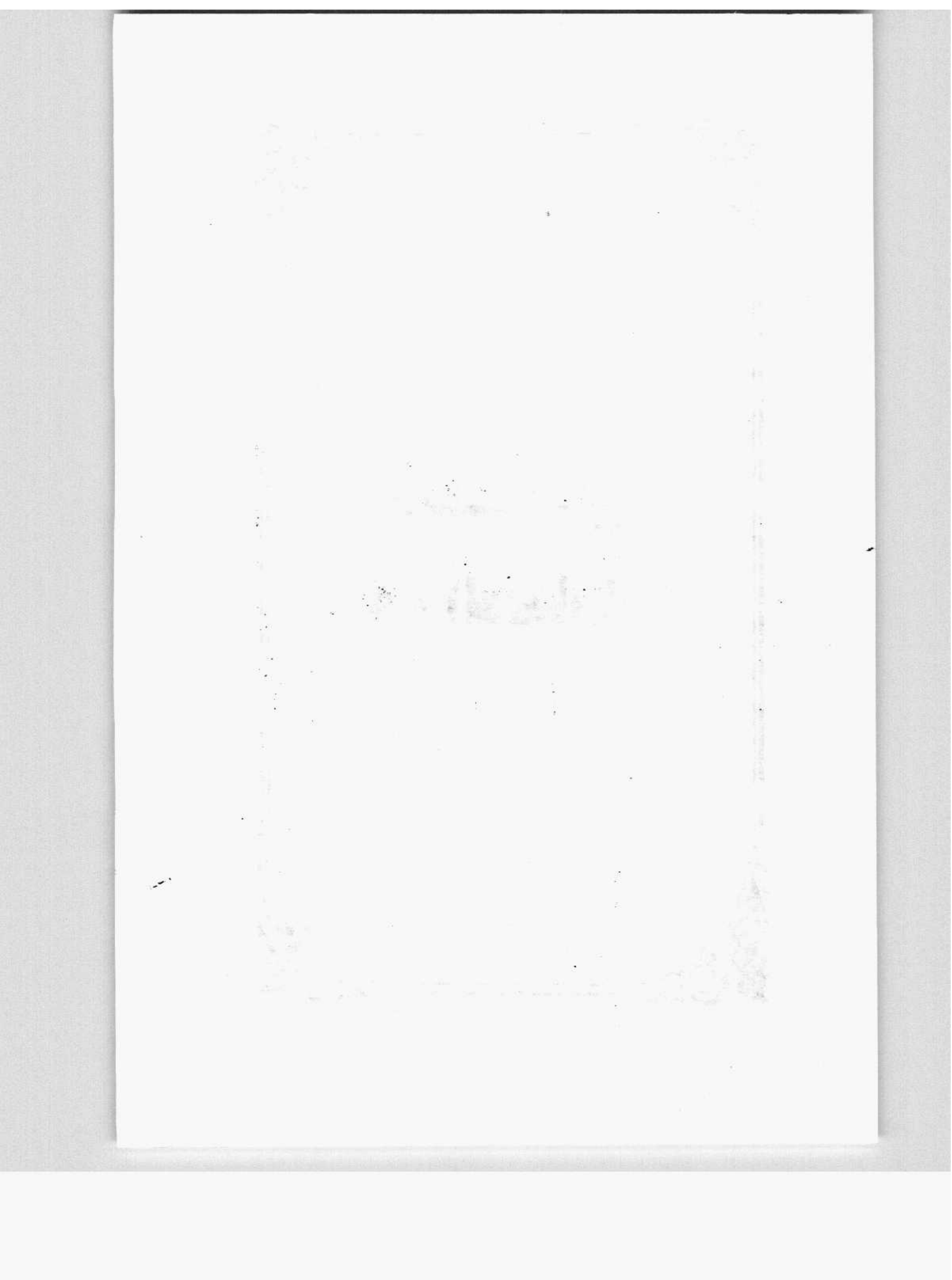
٢- علو منزلة الرسول ﷺ وقربه من ربه في ليلة الإسراء والمعراج.

٣- عظمة خلق جبريل عليه السلام فله ستمائة جناح كل جناح يرافق الشمس ، ويسد الأفق.



المبحث الرابع

فقه العبادات



الغســـل

الغسل طهارة بدنية تشمل جميع البدن بنية استباحة الصلاة وما منعه الحدث الاكبر ، وله أسباب خاصة توجبه ، وأسباب يستحسن من أجلها ، كما له فرائض وسنن ومستحبات .

موجبـــاته

يجب على الشخص المكلف غسل ظاهر بدنه جميعه لأحـد هذه الأسباب الأربعة :

١ ـ خروج المنى . فأن كان خروجه اثناء النوم وجب الغسل مطلقا . سواء كان خروج المنى بلذة معتادة أو بغير لذة ، فمن انتبه من نومه فوجد ثوبه مبالا بالمني وجب عليه الغسل ، وان كان بيقظة لا يوجب الغسل الا اذا كان خروجه بلذة معتادة ، من اجل نظر أو [illegible] او لمس أو نحوها ، ولا يشترط أن يكون الخروج مصاحبا لحالة اللذة والانعاظ ، بل ان نزوله بعد انقضاء اللذة أو عدوء الانعاظ موجب للغسل ، لأنه خرج بسبب لذة معتادة . اما اذا كان خروجه لغيرها بان خرج تلقائيا لمرض أو خوف ، أو خرج بلذة غير معتادة كمن حك لجرب أو نزل فى ماء حار فاندفع المنى منه فلا غسل عليه ، وانما يجب عليه الوضوء فقط . كمن جامع ولم ينزل ثم اغتسل فامنى بعد الغسل ، فعليه الوضوء فقط ايضا .

ومن الحالات الموجبة للغسل احتلام الرجل ثم استيقاظه قبل أن يمنى وامناؤه بعد يقظته ، فإنه يجب عليه الغسل .

وإذا شك فى البلل الذى يجده بثوبه أهو مذى أم منى وجب عليه الغسل ترجيحاً لكونه منياً ، وأخذاً بالأحوط ، فإذا ترجح لديه أنه مذى ، أو كان شكه مجرد وهم فلا غسل عليه ، كما لو شك أمنى هو أم مذى ، أم ودى أم ماء خارجي ، فإن هذا التردد بين ثلاثة أشياء أو أكثر يصير وهماً لا شكاً يوجب غسلاً (١) .

٢ ـ تغييب الاحشفة من شخص بالغ فى محل جماع بغير حائل (٢) وسواء كان المحل المغيب فيه قبلاً أو دبراً . وسواء كان المغيب فيه انساناً أو حيواناً ، فمتى أولج هذا الجزء فى قبل أو دبر وجب الغسل على المولج المكلف وعلى الأنثى إن كان الإيلاج فى قبل ، فإذا كان الإيلاج فى غير محل كما لو غيبت الحشفة بين الفخذين أو الإليتين فلا غسل إلا إذا أمنى ، فالغسل حينئذ للمنى لا للإيلاج .

والوطء فى الدُبر محرم على الرجل والمرأة ، وفاعله ، أرذل الفاسقين وهو من الأسباب التى يقتل الشخص من أجلها شرعاً ، والوطء الحرام يوجب الغسل .

---

(١) يرى الشافعية أن حال الشك لا توجب غسلاً ، بل الشخص أن يحمل البلل على المني أو على كونه مذياً جنسياً [illegible] ، كأنا [illegible] فلا غسل .

(٢) الحشفة نهاية عضو التناسل من الذكر .

٣ ـ الحيض ولو دفعة أو قطرة ٠

٤ ـ النفاس ولو خرج الولد بدون دم أصلا ٠

وسيأتى تفصيل الحديث عن الحيض والنفاس ٠

فرائضـــــه

فرائض الغسل خمسة هى :

١ ـ النية على ما سبق فى الوضوء ، بأن يقصد قبـــل بداية الغسل ، أو عند أول عمل منه فرض الغسل أو رفع الحدث الأكبر أو رفع الجنابة أو استباحة ما منعه الحدث الأكبر ٠

٢ ـ مولاة الغسل على ما سبق فى الوضوء ، ومع قيـــد الذكر والقدرة ٠

٣ ـ تعميم ظاهر الجسد بالماء سواء انغمس فيه أو صبه على بدنه ، ولابد من تعهد التجاعيد وثنيات الجلد وما بين الأصابع ، وحكم اللمعة فى الغسل هو حكمها فى الوضوء ٠

٤ ـ التدليك ، ويعنى به امرار أى عضـــو على ظاهر الجسد ، ولا يشترط أن يكون باليد كالوضوء ، بل يكفى تدليك رجل بأخرى وذراع بذراع ، ويمكن أن يكون بثوب أو نحوه ، وسواء كان مصاحبا لصب الماء أو بعده ما لم يجف العضو ، فاذا عجز عن ذلك جزء من جسمه سقط عنه ولا يكلف استعمال خرقة ولا استنابة شخص يدلكه ٠

٥ – تخليل شعر الجسد ، سواء فى ذلك شـــعر الراس وشعر اللحية او غيرهما ، وسواء كان خفيفا او كثيفا والمراد به أن يصل الماء الى البشرة ، ولا يستدعى هذا نقض الشـــعر المضفور الا اذا كان ضفرة مشدودا ، تمنع شدته وصول المـاء الى البشرة او باطن الشعر ، وكذا اذا كان مشـــدودا بثلاثة خيوط فاكثر .

ولا يستثنى جمهور المالكية من ذلك العروس التى تزين شعرها ، وقال بعض منهم ان العروس التى تزين شـــعرها يكفيها ان تمسح عليه ، وليس عليها غسل راسها لما فى ذلك من اتلاف المال . وقال الامام الحطاب اذا كان الطيب فى جسدها كله تيممت لأن ازالة الطيب بالغسل من اضاعة المال .

واجازوا ايضا تقليد الحنفية فيما فيه تيسير على المراة ، ومذهب الحنفية أن شعر المراة المضفور لا يجب حله فى الغسل، بل يكفى أن يبلغ الماء اصول الشعر ، ولا يجب أيضا بل ضفائرها بالماء ، ولكنهم أوجبوا اذا كان شعرها غير مضفور أن يصل الماء اليه جميعه أصولا وفروعا ظاهرا وباطنا ، واذا كان على راسها طيب أو دهن يمنع وصول الماء الى أصول الشعر وجب ازالته .

بهذا ترى أن الحنفية تسامحوا فى الشعر المضفور فقط، دون الطيب ويبدو أن مذهب المالكيـــة بالنسبة للمـــراة ايسر المذاهب .

سننه

سنن الغسل خمسة :

غسل اليدين اولا الى الكوعين ، وذلك انه ينقل بهما الماء الى بقية جسده فسنت طهارتهما اولا ، وتظل السنة ايضا فى الحالات التى لا ينقل فيها ماء بهما ٠

وسننه الأخرى هى المضمضة والاستنشاق والاستنثار ، ومسح ثقب الأذن الذى يسمى الصماخ ، وهذه الأجزاء ليست من ظاهر الجسد فلا يجب غسلها ، وصماخ الاذن يؤذيه الغسل، فسن مسحه فقط ٠

فضائله

من فضائله ما تقدم فى الوضوء من كونه فى موضع طاهر وتسمية فى ... وتقليل الماء ، ويندب البدء بازالة الأذى عن فرجه ٠

كيفية الغسل

الكيفية الفضلى للغسل هى ان يبدا المغتسل بغسل يديه ، ثم يزيل ما عليه من النجاسة ان كانت ٠ ثم يغسل مذاكيره ، ويتمضمض ويستنشق ويستنثر ثم يتم وضوءه بغسل كل عضو مرة حتى قدميه ٠ ثم يعود فيخلل اصول شعر راسه ، ثم يغسل

رأسه ثلاثا ، ثم يغسل رقبته . ثم منكبيه الى المرفق ، وما بعد المرفق الى الأصابع سبق غسله فى الوضوء - ثم يفيض الماء على شقه الأيمن حتى كعبيه ، فيغسله ويدلكه بطنا وظهرا ، ثم يفعل ذلك بالشق الأيسر ، وبذا ينتهى غسله ، وهذا الوجه اكمل وجوه الغسل وافضلها . وهناك طريقة أخرى أسرع - يبدأ فيها بغسل مذاكيره على ما سبق - ثم يتمضمض ويستنشق ويستنثر ، ثم يخلل شعر رأسه ، ويغسل جسده منحدرا الى قدميه . وتفقد هذه الطريقة بعض المندوبات .

والغسل بأى وجه من وجوهه يكفى عن الوضوء ، فلا يحتاج المغتسل الى وضوء لكى يصلى ، لأن الغسل اعم من الوضوء . هذا ما لم يمس الرجل عضوه وما لم يحدث ناقض لوضوء .

ومن شك فى جزء من جسمه غسله ما لم يكن مستنكحا.

ما تمنع منه الجنابة

تمنع الجنابة بأى وجه من وجوهها ما يمنع منه الحدث الأصغر من صلاة وطوافه ومس مصحف أو جزئه ... الخ ، كما تمنع دخول المسجد ولو اجتيازا ، ومن كان نائما بالمسجد فاحتلم فعليه الخروج منه . وتمنع الجنابة الرجل من قراءة القرآن . ولكنها تجوز للحائض والنفساء لطول مدة الحيض والنفاس ، ويجوز للجنب امرار القراءة على ذهنه من غير نطق ، لأن هذه لا تعد قراءة ، كما يجوز قراءة آية أو نحوها

للتعوذ عند النوم أو الخوف ، كقراءة المعوذتين وسورة الاخلاص ، وآية الكرسي ، وكذا يجوز قراءة نص للاستدلال به على حكم نحو « واشهدوا اذا تبايعتم » و « أحل الله البيع وحرم الربا » . « ليستاذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات » . الآية كلها .

ويستحب الغسل لصلاة الجمعة والاحرام بحج أو عمرة، ويندب للعيدين ودخول مكة .

ويندب للجنب اذا اراد النوم ليلا أو نهارا ولم يتمكن من الغسل أن يتوضأ ، وكذلك تفعل الحائض والنفساء اذا انقطع الدم عنها ، وهذا الوضوء لا يصلى به ولا ينتقض الا بجنابة اخرى.

آيات وآثار فى الطهارة

قال تعالى : « يايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضي أو على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه » .. (المائدة / ٦) .

« ويسالونك عن المحيض قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث امركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .» (البقرة / ٢٢٢)

وفى الحديث :

« اذا أصاب الختان الختان فقد وجب الغسل » (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وكانت بيوتهم شارعة فى المسجد (١) .

« وجهوا هذه البيوت عن المسجد ، فانى لا أحل المسجد لحائض ولا جنب » .

« وعن أم سلمة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم صرحة هذا المسجد (أى ساحته وعرصته) فنادى بأعلى صوته : « ان المسجد لا يحل لحائض ولا جنب » .

ورخص لهما فى اجتيازه استدلالا بالآية : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقلون ، ولا جنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » .

وعن جابر : « كان أحدنا يمر فى المسجد جنبا مجتازا » .

قال عمار بن ياسر رضي الله عنه :

أجنبت فلم أصب الماء فمعكت فى الصعيد(٢) وصليت ، فذكر ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقال : انما كان يكفيك هكذا . وضرب بكفيه الأرض وفى رواية أخرى : انما كان

---

(١) سواء كان هناك جماع أو لم يكن . والاصابة تعنى الادخال.

(١) أبوابها مفتوحة به .

(٢) دلكت جسمى به .

يكفيك أن تضرب بكفيك فى التراب ، ثم تنفخ فيهما . ثم تمسح بهما وجهك وكفيك الى الرسغين . (المرفقين) (٣) .

التيـــمم

التيمم فى اللغة القصد والاتجاه ، يقال : يممت فلانا أى قصدته ، وتيممت الكعبة أى اتجهت اليها ، وتيممت هذا العمل .

وهو فى الشرع : طهارة ترابية تشتمل على مسح الوجه واليدين بنية .

وترجـــع موجبـــاته اســـاســا الى أمرين اثنين همــــا فقد الماء حقيقة أو حـــكما ، وفقـــد القـــدرة على اســـتعمال الماء ، وبتفصيل هذه الحالات ، نجد ان الاشخاص الذين يجوز لهم التيمم سبعة انواع هم :

١ ـ فاقد الماء الكافى للوضوء أو الغسل بأن لم يجد ماء اصلا ، أو وجد ماء قليلا لا يكفى .

٢ ـ فاقد القدرة على استعمال الماء ، وهذا يشمل المكره والمربوط بجانب الماء ، ومن يخاف من حيوان مفترس ، أو يخاف على متاعه أو أتباعه اذا غادر مكانه .

---

(١) علمه صلى الله عليه وسلم التيمم ، وقال : كان يكفى مسح هذ الاعضاء فقط ، ولا داعى لمسح الجسم كله .

٣ – الخوف من حدوث مرض أو تاخر شفائه ، أو زيادة آلامه .

٤ – من كان فى حاجة إلى الماء الذى معه لشربه أو ليعد طعامه به أو لشخص له ، أو لشخص يتبعه أو حيوان ، ولو كان كلبا أو حمارا .

٥ – من يخاف بطلب الماء تلف مال له أو لغيره ، ويشمل المال الحيوان والطعام وبضاعة التجارة أو الزرع ، أو اى ممتلك له .

٦ – من يخشي من طلب الماء او استخراجه من البئر خروج وقت الصلاة ولو الاختيارى ، فانه يتيمم محافظة على أداء الصلاة فى وقتها ، فمن رأى انه يستطيع أن يغتسل أو يتوضأ ويدرك من الوقت ركعة واحدة بانحنائه للركوع قبل خروج الوقت فلا حق له فى التيمم ، ومن خشي فوات الوقت فتيمم ، ثم تبين له بعد الدخول فى الصلاة أو بعد انهائها أن الوقت متسع فلا اعادة عليه ، ولا يقطع الصلاة اذا تبين ذلك قبل تمامها .

٧ – من وجد الماء ولم يجد من يناوله اياه ، أو كان الماء فى بئر عميقة ولا يجد دلوا أو حبلا .

وهذه كلها ترجع الى السببين اللذين ذكرناهما اولا .

التيمم للفرائض فقط

نظرا لأن التيمم رخصة استعملت عند الضرورة فانه يكون للصلاة المفروضة ولا يكون لأجل نافلة ، ومن تيمم لفريضة جاز له ان يصلى بعدها من النوافل ما شاء بشرط أن يتصل النفل بالفرض ، وتتصل النوافل بعضها ببعض ، ويجوز لمن تيمم لفرض أن يصلى نافلة قبله ، ثم يتيمم ثانيا ليصلى الفريضة . هذا فى الحاضر الصحيح ، اما المريض والمسافر ومن له حق التيمم فانه يتيمم للنوافل ، لأن التيمم هو الطريقة الوحيدة التى يتعبد بها ، وهو يتيمم لصلاة الجنازة سواء تعينت عليه او لو لم تتعين ، اما الحاضر الصحيح فلا يتيمم لها الا اذا تعينت عليه ، اذ لو كان ثم من يؤدى هذه الصلاة صارت نافلة فى حق المتيمم ، لأن صلاة الجنازة فرض كفاية .

ويبيح التيمم ما يمنع منه الحدث الأكبر والحدث الأصغر ، فالمتيمم من جنابة أو ناقض وضوء يجوز له مس المصحف وقراءة القرآن ودخول المسجد ، سواء كانت هذه قبل صلاة الفرض او بعدها .

ولا يصلى بالتيمم فرضين ولو مشتركتين فى الوقت . ولا يقضي به فرضين متجمدين عليه أو أكثر من اثنين .

ويطلب الماء لكل صلاة طلبا لا يشق على طالبه فى مسافة لا تزيد على ميلين ، أما اذا كان الماء لا يتوقع الا بعد ميلين

فانه لا يلزم بطلبه ، اذ هذه المسافة مظنة المشقة ، وأيضا اذا كان دون الميلين ولكن يشق عليه لا يلزم بطلبه ، ومن كان يائسا من وجود الماء تيمم وصلى أول الوقت ، اما من كان مترددا يتوقع وجود الماء ولا يقطع بوجوده كما لا يقطع بعدمه فانه يصلى وسط الوقت الاختيارى ، فان كان له امل قوى ورجاء أن يجد مـاء اخر صلاته لآخر وقتهـا الاختيارى . فاذا تيمم وصلى لحالة من هذه الحالات ثم وجد الماء فلا يعيد صلاته الا اذا كان مقصرا فانه يعيد صلاته فى الوقت ، كمن نسي الماء فتيمم ثم ذكره ، وان تذكره فى الصلاة بطلت .

كيفيـــة التيـــمم

يضع المتيمم كفيــه مبسوطتين على الأرض او التراب الطاهر ، ثم يمرهما على وجهه ويتتبع بيديه عينيه وتحت انف وشفتيه ، لأنه ليس لديه ماء يسيل فلابد من وصول باطن كفه أو اصبعه الى كل جزء من وجهــه ، ثم يضـع يديه على التراب مرة ثانية ويمر بيـــده اليسرى على يـده اليمنى من أطراف أصابعها الى مرفقه بحيث لا يدع جزءا من يده الا يمر عليه بكفه اليسرى او اصابعها ، ويخلل أصابعه واحدا واحدا ثم يفعل مثل ذلك بيده اليسرى ، وبذا ينتهى تيممه .

فرائضـــــه

فرائض التيمم خمسة هى :

١ ـ النية : وهى ان ينوى التيمم او استباحة الصلاة ، أو استباحة ما منع منه الحدث ، وفى هـــذه الحالة لابد أن يذكر أو يلاحظ فى نيته كونه حدثا أصغر أو أكبر ، فاذا كانت به جنابة أو نفاس أو حيض وقال نويت استباحة الصلاة أو ما منعه الحدث ولم يذكر أو يلاحظ أنه حـدث أكبر فصـلاته باطـلة ويعيدها ابدا .

٢ ـ الضربة الاولى : والمراد بها وضع اليدين على الصعيد الطاهر ، ولا تعنى كلمة الضربة شدة الضرب ، ولا أن يعلق تراب بكف المتيمم .

٣ ـ تعميم الوجه واليدين الى الكوعين بالمسح ، ويجب تخليل الأصابع بباطن الكف أو الاصابع ، ويجب نزع خاتمه أو تحريكه ليمسح ماتحته ، سواء كان الخاتم ضيقا أو واسعا ، وسواء كان ماذونا فيه أو محرما ، فليس الأمر فى التيمم كما هو فى الوضوء .

٤ ـ الصعيد الطاهر : سمى بذلك أخذا من الآية : «فتيمموا صعيدا طيبا» ، والمراد به كل ما كان من أجزاء الأرض من التراب والرمل ، وهذا افضل أنواع الصعيد ، وكل ما كان من جنس الأرض من ملح أو حجر . ويشترط فى الحجر الا يطبخ

فاذا طبخ كالجير والجص صار بالصنعة شيئا من غير جنس الأرض ، ويشترط فى المعادن الا تنقل من محلها وتصير بضائع وأموالا فى ايدى الناس ، كما لا تجوز التيمم على الجواهر الكريمة من الذهب والفضة والياقوت واللؤلؤ :

ولا يجوز التيمم على الحشائش والاخشاب والأشجار لأنها ليست من اجزاء الأرض ، اما الثلج الذى لم يستطع اذابته فيجوز التيمم عليه .

٥ ـ المولاة بين أجزاء التيمم بحيث لا يفصل بين مسح الوجه واليدين ولا بين يد واخرى .. وهكذا ، وايضا الا يفصل بين التيمم وما تيمم له فاذا تيمم ثم اكل أو تحدث طويلا فان عليه ان يعيد تيممه ولا يجوز له الصلاة به .

ومن شروط صحة التيمم ووجوبه دخول الوقت فلا يجوز تيمم للفريضة الا بعد دخول وقتها ، ووقت الفائتة تذكرها ، ولا يكون التيمم الا للصلاة التى فعل من اجلها ، فمن تيمم لصلاة الصبح ثم تذكر انه لم يصل العشاء فعليه ان يتيمم للعشاء. ولا يجوز ان يصليها بتيممه للصبح .

سنن التيمم

وسنن التيمم اربعة هى :

١ ـ الترتيب بأن يمسح الوجه ثم اليدين ، فان نكس أعاد اليدين ان قرب الوقت ولم يصل .

٢ – الضربة الثانية ليديه ، فمن اكتفى بضربة واحدة صح تيممه وفقد سنته .

٣ – مسح اليدين للمرفقين .

٤ – الا يمسح على شيء بيديه وبعد الضربة ، فان مسحهما بشيء كره ، وليس المراد أن ينقل التراب الى وجهه . بل انه ينفض يديه بخفة اذا علق بهما تراب .

منـــــدوباته

من مندوبات التيمم التسمية فى أوله والصمت أثنــاء ادائه . واستقبال القبلة وتقديم اليد اليمنى ، والمحافظة على طريقته بان يضع باطن يده اليسرى على ظاهر يده اليمنى ويمر به حتى المرفق ثم يدير يده اليمنى فيصير باطن يسراه على باطن يمناه واليسرى منحية عليها حتى تشــمل أحد الجانبين فى كل مرة ، ويمر بيده حتى نهاية أصابع اليمنى فيخللها ، ثم يفعل مثل ذلك باليسرى .

ويستحب للمتوضيء فاقد المـاء ان يبقى على وضـوئه بقدر ما يطيق ، ويكره له ابطال وضوئه .

مبطلات التيمم

يبطل التيمم ما يبطل الوضوء من حدث وشبهة ، كمـا

يبطله وجود ماء كاف قبل الدخول فى الصلاة ان اتسع الوقت لاستعماله ولم يكن دخل الصلاة ، ويبطله طول الفصل بينه وبين الصلاة كما سبق .

المسح على الجبيرة

الجبيرة هى ما يوضع على الجرح من ضماد به الدواء أو رباط ، والمسح عليها رخصة فى الطهارة المائية ، وذلك محافظة على صحة المتطهرين ، فمن كان به جرح أو دمل أو اثر حرق أو جرب أو نحو ذلك ، وكان بلله بالماء مما يزيده ألما أو اتساعا، او كان البلل يؤخر شفاءه ، فان صاحب الجرح ينحيه عن الماء بان يمسح على المحل بيده ان لم يكن فى ذلك ضرر ، فان كان امرار اليد عليه يؤلمه وضع عليه جبيرة ومسح عليها ، فان لم يكن ربطه بعصابة فوق الجبيرة ومسح على العصابة . والمسح يؤدى بان يغمس يده فى الماء ثم يمر بها على المكان، ولا يعنى ذلك انه يبلل الجبيرة أو العصابة .

ويكون ذلك فى الوضوء وفى الغسل ، فإن كان الجرح يشمل عضوا أو كان بجزء منه ولكن الرباط يلفه كله مسح على الرباط ، أما اذا كان بجزء كجرح بجبهته أو ذقنه ، فانه يمسح الجزء الجريح ويغسل ما عداه ، هذا اذا لم يكن غسل الجزء الصحيح يضر بالمجروح والا مسح عليه كله ، ومن كثرت به الجراح بحيث لم يبق من جسمه الا جزء قليل يتيمم.

والجبيرة تقوم مقام الجزء الذى تغطيه ، فاذا نزحها

لوضع دواء او تنظيف الجرح ، أو سقطت بنفسها ردها الى مكانها ومسح عليها ان لم يطل الوقت ، فان طال الزمن بقدر ما يفسد الموالاة ، بطل وضوؤه واعاده من أوله ، واذا كان فى صلاة وسقطت جبيرته بطلت صلاته ، واعاد الجبيرة ثم أعاد المسح ما لم يطل الزمن ، فان طال الزمن بطل وضوؤه أيضا .

ومن الأحاديث التى وردت فى شان الجبيرة ما رواه جابر من ان رجلا أصابه حجر فشجه في رأسه ، ثم احتلم فسأل أصحابه : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : لا نجد لك رخصة وانت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال :

« قتلوه ، قتلهم الله ، الا سالونى اذ لم يعلموا ، فانما شفاء العى السؤال . انما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر او يعصب على جرحه ، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده » .

الحيض والنفاس

الحيض دم يخرج من قبل الانثى البالغة بنفسه ، وهو فى المعتاد يأتى مرة كل شهر تقريبا لأن مبيضي الانثى يفرز كل واحد منهما بويضة بالتناوب كل شهر ، فاذا لم تصادف لقاحا من ذكر تتحرك فى مجراها حتى تصل الى الرحم فيقذف بها الى الخارج مع ما معها من الدم ، فهذا هو دم الحيض ، الذى يجب الغسل الكامل من أجله ، أما الدم الذى

يسيل بسبب جرح أو افتضاض أو لمرض فلا يوجب غسلا ويكفى ان ينظف ، ولا يمنع الصلاة .

واقل ما يكون الحيض دفقة من الدم ، أما سيلان شيء من الدم حول المحل فلا يسمى حيضا ولا تغتسل المرأة من أجله . ولا تزيد مدة نزول الحيض على خمسة عشر يوما ، فاذا ظل ينزل بعد ذلك فهو دم مرض وفساد ، تصوم معه المرأة وتصلى وتخالط زوجها ، كما أن مدة الطهر الفاصلة بين حيضة وأخرى لا تقل عن خمسة عشر يوما ، فاذا نزل دم قبل هذه المدة وبعد انقطاع الحيض فهو أيضا دم علة وفساد لا يمنع العبادة ولا غيرها .

والفتاة فى أول حيض لها تتربص بنفسها حتى ينقطع الدم ، فتعتبر المدة التى نزل الدم خلالها هى المدة المعتادة لحيضها ، فاذا جاء الشهر التالى فانه غالبا ينقطع الدم فى مثل المدة السابقة ، فاذا زاد فى شهر من الشهور عما سبق ، تربصت بنفسها مدة لا تزيد على ثلاثة أيام ، تسمى مدة استظهار ، لأنها تريد بتريثها براءة رحمها وطهارته ، فاذا انقطع الدم بعد هذه الأيام الثلاثة ، أو بعد أقل منها ، أصبحت هذه المدة هى عادتها ، أما اذا لم ينقطع فانها تغتسل بعد أيام الاستظهار الثلاثة وتصلى وتصوم ، واذا كانت مدة حيضها ثلاثة عشر يوما استظهرت بيومين فقط ، واذا كانت أربعة عشر يوما استظهرت بيوم واحد ، أما اذا كانت عادتها خمسة عشر يوما كوامل فلا استظهار لها ، وتغتسل فى نهايتها وتصلى .

وعلامة الطهر جفاف المحل بان تخرج الخرقة منه خالية من اثر الدم ، والقصة وهى ماء ابيض رقيق كماء الجير وكالمنى ، والقصة أدل على براءة الرحم من الحيض ، فمتى رأتها الحائض اغتسلت ولا تترقب الجفاف ، وهى أبلغ من الجفاف لأن الجفاف قد يأتى لفترة ثم يعود الدم ثانية ، اما القصة فلا ينزل بعدها دم .

ومن الحالات الشاذة أن تحيض المرأة الحامل ، ومدة الحيض لديها تختلف باختلاف شهور حملها ، لأن الحمل مرض قد يتسبب عنه نزول دم ، وهذا الدم يزداد كلما تقدمت أشهر الحمل ، فاذا أكملت الحامل شهرين ودخلت فى الشهر الثالث ثم نزل دم حيض فان مدته القصوى عشرون يوما ، وليست خمسة عشر يوما كالمعتاد ، فاذا استمر ينزل بعدها فهو دم استحاضة ، ويظل هذا الحد لها فى الشهور التالية حتى الشهر السادس من حملها ، فاذا أتمت السادس فمدة حيضها القصوى تمتد الى ثلاثين يوما ، وهى مدتها فى الشهور التالية ايضا ، وليس للحامل أيام استظهار .

ويرى الحنفية وبعض العلماء ، أن هذا الدم دم مرض وليس حيضا فلا يمنع العبادة ولا يوجب غسلا ، ولكن مذهب مالك وما به الفتوى فى المذهب للشافعى انه حيض يمنع الصوم والصلاة ودخول المسجد .

وقد يأتى الجفاف لمدة ثم ينزل دم ثم يأتى جفاف ، وقد

يأتى الدم يوماً وينقطع يوماً ، أو ينقطع يومين ثم يعود ، فما دام هذا الانقطاع لم يمتد حتى يصل خمسة عشر يوماً فهى حيضة واحدة ، تلفق فيها أيام نزول الدم ، وأيام الاستظهار ثم يكون الدم بعد ذلك دم علة وفساد .

فمن كانت حيضها ثمانية أيام ، فانقطع عنها الدم بعد يومين ، فانها تغتسل وتصلى وتصوم ، فإذا نزل الدم فى اليوم الثالث ـ قطعت عبادتها ، فإذا استمر يومين آخرين ثم انقطع ـ طهرت ثانياً وصلت ، ويكون قد مضى من حيضها أربعة أيام ـ فإذا ظل الانقطاع يوماً أو عدة أيام دون الخمسة عشر يوماً ثم نزل بها دم انقطعت عن العبادة ثانياً وضمت أيام نزول الدم إلى الأربعة الأيام السابقة حتى تبلغ أيام نزوله ثمانية ، فإذا لم ينقطع ، أو انقطع وعاد ثانياً بعد مدة وجيزة ، انقطعت عن العبادة ثلاثة أيام أخرى استظهاراً ، ثم بعد ذلك تغتسل وتتعبد ويكون هذا الدم دم استحاضة . أما إذا انقطع الدم خمسة عشر يوماً فهى طهر لها ، وما نزل بعد ذلك فهو حيض جديد .

ويحرم على الحائض دخول المسجد ومس المصحف ولكن لا يحرم عليها قراءة القرآن فإذا انقطع الدم حرمت عليها القراءة حتى تغتسل ، لأن اباحة القراءة كانت استثناء لطول المدة وعدم استطاعتها الطهر ، فإذا انقطع الدم أصبحت كالجنب تستطيع أن تغتسل .

ويحرم على الزوج مضاجعة زوجه أيام حيضها ، كما يحرم

عليها تمكينه من نفسها عملا بالآية : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله »(١) .

ويحرم بعد هذا أن يستمتع بجسدها فيما بين سرتها وركبتيها ، فيجوز له تقبيلها واستمتاعه بصدرها ويديها وامناؤه باى جزء منها عدا هذه المنطقة .

ويحرم أيضا طلاقها وهى فى حيضها ، فاذا طلقها اثناء الحيض أجبر على رجعتها ان كان الطلاق رجعيا ولكن تحسب عليه الطلقة ، ويستثنى من هذه الحالة الزوجة غير المدخول بها ، والحامل ، فالطلاق السنى - غير البدعى - انما يكون فى طهر لم يمسسها الزوج فيه ، والغرض منه اطالة مدة العدة حتى يفىء الزوج الى نفسه فيراجعها ، والحامل عدتها هى وضع الحمل(٢) ، وغير المدخول بها لا عدة لها(٣) ، فلا يؤثر الطلاق فى عدتهن شيئا ، ولهذا لم يحرم .

والنفاس ، يخرج من قبل المرأة عند ولادتها أو بعدها ، وقلما ينزل منها دم قبل الولادة ، وما نزل قبلها فهو دم

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٢٢ .

(٢) عملا بالآية : « واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن » .

(٣) لقوله تعالى : « يايها الذين امنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهم فمالكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » (سورة الاحزاب آية ٤٩) .

استحاضة لا يمنعها الصوم والصلاة ، وقد ينزل الطفل بغير دم فتغتسل النفساء عقب الولادة وتصلى وتصوم ، واذا نزل الدم واستمر فأقصى مدة الولادة ستون يوما يجب أن تغتسل بعدها وتصلى وتصوم ولا عبرة بهذا الدم ، فهو استحاضة ومرض أيضا .

فاذا تقطع دم النفاس لفقت النفساء ستين يوما ، وتغتسل كلما انقطع الدم وتصوم على ما سبق فى الحيض .

من الأحاديث التى جاءت فى الحيض والنفاس

كانت فاطمة بنت أبى حبيش تستحاض ، ولم يكن لها عادة ، فوصفت حالها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها :

« اذا كان دم الحيض فانه أسود يعرف ، فاذا كان كذلك فامسكى عن الصلاة ، فاذا كان الآخر فتوضئى وصلى ، فانما هو عرق » .

سألت معاذة السيد عائشة (رضي الله عنها) : ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ ، قالت : « كان يصيبنا ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنؤمر بقضاء الصوم ، ولا نؤمر بقضاء الصلاة »(١) .

---

(١) وهذا ترخيص فى الصلاة لتكرارها ومشقتها .

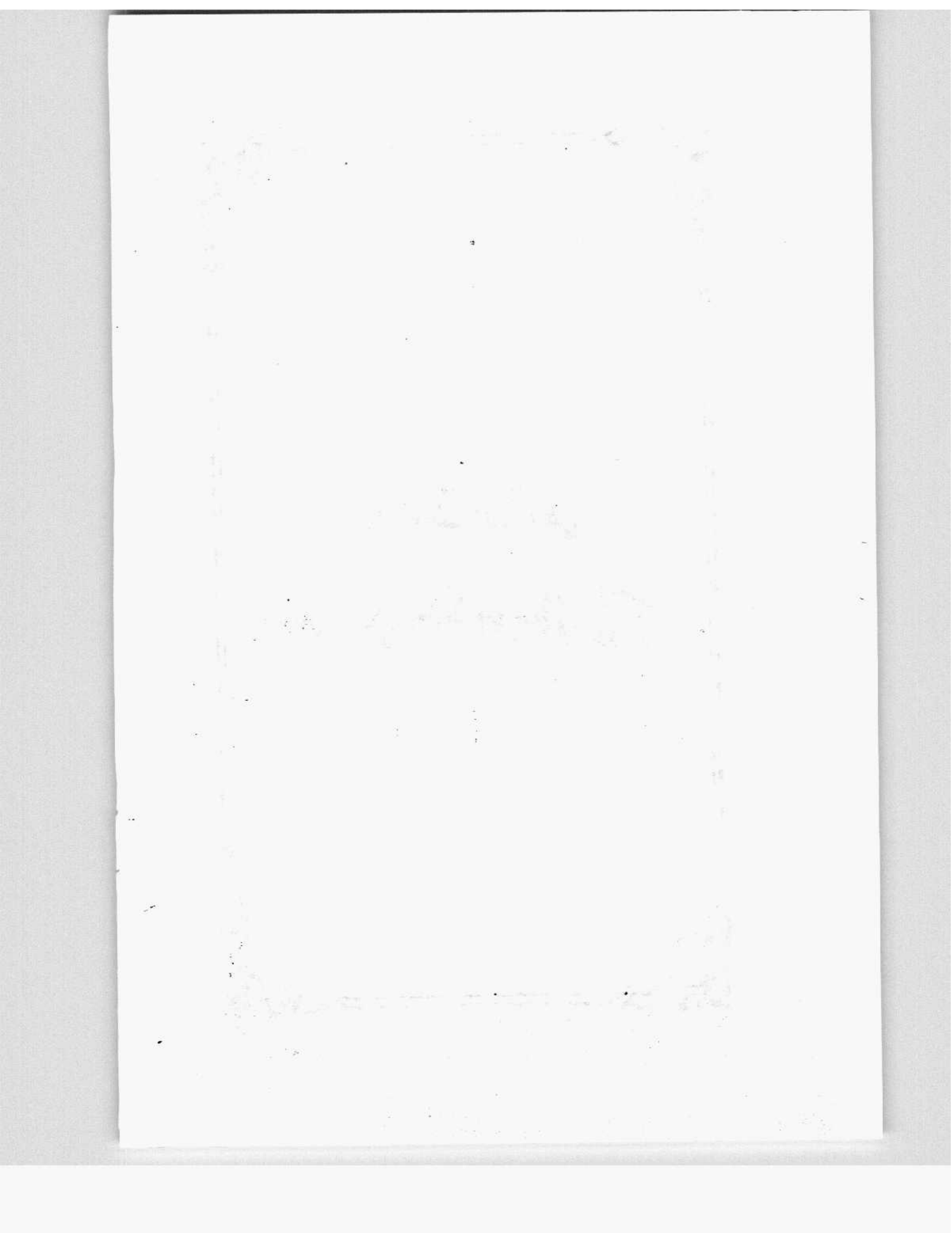
فى شأن المستحاضة التى لها عادة مقررة . استفتت ام سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فى امرأة تهــراق الدم ، فقال صلى الله عليه وسلم : لتنظر قدر الليالى والأيام التى كانت تحيضهن وقدرهن من الشهر ، فتدع الصلاة ، ثم لتغتسل ولتستثفر ثم تصلى » .

والاستثفار شد قطن أو خرقة على فرجها .



المبحث الخامس

مواقف من حياة الرسول ﷺ



وقال الإمام ابن كثير فى سيرته وفى هذه السنة فيما ذكره غير واحد من المتأخرين فرضت الزكاة ذات النصب[1][2].

مغازى رسول الله (ﷺ) وسراياه

اختلف العلماء فى عدد غزوات الرسول (ﷺ) وسراياه وقد اتفق أهل هذا الفن على أن الغزوة هى التى خرج فيها الرسول (ﷺ) من أجل القتال أما السرية فهى البعث الذى أرسله الرسول (ﷺ) ولم يخرج فيه.

وقد روى عن زيد بن أرقم أنه سئل: كم غزا رسول الله (ﷺ) قال تسع عشرة.

وفى صحيح البخارى عن بريدة قال: غزا رسول الله (ﷺ) ست عشرة غزوة.

ولمسلم عنه: أنه غزا مع رسول الله (ﷺ) ست عشرة غزوة وفى رواية له عنه أن رسول الله (ﷺ) غزا تسع عشرة غزوة وقاتل فى ثمان منها.

وأرى أن [illegible] ـف بين العددين فمن قال بأنها ست عشرة غزة لم يعد الثلاث غزوات الأولى السابقة لغزوة بدر الكبرى والتى رجع الرسول (ﷺ) من غير قتال، وهى الأبواء وبواط والعشيرة والذى قال تسع عشرة غزوة عد هذه الثلاث.

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن قتادة: أن مغازى رسول الله (ﷺ) وسراياه ثلاث وأربعون أربع وعشرون بعثاً وتسع عشرة غزوة خرج فى ثمان

---

(١) أى زكاة المال.

(٢) راجع سيرة ابن كثير ٢/٣٧٩.

منها بنفسه (أى قاتل): بدر، وأحد، والأحزاب، والمريسيع، وخيبر، وفتح مكة وحنين، والطائف.

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى: هذه مغازى رسول الله (ﷺ) التى قاتل فيها: يوم بدر فى رمضان سنة اثنين ثم قاتل يوم أحد فى شوال سنة ثلاث ثم قاتل يوم الخندق وهو يوم الأحزاب وبنى قريظة فى شوال سنة أربع ثم قاتل بنى المصطلق وبنى لحيان فى شعبان سنة خمس ثم قاتل يوم خيبر سنة ست ثم قاتل يوم الفتح فى رمضان سنة ثمان ثم قاتل يوم حنين وحاصر أهل الطائف فى شوال سنة ثمان ثم حج أبو بكر سنة تسع ثم حج رسول الله (ﷺ) حجة الوداع سنة عشر وغز اثنتى عشرة غزوة ولم يكن فيها قتال وكانت أول غزاة غزاها الابواء وقال حنبل بن هلال بسنده عن الزهرى قال: أول آية نزلت فى القتال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾[1] ... الآية بعد مقدم رسول الله (ﷺ).

الغزوات[2] والسرايا[3] التى سبقت غزوة بدر الكبرى

بعد أن استقر الأمر للرسول (ﷺ) فى المدينة المنورة وبعد أن أسس المسجد النبوى وآخى بين المهاجرين والأنصار وعقد المعاهدة بين المسلمين ويهود المدينة التى تكفل لليهود حريتهم الدينية من جهة عقائدهم وإقامة شعائر ملتهم وتلزمهم أن يكونوا مع المسلمين على من حاربهم وألايكونوا مع عدولهم.

---

(١) سورة الحج الآية/٣٩.

(٢) الغزوة تطلق على خروج الرسول (ﷺ) من أجل القتال.

(٣) السرية هى التى لم يخرج فيها الرسول.

وبعد أن اطمأن صلوات الله عليه بوحدة المسلمين وقوتهم واطمأن إلى روابط المعاهدة التى أنشأها مع اليهود ولو إلى أجل. بدأ (ﷺ) يرسل بعوثه وسراياه للاستطلاع ولإشعار قريش ومن حول المدينة من اليهود والأعراب بقوة المسلمين وتهديداً لمن تحدثه نفسه منهم بمهاجمة المدينة. وكانت لهذه السرايا والبعوث أيضا مهمة أخرى فهى كانت توادع من يكون فى موادعتهم خير ومصلحة للمسلمين، ولم تكن هذه السرايا لقطع طريق أو لنهب أولسلب كما زعم بعض أعداء الدين وذلك لأنها كانت أعداداً قليلة فسرية حمزة لم تزد على ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وسرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب لم تزد على ستين، وسرية سعد بن أبى وقاص لاتتجاوز العشرين بينما كانت قوافل قريش تسير فى حراسة المئات من الرجال المدججين بالسلاح، وسرية عبد الله ابن جحش أيضا لم تبلغ عشرة أفراد، كل هذا يشير إلى أن الغرض من هذه السرايا والبعوث إنما كان لإظهار قوة المسلمين ولبيان أنهم أصبح لهم دولة وأصبح لهم كيان.

وكانت أول سرية يبعث بها رسول الله هى سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، بعثه الرسول (ﷺ) فى ستين من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار احد، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقى بها جمعاً عظيما من قريش فلم يكن بينهم قتال إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمى به فى الاسلام. ثم انصرف القوم وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة وعتبة بن غزوان بن جابر المازنى حليف بنى نوفل بن عبد مناف وكانا مسلمين، ولكنها خرجا ليتوسلا بالكفار، وكان على رأس الكفار عكرمه بن أبى جهل.

قال ابن إسحاق: كانت راية عبيدة بن الحارث فيما بلغنى أول راية عقدها رسول الله (ﷺ) فى الإسلام لأحد من المسلمين[1].

وقد بعث (ﷺ) عمه حمزة بن عبد المطلب بن هشام فى سرية إلى سيف[2] البحر من ناحية العيص فى ثلاثين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهلى وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال.[3].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن راية حمزة بن عبد المطلب كانت أول راية عقدها رسول الله (ﷺ) فى الإسلام وذهب فريق آخر إلى أن راية عبيدة ابن الحارث كانت أول راية وقال بعضهم أن البعثين كانا معاً وأن الرايتين كانتا فى توقيت واحد.

سرية سعد بن أبى وقاص:

بعد سرية حمزة بن عبد المطلب أرسل الرسول (ﷺ) سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً ورجع من غير حرب[4].

أما عن أول غزواته (ﷺ) فكانت غزوة الابواء ويقال لها غزوة ودان[5].

---

(١) راجع مختصر سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٠.

(٢) شاطئ البحر.

(٣) المرجع السابق.

(٤) مختصر سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٣.

(٥) ودان تقع على طريق الصاعد من المدينة وقرب الأبواء.

وكان خروجه (ﷺ) فى شهر صفر من السنة الثانية للهجرة قال ابن هشام واستعمل على المدينة سعد بن عبادة.

قال ابن اسحاق: حتى بلغ ودان وهى غزوة الأبواء[1] يريد قريشاً وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فلم يلق قريشاً فوادعته فيها بنو ضمرة وكان الذى وادعه[2] منهم عليهم مخشى بن عمرو الضمرى وكان سيدهم فى زمانه ذلك ثم رجع الرسول (ﷺ) إلى المدينة ولم يلق كيداً[3].

غـــزوة بـــواط[4]

عاد الرسول (ﷺ) من غزوة الأبواء فى آواخر شهر صفر فجلس فى المدينة بقية شهر صفر وبعض أيام من صدر ربيع الأولى وفى منتصف ربيع الأول خرج رسول الله (ﷺ) على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط يريد قافلة يقودها أمية بن خلف فلم يدركها لأنها سلكت طريقاً غير مألوفة فرجع الرسول (ﷺ) الى المدينة ولم يلق كيداً، واستعمل الرسول (ﷺ) على المدينة فى غزوة بواط السائب بن عثمان بن مظعون

غـــزوة العشـــيرة

عاد الرسول (ﷺ) الى المدينـة فى شهر ربيع الآخر من غزوة بواط فجلس بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى ثم خرج الى العشيرة

---

(١) الابواء قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

(٢) وادعه: راعة وعاهده على ترك الحرب والاذى.

(٣) المصدر السابق.

(٤) بواط ابفتح الموحدة وضمها، جبل من جبال جهينه بقرب ينبع على بعد أربعة بـرد مـن المدينة.

من بطن ينبع واستعمل على المدينة ابا سلمة بن عبد الأسد وخرج فى نحومائتين من اصحابه يريدون قافلة لقريش على رأسها أبوسفيان بن حرب مع ثلاثين أو أربعين رجلا وعير لقريش كانت تحمل تجارة. لقريش تقدر بحوالى خمسين ألف دينار.

ولكن هذه القافلة أفلتت لأنها مرت بالعشيرة قبل وصول الرسول (ﷺ) وأصحابه بيومين فأقام الرسول (ﷺ) وأصحابه بالعشيرة جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً[1]. وفى هذه الغزوة كنى الرسول (ﷺ) على بن أبى طالب بأبى تراب.

قال ابن اسحاق: بسنده عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلى بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة فلما نزلها رسول الله (ﷺ) وأقام بها رأينا أناساً من بنى مدلج يعملون فى عين لهم وفى نخل فقال لى على بن أبى طالب يا أبا اليقظان هل لك فى أن تأتى هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون ثم قال: قلت: ان شئت قال فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشينا النوم فانطلقت أنا وعلى حتى اضطجعنا فى صور[2] من النخل وفى دقعاء[3] من التراب فنمنا فوالله ما أهبنا[4] الارسول الله (ﷺ) يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء التى نمنا فيها فيومئذ قال رسول الله (ﷺ) لعلى بن أبى طالب مالك

---

(١) راجع مختصر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٦١وكتاب المؤتمر العالمى الرابع للسيره والسنة صـ ٤٧١.

(٢) صور النخل أى صغار النخل.

(٣) الدقعاء التراب اللين الرقيق على وجه الأرض.

(٤) أهبنا اى أيقظنا وهو من هب النائم إذا استيقظ.

يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب ثم قال: ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين قلنا بلى يارسول الله قال أحيمرثمود[1] الذى عقر الناقة والذى يضربك ياعلى علي هذه ووضع يده على قرنه حتى يبل منها هذه وأخذ بلحيته[2].

وهذه الأخبار تعد معجزة لسيدنا رسول الله (ﷺ) إذ أنه أخبر بما يقع مستقبلاً بعد حوالى أربعين سنة وحدث فعلاً ما قاله الرسول (ﷺ) وقد أورد الأمام السهيلى سبباً آخر لتكنية الرسول (ﷺ) لعلى بن أبى طالب بأبى تراب.

قال أورد البخارى فى جامعه فيما معناه أن رسول الله (ﷺ) وجد علياً نائماً فى المسجد وقد ترب جنبه فجعل يحت التراب عن جنبه ويقول قم أبا تراب وكان قد خرج إلى المسجد مغاضباً لفاطمة.

وقال بعض العلماء لاخلاف فى السببين فيجوز أن الرسول (ﷺ) كناه مرتين مرة فى المسجد ومرة في الغزوة.

غزوة بدر الصغرى وتسمى (غزوة سفوان)[3]

رجع رسول الله (ﷺ) إلى المدينة من غزوة العشيرة فى جمادى الآخرة وأقام بالمدينة ليالى قلائل لم تبلغ العشر حتى أغار على المدينة كرز بن جابر الفهرى أغار على سرح[4] المدينة فخرج رسول الله (ﷺ) فى طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر وكان كرز قد فات هذا المكان فلم يدركه

---

(1) أحيمر ثمود هو الذى عقر ناقة صالح واسمه قدار بن سالف.

(2) مختصر سيرة ابن هشام ٣٦٢/١.

(3) سفوان بالسين والصاد وهو واد يلى المدينة من ناحية بدر.

(4) السرح: ما يرعى من النعم أى القطيع من الاغنام وأشباهه.

رسول الله (ﷺ) وأصحابه وكان لواء الرسول (ﷺ) في هذه الغزوة مع على ابن أبى طالب.

واستخلف الرسول (ﷺ) على المدينة زيد بن حارثة ولما لم يدرك كرز رجع الرسول (ﷺ) ولم يحدث قتال[1].

سرية عبد الله بن جحش :

عاد الرسول (ﷺ) من غزوة بدر الأولى (الصغرى) فى نهاية جمادى الآخرة، وبعد أن عاد وفى أول رجب أرسل عبد الله بن جحش ومعه ثمانية أفراد من المهاجرين. هم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعكاشة بن محصن وعتبة بن غزوان وسعد بن أبى وقاص وعمار بن ربيعة وواقد بن عبد الله وخالد بن البكير وسهيل بن بيضاء. وكان عبد الله بن جحش أميراً عليهم.

قال ابن إسحاق: وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه (إذا نظرت فى كتابى فأمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فلما نظر فى الكتاب قال: سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما فى الكتاب وقال نهانى رسول الله (ﷺ) أن أستكره أحداً منكم.

فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله (ﷺ)[2].

(١) نقل بتصرف من السيره النبوية لابن كثير ٢/ ٣٦٤.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٦٦.

فمضوا معه جميعاً خلا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان اللذين ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضل فأسرتهما قريش، وسار عبد الله بن جحش ومن معه حتى نزلوا نخلة، وهناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة لها وكان على هذه القافلة عمرو بن الحضرمى وكان يومئذ آخر شهر رجب وذكر عبد الله ابن جحش ومن معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم وتشاوروا وقال بعضهم لبعض : «والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام وترددوا وهابوا الاقدام ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله واستأسرا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وفر نوفل بن عبد الله فلم يدرك.

وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينة على رسول الله (ﷺ) وحجز عبدالله بن جحش لرسول الله (ﷺ) فى الغنيمة وذلك قبل أن يشرع.

فلما رآهم الرسول (ﷺ) قال لهم: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً وأسقط عبد الله بن جحش وإخوانه فى أيدى القوم وقالوا هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا. وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية ونادت فى كل مكان: إن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا الدم فيه فرد المسلمون الذين كانوا بمكة وقالوا إنما كان ذلك فى شعبان وأرادت اليهود اشعال الفتنة فلما كثر الكلام أنزل الله على رسوله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ

اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[1] وعندما نزلت هذه الآيه سرت عن المسلمين لانها بينت لهم أن إخراج المسلمين من البيتٌ الحرام وصدهم عن دين الله أكبر عند الله من القتل فى الشهر الحرام وكونهم يفتنون الإنسان عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمان فهذا أيضاً أكبر من القتل.

ففرح المسلمون بهذه الآية وقبل النبى (ﷺ) العيروالأسيرين فافتدتهما منه قريش فقال: لا نفد يكموهما حتى يقدم صاحبانا يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان فانا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم.

وقدم سعد وعتبة وأفداهما النبى من الأسيرين فأما أحدهما الحكم بن كيسان فأسلم واقام بالمدينة واستشهد يوم بئر معونة وأما الآخر فرجع إلى مكة وظل بها حتى مات كافراً[2].

ولما أطمئن عبد الله بن جحش قال يا رسول الله هل لنا من غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين فأنزل الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

وهذه السرية كانت سبباً لغزوة بدر الكبرى لانها نقلت أخبار مكة وقافلتها التجارية إلى رسول الله (ﷺ) وأيضاً بينت وأوضحت أن الذى فعله المشركون فى المسلمين من نهب وصد عن سبيل الله وفتنهم عن دينهم واخراجهم من

---

(١) سور البقرة الآية/ ٢١٧.

(٢) راجع حياة محمد ، محمد حسين هيكل صـ ٢٦١ ,ما بعدها.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٨.

ديارهم كان هذا أكبر من قتل المسلمين لهم واستردادهم لأموالهم التى اغتصبوها منهم علوة مما جعل الرسول (ﷺ) بعد ما نزل من القرآن فى شأن سرية عبد الله بن جحش يفكر فى رد أموال المسلمين مما كان سبباً لغزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر الكبرى

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) كانت غزوة بدر الكبرى فى السابع عشر من شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة وكان يوم جمعة والسبب فى هذه الغزوة أن الرسول (ﷺ) علم من سرية عبد الله بن جحش بأن أباسفيان بن حرب قادم بتجارته من الشام إلى مكة وهذه التجارة يحملها ألف بعير فيها أموال قريش بجمعها الا حويطب بن عبد العزى فلم يكن له مال فى هذه القافلة فلذلك تخلف عن غزوة بدر فقال رسول الله لأصحابه: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها.

ومن المعروف أن المهاجرين عندما هاجروا من مكة إلى المدينة تركوا أموالهم وديارهم وأملاكهم استولت عليها قريش فكان الغرض من التعرض لتجارة قريش ليس قطعاً لطريق ولا استباحة أموال الناس ولكن الغرض هو استرداد بعض أموال المسلمين التى أخذت منهم عنوة، وعندما حث الرسول (ﷺ) أصحابه خف بعضهم وثقل بعضهم وذلك لأنهم كانوا لايعتقدون أن الرسول (ﷺ) سيلقى حرباً.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٣.

وكان أبو سفيان وهو أمير القافلة حين دنا من الحجاز كان يتحسس الأخبار فوصله من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فاتخذ حذره عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة وأمره يستنفر قريشاً ويخبرهم أن محمداً قد عرض لأموالهم وتجارتهم هو وأصحابه فخرج ضمضم بن عمرو مسرعاً إلى مكة وسلك أبو سفيان طريقاً آخر غير الطريق المعتاده له وهو طريق الساحل ونجا بتجارة قريش، وقبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليالى رأت السيدة عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفظعتها قال ابن إسحاق وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفظعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب وقالت له يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى [1] وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم عنى ما أحدثك به قال لها.

وما رأيت قالت رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث فأرى الناس اجتمعوا الناس ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به[2] بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس[3] فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل أرفضت[4] فما بقى بيت من بيوت مكة ولادار إلا دخلتها منها فلقة، قال العباس إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

---

(١) أفظعتنى: اشتدت على.

٢) مثل به: أى قام منتصبا.

(٣) أبى قبيس: جبل بمكة قريب من الصفا.

(٤) أرفضت: أى تفتت.

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقاً فذكرها له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشى حديثه بمكة حتى تحدثت بها قريش فى أنديتها.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤ يا عاتكة فلما رآنى أبو جهل قال ياأبا الفضل إذا فرغت من طوافك فاقبل إلينا فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم فقال لى أبوجهل يا بنى عبد المطلب: متى حدثت فيكم هذه النبية؟

قال: قلت وما ذلك قال تلك الرؤيا التى رأت عاتكة. قال: فقلت وما رأت؟ قال: يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن ينبأ رجالكم حتى تتنبأ نساءكم قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقاً ما تقول فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت فى العرب. قال العباس فوالله ما كان منى إليه كبير إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً. قال ثم تفرقنا. قال العباس فلما أمسيت لم تبق أمرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غير[1] لشئ مما سمعت. قال: قلت قد الله ما فعلت ما كان منى من كبير وأيم الله لا تعرض له فإن عاد لأكفيكنه قال فغدوت من اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أنى قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه. قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر. قال إذ خرج نحو باب المسجد يشتد. قال: فقلت فى نفسى ماله لعنة الله أكل هذا فرق منى أن أشاتمه.

---

(١) غير: أى حمية وأنفة.

قال: وإذا هو قد سمع مالم أكن أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفاً على بعيره وقد جدع[1] بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة[2] أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث فشغلنى عنه وشغله عنى ما جاء من الأمر[3].

وعندما نادى ضمضم فى قريش وحمسهم على الخروج بهيئته التى قصد منها استنفارهم على الخروج مسرعين، وكانت قريش كلها قد استعدت للخروج ومن لم يخرج أرسل مكانه واحداً يخرج نيابة عنه كما فعل أبو لهب بن عبد المطلب فقد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة الذى كان مديناً له بأربعة آلاف درهم فاستأجره ليخرج عنه بهذا الدين الذى عليه. وكان كفار قريش يحثون النّاس على الخروج.

قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى نُجيح أن أُمية بن خلف كان أجمع القعود وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً فأتاه عقبة بن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه بمجمرة[4] يحملها فيها نار ومجمر حتى وضعها بين يديه ثم قال يا أبا على استجمر فإنما أنت من النساء. قال قبحك الله وقبح ما جئت به قال ثم تجهز ثم خرج مع الناس.

---

(١) جدع بعيره: الجدع هو القطع البائن فى الأنف والاذن والشفة.

(٢) اللطيمة هو الأبل التى تحمل الطيب والتجارة.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٠.

(٤) المجمرة: أى المبخرة التى يوضع فيها البخور ويتبخر به.

وكانت قريش بينها وبين بنى بكر بن عبد مناف بن كنانة حرباً فخافت قريش أن تخرج لتحارب فتأتيها كنانة من خلفها فتنتصر عليها فترددوا فى الخروج لهذا السبب ولكن إبليس اللعين أغراهم بالخروج.

قال ابن اسحاق: حدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير ذكر الذى كان بينها وبين بنى بكر فكاد ذلك يثنيهم فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكان من أشراف بنى كنانة فقال لهم: أنا جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم وشئ تكرهونه فخرجوا سراعاً[(١)].

خروج الرسول (ﷺ) وأصحابه إلى بدر[(٢)]:

وخرج الرسول (ﷺ) وأصحابه وكان عددهم يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان خروجه لليال مضين من شهر رمضان قيل: خرج يوم ثمانية رمضان وقيل اثنى عشر واستعمل الرسول (ﷺ) عمرو بن أم مكتوم على المدينة ليصلى بالناس ثم بعد أن سار فى الطريق ووصل إلى الروحاء رد أبو لبابة واستعمله على المدينة.

ودفع الرسول (ﷺ) لواءه يوم هذه الغزوة إلى مصعب بن عمير وكان اللواء أبيضا، وكانت هناك رايتان سوداوان أمام الرسول إحداهما مع على بن أبى طالب من المهاجرين والأخرى كانت مع سعد بن معاذ من الأنصار.

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ٣٧٣/١.

(٢) بدر هو مكان به بئر سمى به ويقع فى الطريق ما بين مكة والمدينة يبعد عن المدينة بحوالى ١٦٠ كم.

عدد إبل المسلمين يوم بدر:-

قال ابن إسحاق: وكانت إبل أصحاب رسول الله (ﷺ) يومئذ سبعين بعيراً فاعتقبوها فكان رسول الله (ﷺ) وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يتعقبون بعيراً، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشه وأنسة مولى رسول الله يتعقبون بعيراً، وكان أبو بكر وعمرو عبد الرحمن بن عوف يتعقبون بعيراً[1].

وسلك رسول الله (ﷺ) طريقه من المدينة إلى بدر فسار على نقب المدينة ثم على العقيق ثم على ذى الحليفة ثم على ذات الجيش ثم نزل على سجسج وهى بئر الروحاء ثم ارتحل منها وترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً.

وأثناء سير الرسول (ﷺ) جاءه الخبر بأن قريشاً قد خرجوا فى جيش كبير ليمنعوا عيرهم والرسول (ﷺ) كان عندما خرج من المدينة خرج ليعترض العير لا ليحارب قريشا فعندما تغير الأمر فاستشار الناس وأخبرهم بأن قريشاً قد جاءت للقائهم فقام سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه- فقال وأحسن ثم قام سيدنا عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إناهاهنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاً تلون والذى بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد[2]

---

(١) مختصرة سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٤.

(٢) هو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن وقيل هو فى قص اليمن وقيل هى أقاصى هجر

لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله خيرا ودعا له ثم قال رسول الله أشيروا على أيها الناس إنما يريد الأنصار وذلك لأنهم كانوا أكثر عدداً وأيضاً لانهم عندما بايعوه بالعقبة بايعوه على أن يمنعوه مما يمنع منه أبناء هم ونساءهم فكان رسول الله يتخوف الا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلامن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟ قال: أجل قال: فقد آمنابك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لوا ستعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معاك ما تخلف منا رجل واحد ومانكره أن تلقى بنا عدرنا غداً إنا لصبرفى الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ماتقربه عينك فسر على بركة الله: قال: فسر رسول الله (ﷺ) بقول سعد ونشطه ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الأن أنظر إلى مصارع القوم [١].

وعندما نزل الرسول وأصحابه قريباً من بدر خرج هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه يتحسس أخبار قريش قال ابن اسحاق: كما حدثنى محمد ابن يحيى بن حيان حتى وقف على شيخ [٢] من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فقال الشيخ لا أخبر كما حتى تخبرانى مم أنتما فقال رسول الله إذا أخبرتنا أخبرناك قال أذاك بذاك؟ قال نعم قال الشيخ فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذى أخبرنى

---

(١) السيرة النبويه لابن كثير ٢/ ٣٩٣.

(٢) قيل أن هذا الشيخ اسمه سفيان الضمرى.

فهم اليوم بمكان كـذا وكـذا للمكان الذى به رسول الله (ﷺ) وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كـذا وكـذا فـإن كان الذى أخبرنـى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى فيه قريش فلما فرغ من خبره قال ممن أنتما؟ فقال رسول الله (ﷺ) نـحن من ماء ثم انصرف عنه. قال: يقول الشيخ ما من مـاء أم مـن مـاء العراق[1] ؟

وفى هذا ما يدل على مدى فطنة رسول الله (ﷺ) فهو لم يرد أن يخبر الرجل بمن هو لأن الحرب خدعة وأيضاً لم يرد أن يكذب عليه فقال نحن من ماء يقصد بذلك ماء الرجل كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾[3].

قال ابن اسحاق: ثم رجع رسول الله إلى أصحابه فلما أمسى بعث على ابن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه كما حدثنى يزيد بن رومان - عن عروة بن الزبير - فأصابوا راوية[4] لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد. فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله قائم يصلى فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان فضربوها فلما أذلقوهما[5] قالا: نحن لأبى سفيان فتركوها

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٤.

(٢)سورة السجدة الآية ٧، ٨.

(٣) سورة المرسلات الآية ٢٠.

(٤) الراوية: الإبل التى يستقى عليها الماء.

(٥) أذلقوهما: بالغوا فى ضربها. ومعى الاذلاق أن يبلغ منه الجهد حتى يقلق.

وركع رسول الله وسجد سجدتيه ثم سلم وقال إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقاً والله إنهما لقريش أخبراني عن قريش؟ قالا هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكثيب: العقنقل - فقال لهما رسول الله: كم القوم ؟ قالا: كثير: قال ما عددهم ؟ قالا لا ندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً فقال رسول الله: القوم فيما بين التسع مائة والألف. ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدودّ فأقبل رسول الله على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ[1] كبدها[2].

وهذا الموقف هو الآخر يدل على مدى ذكاء الرسول (ﷺ) وفطنته حيث تعرف على عدد المشركين يوم بدر رغم عدم معرفة من كانوا معهم بعددهم فعندما سأل الغلام[illegible]م القوم قالا: لا ندري. قال كم ينحرون؟ كل يوم فقالا: يوما تسعا ويوما عشرا ومن المعروف أن العرب كانت تذبح الجمل لإطعام مائة رجل. فعندما ذكرا له عدد ما يذبحون عرف الرسول (ﷺ) أن القوم ما بين التسع مائه والألف.

---

(١) أراد صميم قريش وأشرافها ولبابها كما يقال: فلان قلب عشيرة لأن الكبد أشرف الاعضاء.

(٢) مختصر سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٨.

إصرار قريش وتعنتها خاصة أبوجهل :-

كان أبو سفيان قد نجا بعيره وبتجارة قريش فأرسل إلى قريش يخبرهم أن تجارتهم قد نجت فليرجعوا ولكن أبا جهل عليه لعنة الله أبى أن يرجع وأخذه الغرور، قال ابن اسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز بعيره أرسل إلى قريش انكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل بن هشام والله لا نرجع حتى نرد بدراً وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع به لهم سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزق علينا القيان وتسمع بنا العرب بمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها(١) .

وسارت قريش حتى إذا وصلت الجحفة رجعت بنو زهرة وطالب بن أبى طالب إلى مكة أما عن رجوع طالب أن بعض قريش قال له والله لقد عرفنا يابنى هاشم وإن خرجتم معنا أن هواكم لمع محمد فرجع طالب بن أبى طالب بعد هذه المقولة وكان الأخنس بن شريح بن عمرو الثقفى حليفاً لبنى زهرة فقال يابنى زهرة قد نجا الله لكم أموالكم وإنما نفرتم لتمنعوها فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غيرمنطعة لاما يقول أبو جهل فرجع بنو زهرة مع الأخنس ابن شريح.

وقال فى ذلك طالب بن أبى طالب عندما رجع مع بنى زهرة:

لاهم إما يغزون طالب .. فى عصبة محالف محارب

فى مقنب من هذه المقانب .. فليكن المسلوب غير السالب

وليكن المطلوب غير الطالب

---

(١) المرجع السابق.

رؤيا جهيم بن السلط فى مصارع قريش :-

لما نزلت قريش بالجحفة رأى جهيم بن السلط بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف **رؤيا فقال**: إنى رأيت فيما يرى النائم وإنى لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ثم قال: قتل عتبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وفلان وفلان. فعدد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش ثم رأيته ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى العسكر فما بقى أخبية من أخبية العسكر الا أصابه نضح من دمه.

قال: فبلغت أباجهل فقال وهذا أيضاً نبى آخر من بنى المطلب سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا[1] ؟

وهذه الرؤيا والرؤيا السابقة التى رأتها السيدة عاتكة بنت عبد المطلب كانتا نذير شؤم لقريش ولكن كفار قريش لم يتعظوا بل تزعمهم أبو جهل عليه لعنة الله وأخذ يتهكم على بنى عبد المطلب ويكذب بنبوة سيدنا رسول الله (ﷺ) ويدفع الناس دفعاً إلى الإقدام والقتال وألا يعتبروا برؤيا عاتكة وجهيم.

وصول الرسول ومن معه من المسلمين إلى بدر :-

نزل الرسول بالعدوة الدنيا من بدر ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادى وكان الوادى دهسا[2] وأرسل الله مطراً من السماء جعل الأرض تحت الكفار تسيخ فيها الأقدام لايستطيعون فيها السير وهذا المطر لبد الأرض تحت أقدام الرسول والصحابة فخرج رسول الله وأصحابه إلى ماء بدر فنزل بجواره .

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ١/٣٧٩.

(٢) الدهس: الأرض السهلة التى يسهل فيها المشى.

قال تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾(١).

فهذه الآية تبين أن المسلمين كانوا بالعدوة الدنيا والكفار كانوا بالعدوة القصوى وأبو سفيان وتجارة قريش كانتا أسفل منهم أى من ناحية الساحل وبعث الله المطر ليطهر المسلمين ويثبت أقدامهم خاصة أن بعضهم قد أصابه الخوف وبعضهم قد وسوس له الشيطان وخوفهم.

وبعضهم كان قد نام فاحتلم فأراد الله أن يطهرهم ظاهراً و باطنا وأن يثبت أقدامهم ويشجع قلوبهم ويذهب عنهم وسوسة الشيطان. وقال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾(٢).

وهذا الماء الذى نزل من السماء كان جنداً من جنود الله وعوناً للمسلمين على أعدائهم فقد ثبت الأرض تحت المسلمين وفى نفس الوقت جعل الأرض تحت المشركين زلقاء تسوخ فيها الأقدام مما لا يمكنهم من الوصول إلى ماء بدر قبل المسلمين وذلك لأنه كان من أسباب النصر فى هذه الغزوة أن الرسول (ﷺ) عسكر هو وأصحابه حول ماء بدر ومنع الكفار من أن يصلوا إليه. ومعروف أن للماء أهمية كبرى للجنود وأيضاً للدواب التى كانت معهم وأيضا للخيل التى كانت تمثل القوة فى الحروب فى ذلك الوقت.

---

(١) سورة الأنفال الآية/٤٢.

(٢) سورة الأنفال الآية /١٢.

الرسول (ﷺ) يأخذ بمشورة أصحابه:-

لما نزل الرسول (ﷺ) وأصحابه أدنى ماء بدر جاءه الحباب بن المنذر ابن الجموح وكان عليماً بالمكان فقال يارسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أم أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم الرأى والحربُ والمكيدة؟ فقال الرسول بل الرأى والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يارسول الله فإن هذا ليس المنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغورما وراءه من القلب[1] ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون وقد رأى الرسول (ﷺ) ما أشار به الحباب هو الصواب فنزل فى المكان الذى أشار به الحباب وذلك ليبين لنا أن الرأى شورى وأن المشورة الحسنة يؤخذ بها.

وأيضا أخذ الرسول (ﷺ) يوم بدر بمشورة سعد بن معاذ الذى أشار عليه ببناء عريش للرسول يجلس فيه ويدير منه المعركة.

فقال معاذ للرسول: يانبى الله نبنى لك عريشاً تكون فيه تعد عنده ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت ممن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ينا صحونك ويجاهدون معك فأثنى الرسول (ﷺ) على سعد ودعا له بخير وأمر ببناء العريش[2].

---

(١) جمع قليب وهو البئر.

(٢) راجع حياة محمد صـ ٢٧٤.

قريش ترسل من يستطلع أمر المسلمين فى بدر فيحثهم عن الرجوع إلى مكة :-

قال ابن إسحاق: لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا احزروا[1] لنا أصحاب محمد قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع اليهم فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أوينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر هل للقوم كمين أومدد، قال نضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع إليهم فقال ما وجدت شيئا ولكنى قد رأيت يامعشر قريش البلايا[2] تحمل المنايا نواضح[3] يثرب تحمل الموت الناقع[4] قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا [illegible]هم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصبوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم، فلما سمع حكيم بن حزام بذلك مشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة وقال له أنت كبير قريش وسيدها أرى أن ترجع بالناس فقال له عتبه اذهب إلى ابن الحنظلية[5] يقصد أبا جهل فلماء جاء إلى أبى جهل وقال له إن عتبة أرسلنى اليك بكذا انتفخ سحره وقال والله لا نرجع حتى يحكم الله بينا وبين محمد ولم يرض بالرجوع وحمس الناس على بدأ المعركة.

---

(١) الحذر: التقدير بالظن.

(٢) البلايا: جمع بلية وهى الناقه أو الدابة وكانت تربط عند قبر صاحبها ظناً أنه سيبعث عليها.

(٣) نواضح الأبل التى يستقى عليها الماء.

(٤) الناقع: أى الدائم.

(٥) الحنظليه أم أبى جهل واسمها أسماء بنت مخربة أحد بنى نهشل بن دارم ابن مالك بن حنظلة.

مواقف من صحابة رسول الله (ﷺ) لا تنسى:-

قال ابن اسحاق وحدثنى حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه: أن رسول الله عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفى يده قدح[١] يعدل به القوم فمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار- قال ابن هشام يقال سواد مثقلة وسواد فى الأنصار غيرهذا مخفف[٢] وهو مستنتل[٣] من الصف قال ابن هشام ويقال: مستنصل[٤] من الصف فطعن فى بطنه بالقدح وقال: استو ياسواد فقال: يارسول الله أو جعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل. قال فأقدنى[٥] فكشف رسول الله عن بطنه وقال: استقد قال فاعتنقه فقبل بطنه: فقال: ما حملك على هذا ياسواد؟ قال: يارسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك: فدعا له رسول الله بخير.

وعندما حرض رسول الله المسلمين على القتال. قال: ثم خرج رسول الله إلى الناس فحرضهم وقال: والذى نفس محمد بيده لا يقالهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن: بخ بخ[٦] أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وكان عمير بن الحجاج ينشد قبل موته.

ركضا إلى الله بغير زاد	إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد	وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى البر والرشاد

---

(١) القدح: السهم.

(٢) قال أبوذر: وبالتخفيف قيده الدارقطنى.

(٣) مستنتل: متقدم.

(٤) مستنصل: خارج.

(٥) أقدنى: أى اقتص لى من نفسك.

(٦) بخ: بكسر الباء كلمة تقال فى موضع الإعجاب

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث[1] وهو ابن عفراء قال: ياسول الله مايضحك الرب[2] من عبده ؟ قال غمسه يده في العدو حاسراً فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

أول من قتل من المسلمين فى هذه الغزوة وأول من قتل من الكفار :-

كان أول من قتل من المسلمين فى هذه الغزوة هو مهجع مولى عمر ابن الخطاب رمى بسهم فقتل وأيضا كان أول من قتل بعده حارثه بن سراقه احد بنى عدى بن النجار اصيب بسهم فى نحره وهو يشرب من الحوض وقد جاء فى الصحيحين أن أمه جاءت الى رسول الله (ﷺ) فقالت يارسول الله أخبرنى عن حارثه فإن كان فى الجنة صبرت وإلا فليرنى الله ما اصنع يعنى من النياح وكانت لم تحرم بعد فقال رسول الله (ﷺ) «ويحك أهبلت إنها جنان ثمان وإن إبنك أصاب الفردوس الأعلى»[3].

وكان أول من قتل من الكفار الاسود المخزومى وعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة والوليد بن عتبة أما عن الأسود قال ابن إسحاق وقد خرج الأسود ابن عبد الأسد المخزومى وكان رجلا شرسا سيئ الخلق فقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه فلما خرج خرج اليه حمزة بن عبد المطلب فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه وهودون الحوض فوقع على

---

(١) وقد قيل فى عوف عوذ بالذال المنقوطة ويقوى هذا القول أن أخويه معاذ ومعوذ.

(٢) يضحك الرب: أى يرضيه غاية الرضا.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٤١٥/٢.

ظهره تشخب رجله دما نحو اصحابه ثم حبا الى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض.

وأما عن عتبة بن ربيعة فقد خرج عتبه بن ربيعة من صفوف الأعداء ومعه أخيه شيبه بن ربيعة وإبنه الوليد بن عتبة ودعا الى المبارزة وهى كانت عادة فى المعارك قديما قبل بدأ المعركه فخرج إليه فتية من الأنصار هم عوف ومعوذ إبنا الحارث وعبد الله بن رواحه فقالوا من أنتم فقالوا رهط من الأنصار قالوا ما لنا بكم حاجة ثم نادى مناديهم يامحمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله (ﷺ) قم يا عبيدة بن الحارث وقم يا حمزة وقم يا على فلما قاموا دنوا منهم قالوا من أنتم قال عبيدة: عبيده وقال حمزة : حمزة وقال على :على قالوا: نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة وبارز حمزة شيبة بن ربيعة وبارز على الوليد بن عتبة. فأما حمزه فلم يمهل شبيه فقتله واما علىّ فلم يمهل الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة كلاهما أثبت صاحبه ونال منه فكرّ حمزة وعلى بأسيافهما على عتبه وقتلاه واحتمل عبيدة الى أصحابه. وهنا كبر المسلمون بقتل صناديد الشرك وكانت هذه بشارة النصر للمسلمين.

الرسول (ﷺ) يأمر اصحابه بعدم قتل من استكرهوا على الخروج إلــى بدر :-

قال ابن إسحاق: حدثنى العباس بن عبدالله بن معبد عن بعض أهله أن النبى (ﷺ) قال لاصحابه يومئذ: إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم

فلا يقتله ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (ﷺ) فلا يقتله فقال أبو حذيفة فإن أنا لقيته لأحملنه السيف. قال ابن هشام: ويقال لألجمنه السيف قال: فبلغت رسول الله فقال لعمر بن الخطاب يا أبا حفص قال عمر والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله (ﷺ) بأبى حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله (ﷺ) دعنى فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا الا أن تكفرها عنى الشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً.

وقال ابن إسحاق: وإنما نهى الرسول عن قتل أبى البخترى (واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد) لانه كان أكف القوم عن الرسول بمكة وكان لا يؤذيه وكان ممن كان من نقض الصحيفه التى كتبتها قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب واثناء المعركة لقيه المجذر بن زياد البلوى حليف الأنصار..

فأراد ان يأسره وأبى أن يقاتله ولكنه قاتله فقتله المجذر قال ابن إسحاق: ثم إن المجذر أتى رسول الله (ﷺ) فقال والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه ان يستأثر ان يأتيك به فأبى ان يقاتلنى فقاتلنى فقتله[1].

---

(١) نقل بتصرف السيرة النبوية لابن هشام ٣٩/٣.

الرسول (ﷺ) يناشد ربه بالنصر للمسلمين ويرمى المشركين بالحصواء

قال ابن إسحاق: ثم عدل رسول الله (ﷺ) الصفوف ورجع الى العريش فدخله ومعه ابو بكر الصديق ليس فيه معه غيره ورسول الله (ﷺ) يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول «اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبده. وأبو بكر يقول يا نبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجزلك ما وعدك، وقد خفق رسول الله (ﷺ) خفقة[1] وهو فى العريش ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر آتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع[2]، وقال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله (ﷺ) أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال: شاهت الوجوه ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال: شدوا فكانت الهزيمة لقريش[3].

(١) خفق اى نام نوماً يسيراً

(٢) النقع أى الغبار.

(٣) نقل بتصرف من مختصرسيرة ابن هشام ٣٨٧/١ وما بعدها

بداية المعركة

وقعت معركة بدر صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية للهجرة.

وكان الرسول (ﷺ) بعد أن صلى الفجر بأصحابه حرضهم على القتال وأمرهم بعدم البدء فى القتال قال ابن إسحاق: ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض وقد أمر رسول الله (ﷺ) أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم[(١)] عنكم بالنَبل ورسول الله فى العريش معه أبو بكر الصديق وكان أبو جهل عليه لعنة الله هو الذى بدأ المعركة يوم بدر.

قال ابن إسحاق:- أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قال أبو جهل بن هشام: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه[(٢)] الغداة فكان هو المستفتح[(٣)].

وكان عدد المشركين يوم بدر ما يقرب من الألف ومعهم من الجمال مالا يعد ومائتان فرس وستمائة درع قال ابن اسحاق: خرجت قريش على الصعب والذلول فى تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائتا فرس يقودونها ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين أما المسلمون فكان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان معهم سبعون بعيراً كل ثلاثة أو أربعة يتعقبون بعيراً وكان مع المسلمين ستون درعاً وفرسان.

---

(١) النضح: الرمى بالنبل.

(٢) أحنه: أهلكه والمراحنه أى المعاداه.

(٣) المستفتح: الحاكم على نفسه بهذا الدعاء.

روى البيهقى بسنده عن ابن عباس أن علياً قال له: ما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود. وكان فرس المقداد يسمى بعزجة ويقال سبحة وفرس الزبير يقال لها اليعسوب .

وقال الأموى: حدثنا أبى حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن التيمى قال: كان مع رسول الله (ﷺ) يوم بدر فارسان الزبير بن العوام على الميمنة والمقداد بن الاسود على الميسرة[1] وقال البعض أن عدد المسلمين الذين خرجوا مع الرسول (ﷺ) يوم بدر ثلاثمائة وخمسة رجال منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس ومائة وواحد وستون من الخزرج.

وروى عن ابن كثير أن الرسول (ﷺ) قد بات تلك الليلة (ليلة بدر) يصلى إلى جذع شجرة هناك ويكثر فى سجوده أن يقول: (يا حى يا قيوم) يكرر ذلك ويلفظ به عليه السلام[2].

وكان شعار المسلمين يوم بدر أحد أحد وهذه الكلمه زلزلت الاعداء وألقت الرعب فى قلوب الكفار وكانت كلمة أحد أحد وقول الرسول (ﷺ) (يا حى يا قيوم) وسجوده طويلاً استدعاًء لملائكة السماء لتكون عوناً للمسلمين وبدأت المعركة وبدأ الرسول (ﷺ) يجتهد فى الدعاء ويجتهد فى تحريض أصحابه على القتال قال تعالى: ﴿ **يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال .... الخ** ﴾.

وبدأ نصر الله للمسلمين وبدأت الملائكة تنزل وبدأت رؤس الشرك تقطع ويقتل الكفار واحداً تلو الآخر.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٨٨.

(٢) المصدر السابق.

قتال الملائكة مع المسلمين يوم بدر :-

فى هذا اليوم نزلت الملائكة من السماء تقاتل مع المسلمين وذلك استجابة لاستغاثة سيدنا رسول الله (ﷺ) عندما نظر إلى أصحابه فوجدهم بضع وثلاثمائة ووجد الكفار ما يقرب من الف ومعهم الخيل والدروع وهذه هى الاسلحة فى ذلك الوقت فاجتهد فى الدعاء والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى فنزلت الملائكة استجابة لدعائه (ﷺ) قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] وقد فهم بعض العلماء من الآية أن الملائكة نزلت للبشرى وللطمائنينة فقط ولم تقاتل مع المسلمين وذلك لأن الملك الواحد كان يستطيع أن يقاتل المشركين وحده أما الآيه والآيات التى جاءت فى سورة آل عمران تبين أن الملائكة زادت ونزل ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف.

فكل هذا العدد كان قادراً على إبادة الكفار ولكن ظاهر نص الآية والأحاديث الوارده يبين أن الملائكة قاتلت فى هذا اليوم مع المسلمين وذلك لعدة أسباب أهمها أن هذه أول حرب يخوضها المسلمون فلو لم ينتصروا لكانت الطامة الكبرى على الإسلام أما فى حالة النصر فسيكون تثبيتاً لأركان الدولة الإسلامية وجعلها دولة لها هيبة وكرامه يهابها كل من يتعامل معها.

وأيضاً يشعر المسلمون بقوتهم وأنهم أصبحوا قوة عظمى فتزداد ثقتهم فى أنفسهم فلا يهابوا حرباً بعد ذلك والسبب الثالث فى أن الملائكة لم تبد الكافرين

---

(١) سورة الأنفال الآية/ ٩، ١٠.

وذلك لأن الله سبحانه وتعالى كان عالماً بأنه سيخرج من أصلاب هؤلاء الكفار من يوحده وينصر دينه فلذلك لم يستأصلهم ولهذا ذهب فريق من العلماء إلى أن الملائكة نزلت يوم بدر وقاتلت المشركين مع المسلمين وذلك يتضح من الأحاديث الدالة على ذلك وأيضاً من فعل بعض أهل مكة فهذا أمية بن خلف ينادى على عبد الرحمن بن عوف أن يأسره هو وابنه ويستسلم لهما وأيضاً العباس بن عبد المطلب عندما جاء إلى رسول الله (ﷺ) وقد أسره رجل من الأنصار.

قال: يا رسول الله إن هذا ما أسّرنى لقد أسرنى رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه فى القوم فقال الانصارى: (أنا أسرته) فقال: (اسكت فقد ايدك الله بملك كريم)(١).

شهود الملائكة وقعة بدر:

قال ابن إسحاق:- وحدثنى عبد الله بن أبى بكر أنه حدّث عن ابن عباس قال: حدثنى رجل من بنى غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة(٢) فننتهب مع من ينتهب قال: فبينا نحن فى الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل فسمعت قائلاً يقول أقدم حيزوم(٣). فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت.

---

(١) السيره النبوية لابن كثير ٢/٤٢٤ وما بعدها.

(٢) الدبره: الدائرة والدبره بالإسكان والتحريك الهزيمة فى القتال (لسان العرب ص٢٦٩ جـ٤).

(٣) قال أبو ذار: قال ابن سراج: أقدم كلمة تزجر بها الخيل - وحيزوم إسم فرس جبريل عليه السلام ويقال: فيه جيزون.

قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى بكر عن بعض بنى ساعدة عن أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدراً قال بعد أن ذهب بصره لو كنت اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة لا أشك فيه ولا أتمارى.

قال ابن إسحاق وحدثنى أبى إسحاق بن يسار عن رجال من بنى مازن ابن النجار عن أبى داود المازنى وكان شهد بدراً قال إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه إذا وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى فعرفت أنه قد قتله غيرى [١]

قال ابن إسحاق وحدثنى من لا أتهم عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن عباس قال كانت سيما الملائكة يوم بدرعمائم بيضاء قد أرسلوها على ظهورهم ويوم حنين عمائم حمراء

قال ابن هشام وحدثنى بعض أهل العلم أن على بن أبى طالب قال العمائم : تيجان العرب وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد أرخوها على ظهورهم إلاجبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء.

قال ابن إسحاق وحدثنى من لا أتهم عن مقسم عن ابن عباس ، قال ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى بدر [٢] من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه من الايام عدداً ومدداً لايضربون. [٣]

---

(١) تدل هذه الرواية على أن الملائكة قاتلوا يوم بدر مع المسلمين

(٢) هذا يرد على من يزعم أن الملائكة لم تقاتل فى بدر

(٣) مختصر سيرة ابن هشام١/٣٩٢

مواقف فى غزوة بدر تعد معجزات لسيدنا رسول الله - (ﷺ) -:

حدثت فى غزوة بدر كثير من المعجزاته ، منها أن عكاشة بن محصن انكسر سيفه، وأعطاه الرسول- (ﷺ)- عوداً من حطب انقلب سيفا قاتل به إلى أن استشهد فى إحدى المعارك.

ومنها أن قتادة قلعت عينه يوم بدر فردها رسول الله - (ﷺ)- بيده فكانت أحسن عينيه.

ومنها أن عين رافع بن مالك فقئت بسهم ، فتفل فيها رسول الله فعادت سليمة .

وإليه تفصيل هذه الوقائع :

قال ابن إسحاق : وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدى حليف بنى عبد شمس يوم بدر بسيفه حتى انقطع فى يده ، فأتى رسول الله - (ﷺ)- فأعطاه جذلا من حطب فقال : «قاتل بهذا ياعكاشة» .

فلما أخذه من رسول الله - (ﷺ)- هزه فعاد سيفا فى يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد بة المشاهد مع رسول الله (ﷺ) حتى قتله طليحة الأسدى أيام الردة ، وأنشد طليحة فى ذلك قصيدة منها قوله:

عشية غادرت ابن أقرم ثاويا . . . وعكاشة الغنمى عند مجال

وقد أسلم بعد ذلك طليحة، كما سيأتى بيانه.

قال ابن إسحاق : وعكاشة هو الذى قال حين بشر رسول الله - (ﷺ)- أمته بسبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب : ادع الله أن يجعلنى منهم، قال : «اللهم اجعله منهم»، وهذا الحديث مخرج فى الصحاح والحسان وغيرهما.

قال ابن إسحاق : وقال رسول الله (ﷺ)- فيما بلغني -: «منا خير فارس في العرب» ، قالوا ومن هو يارسول الله ؟ قال : «عكاشة بن محصن» ، فقال ضرار بن الأزور : ذلك رجل منا يا رسول الله ، قال ليس منكم ، ولكنه منا للحلف.

وقد روى البيهقى عن الحاكم من طريق محمد بن عمر الواقدى حدثنى عمر بن عثمان الخشنى عن أبيه عن عمته قالت : قال عكاشة بن محصن : انقطع سيفى يوم بدر فأعطانى رسول الله - (ﷺ)- عوداً ، فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين ، و[illegible] عنده حتى هلك.

وقال الواقدى : وحدثنى أسامة بن زيد عن داود بن الحصين عن رجال من بنى عبد الأشهل عدة قالوا : انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر فبقى أعزل لاسلاح معه، فأعطاه رسول الله - (ﷺ)- قضيبا كان فى يده من عراجين ابن طاب[1] ، فقال : اضرب به، فإذا سيف جيد ، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبى عبيدة.

رده عليه السلام - عين قتادة :

قال البيهقى فى الدلائل : أخبرنا أبو سعد المالينى ، أخبرنا أبو أحمد ابن عدى حدثنا أبو يعلى حدثنا يحى الحمانى، حدثنا عبد العزيز بن سليمان ابن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله- (ﷺ)- فقال : «لا»، فدعاه فغمز حدقته براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيب وفى رواية : فكانت أحسن عينيه.

---

(١) ابن طاب : ضرب من الرطب

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه لما أخبره بهذا الحديث عاصم بن عمر بن قتاده وأنشد مع ذلك :

أنا ابن الذي سالت علي الخدعينه .·. فردت بكف المصطفي أيما رد.

فقال عمر بن عبد العزيزرحمه الله عند ذلك منشداً قول أمية بن أبى الصلت فى سيف بن ذى يزن ، فأنشده عمر فى موضعة حقا:

تلك المكارم لا قعبان من لبن .·. شيبا بماء فعادا بعد أبو الا

وقال بعض العلماء أن ردعين قتادة كان فى غزوة أحد

- فصل فى قصة أخرى شبيهة بها:

قال البيهقى : أخبرنا أبو عبدالله الحافظ بسند، عن عبد العزيز بن عمران قال حدثنى رفاعة بن يحى عن معاذ بن رفاعة بن رافع عن أبية رافع بن مالك قال: لما كان يوم بدر تجمع الناس على أبى بن خلف فأقبلت إليه فنظرت إلى قطعة من درعة قد انقطعت من تحت إبطة ، قال : قطعته بالسيف منها طعنة ، ورميت بسهم يوم بدر ، ففقلت عينى ، فبصق فيها رسول الله - (ﷺ) - ردعا لى ، فما آذانى منها شئ [١].

مقتل أمية بن خلف :-

كان من ضمن الأسلحة التى أنعم الله بها على المسلمين فى يوم بدر سلاح الرعب الذى ألقاه الله فى قلوب المشركين فهذا أمية بن خلف أحد صناويد الشرك بمكة ينادى على عبد الرحمن بن عوف وكان صديقاً له بمكة قبل الإسلام لكن بعد الاسلام فلا صداقة ولامعرفة فكأن الابن يقتل أبيه الكافر والاب يقتل ابنه الكافر فحب الله والرسول والاسلام كان أقوى من رابطة الدم .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٤٤٦ - ٤٤٨.

يقول عبد الرحمن بن عوف مررت يوم بدر بأمية وهو واقف مع ابنه على بن أمية آخذ بيده قال ومعى أدراع لى قد استلبتها فأنا أحملها فلما رآنى قال يا عبد عمرو فلم أجبه فقال ياعبد الإله فقلت نعم قال : هل لك فىّ فأنا خير لك من هذه الادرع التى معك قال : قلت : نعم ها الله نا[1]

قال فطر حت الادرع من يدى وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول مارأيت كاليوم قط أما لكم حاجة فى اللبن [2] ثم خرجت أمشى بهما

وأثناء سيرهما قال أمية : ياعبد الإلة من الرجل ملكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟ قال قلت حمزة قال : ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى وكان أمية هو الذى يعذب بلالاً بمكة فكان يخرجه فى الصحراء فى شدة الحر وتحت لهيب الشمس المحرقة ويضجعه على ظهره ويضع الصخرة الضخمة على صدره ليفتنه عن دينه ولكن بلال كان يصر على قوله أحد أحد فلما رآه بلال قال : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا قال قلت أى بلال أسيرى قال لانجوت إن نجا ثم صرخ بأعلى صوته يا أنصار الله رأس الكفرأمية بن خلف لانجوت إن نجا. فأحا طوابنا حتى جعلونا فى مثل المسكة [3] وأنا أذب عنه قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة ماسمعتى مثلها قط قال : قلت : انج بنفسك ولا نجاء بك فو الله ما أغنى عنك شيئاً . قال

---

(١) ها الله ها حرف تنبة ولفظ الجلالة مجرور بحرف قسم مضمر قام التنبية مقامة

(٢) يريدأن من يأسره سيفتدى نفسة منة بأبل كثيرةاللبن

(٣) المسكة: السوار

فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما قال : فكان عبد الرحمن يقول : يرحم اللة بلالا فجعني بأدراعي وبأسيري [1]

مقتل ابى جهل لعنة اللة علية .

كان أبو جهل يتفاخر بنفسه يوم بدرٍ وكان يرتجز فيقول

ما تنقم الحرب العوان مني . . بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني امي

كان أبو جهل شديداً على المسلمين وكان يؤذى الرسول (ﷺ) وكان يناصبه العداء وعلم الانصار ذلك مما جعل شابين من الإنصار هما معاذ بن عمرو بن الجموع ومعوذ بن عفراء يلتمسانه وسألان عنة فيتعرفا عليه فيجهزان عليه ويقتلانه بضربة معاذ بن عمرو ويكمل علية معوذ بن عفراء ويأتيان إلى الرسول (ﷺ) ويقولان له قتلنا أبو جهل كل واحد منهما يريد أن يحظى بالشرف فيسألها الرسول (ﷺ) أين سيوفكما فيجدها بها آثار من دم أبى جهل فيقول لهما كلا كما قتله وقد جاء في الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف قال : إنى لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يمينى وشمالى فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة اسنانهما فتمنيت أن أكون بين أظلع [2] منهما فغمزني أحدهما فقال: ياعم أتعرف أبا جهل فقلت : نعم وما حاجتك إليه قال أخبرت أنه يسب رسول (ﷺ) والذى نفسي بيده لئن رأيته لايفارق سوادى

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٤٣٨

(٢) أظلع أضعف

سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك فغمزني الآخر فقال لي أيضا مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكم الذي تسألان عنه فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبي (ﷺ) فأخبراه فقال: (أيكما قتله) قال كل منهما: أنا قتلته قال: «هل مسحتما سيفيكما» قالا : لا قال : فنظر النبي (ﷺ) في السيفين فقال: (كلا كما قتله) وقضى بسلبة لمعاذ بن عمرو بن الجموح والآخر معاذ بن عفراء [(١)]

وقال الرسول (ﷺ) لأصحابه من ينظر ماذا صنع أبو جهل قال ابن مسعود أنا يارسول الله . فانطلق فوجده في رمقه الأخير فصع[illegible]ى صدره فقال له أبو جهل وهو يلفظ أنفاسه لقد ارتقيت مرتقاً صع[illegible]ا رويعي الغنم فأخذ ابن مسعود سيفه وكان رديئاً يجر رأسه فقال له أبو جهل سيفي أجود فاقطع به فقطع عبد الله بن مسعود رأسه وأراد أن يحملها إلى رسول (ﷺ) فلم يستطع لكبرها وضعف عبد الله بن مسعود فجاء بحبل وخرم اذنه وأدخل الحبل فيها وجر الرأس على الأرض وذهب إلى رسول (ﷺ) وسر الرسول (ﷺ) وقال له يا ابن مسعود (أذن بأذن والرأس زيادة) [(٢)] وذلك لأن الرسول وهو بمكة طلب من المسلمين من يسمع المشركين القرآن في الكعبة فقال عبد الله بن مسعود أنا يارسول الله وبدأ يقرأ القران في صحن الكعبة فجاء أبو جهل عليه لعنة الله ولطمه لطمة شديدة شجت أذن ابن مسعود فعوضه الله بأن قطع أذنه ورأسه معاً

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٤٢/٢

(٢) هذه الرواية سمعتها من شيخنا الشيخ ابراهيم مقلد وكان من علماء الأزهر الشريف عليه رحمات الله.

ذكر طرح رءوس الكفر فى بئر يوم بدر :

قال ابن إسحاق. وحدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة عن عائشة قالت : لما أمر رسول الله (ﷺ) بالقتلى أن يطرحوا فى القليب طرحوا فية إلاماكان من امية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فملأها فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة

فلما ألقاهم فى القليب وقف عليهم فقال :يا اهل القليب هل وجد تم وعدكم ربكم حقا فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقا قالت فقال لة أصحابه : يارسول الله أتكلم قوماً موتى ؟

فقال (لقد علموا أن ماوعدهم ربهم حق) قالت عائشة : والناس يقولون . لقد سمعوا ما قلت لهم . وإنما قال رسول (ﷺ) لقد علموا.

قال ابن إسحاق وحدثنى حميد الطويل عن أنس بن مالك ، قال سمع أصحاب النبى (ﷺ) رسول الله من جوف الليل وهو يقول يا أهل القليب ياعتبة بن ربيعة وياشيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام فعدد من كان منهم فى القليب ، هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقاً فقال المسلمون : يارسول الله أتنادى قوماً قد جيفوا

فقال لهم ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا تسيطيعون أن يجيبونى وقد رواه الامام أحمد عن ابن ابى عدى عن حميد عن أنس فذكر نحوه وهذا شرط الشيخين .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله (ﷺ) قال يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كدتم لنبيكم . كذبتمونى وصدقنى الناس واخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ماوعدنى ربى حقاً

قلت : هذا مما كانت عائشة رضى الله عنها تتأوله من الأحاديث كما قد جمع ما كانت تتأوله من الأحاديث فى جزء وتعتقد أنه معارض لبعض الآيات وهذا المقام مما كانت تعارض فيه قوله (وما أنت بمسمع من فى القبور) وليس هو بمعارض له والصواب قول الجمهور من الصحابة ومن بعدهم للاحاديث الدالة نصاً على خلاف ماذهبت إليه رضى الله عنها وأرضاها [1].

قتلا بدر من الكفار:-

قتل من الكفار فى هذا اليوم سبعون رجلاً كانوا سادة قريش وقوتها وأسر المسلمون سبعين أيضاً مما جعل راية نصر المسلمين ت[illegible] عالية لينتصر اللـه لهم.

وقد أسر من المشركين فى هذه الليلة سبعون رجلاً كان منهم العباس بن عبد المطلب وعقيلا ونوفل بن الحارث وأبو العاص بن الربيع زوج زينب الكبرى ابنة الرسول (ﷺ) والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط.

وهذان الآخران قتلهم على بن أبى طالب وهم فى طريقهم إلى المدينة وذلك لعداوتهم الشديدة للمسلمين وإيذائهم للرسول (ﷺ) قال ابن إسحاق حتى إذا كان رسول الله (ﷺ) بالصفراء قتل النضر بن الحارث قتله على بن أبى طالب كما أخبرنى بعض أهل العلم من أهل مكة ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبى معيط.

---

(١) السيره النبوية لابن كثير ٢/ ٤٥٠

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبى قال لمّا أمر النبى (ﷺ) بقتل عقبه قال أتقتلنى يامحمد من بين قريش ؟ قال نعم أتدرون ما صنع هذا بى جاء وانا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندران وجاء مرة أخرى سلاشاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى (١) .

شهداء المسلمين يوم بدر :-

وقد استشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين هم :- عبيدة بن الحارث بن المطلب وعمير بن أبى وقاص أخو سعد ابن أبى وقاص

وذو الشمالين بن عبد عمرو الخزاعى وصفوان بن بيضاء وعاقل بن البكير الليثى ومهجع مولى عمر بن الخطاب واستشهد ثمانية من الانصار هم :-

حارثة بن سراقة ومعوذ وعوف ابنا عفراء ويزيد بن الحارث وعمير بن الحمام ورافع بن المعلى بن لوذان وسعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر (٢)

وقد اختلف الصحابة في الأساري : ايقتلون أو يفادون علي قولين.

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبيدة عن عبدالله . قال لما كان يوم بدر قال رسول الله (ﷺ) ماتقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ قال فقال أبو بكر يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم قال : وقال عمر يارسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فأضرب أعناقهم. قال : وقال عبد الله بن رواحة : يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فادخلهم فيه ثم أضرمة عليهم ناراً .

---

(١) راجع السيره النبوية لابن كثير ٢/٤٧٣

(٢) المرجع السابق ٢/ ٥١٠

قال : فدخل رسول الله (ﷺ) ولم يرد عليهم شيئا . فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال ناس يأخذ بقول عبدالله بن رواحة فخرج عليهم فقال : (إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجاره ، وإن مثلك ياأبا بكر كمثل إبراهيم قال : (فمن تبعنى فإنه ملى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) ومثلك ياأبا بكر كمثل عيس قال : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفرلهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وإن مثلك ياعمر كمثل نوح قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وإن مثلك ياعمر كمثل موسى قال (... طمسى على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا " ... ب الاليم) أنتم عاله فلا يبقين أحد الإ بفداء أو ضربة عنق . قال عبدالله : فقلت يارسول الإسهيل بن بيضاء فإنى قدْ سمعتة يذكر الاسلام قال : فسكت.،

قال : فما رأيتنى فى يوم أخوف أن تقع على مجاره من السماء من ذلك اليوم حتى قال (الإ سهيل بن بيضاء) .

قال : فانزل الله: ﴿ ما كان لنبي أن يكون لة أسري حتي يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم ﴾ الى أخر الآيتين.

وهكذا رواه الترمزى والحاكم من حديث أبى معاوية وقال الحاكم :- صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن مردوية من طريق عبد الله بن عمر وأبى هريرة بنحو ذلك وقد روى عن أبى أيوب الأنصارى بنحوه

وقد روى ابن مردوية والحاكم فى المستدرك من حديث عبيد الله بن موسى . حدثنا إسرائيل عن ابراهيم بن مهاجر، عن مجاهد عن ابن عمر قال

لما أسر الاسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسرة رجل من الأنصار . قال . وقد أوعدته الانصار أن يقتلوه فبلغ ذلك النبى (ﷺ) فقال (إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه)، قال عمر آفآتيهم؟ قال نعم فأتى عمر الأنصار، فقال لهم أرسلوا العباس فقالوا لاوالله لا نرسلة : فقال لهم عمر : فإن كان رسول الله رضا ؟ قالوا فان كان له رضاً فخذه فأخذه عمر، فلما صار فى يده قال له عمر : ياعباس أسلم ، فوالله لئن تسلم أحب الى من أن يسلم الخطاب وما ذاك الا لما رأيت رسول الله (ﷺ) يعجبة إسلامك.(١)

- ذكر الفئ ببدر والأسارى :

ثم إن رسول الله - (ﷺ)- أمر بما فى العسكر، مما جمع الناس ، فجمع، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جمعه : هولنا ، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم ، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله - (ﷺ)- مخافة - أن يخالف إليه العدو : واللة ما أنتم بأحق به منا ، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافة ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ولكنا خفنا على رسول الله- (ﷺ)- كرة العدو، فقمنا دونه، فما أنتم باحق به منا.

قال ابن إسحاق وحدثنى عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبى أمامة الباهلى واسمه صُدَىّ بن عجلان فيما قال ابن هشام قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله ، فقسمه رسول الله (ﷺ) بين المسلمين عن بواء يقول: على السواء.

---

(١) السيرة النبويه لابن كثير ٢/ ٤٥٨

قال ابن إسحاق وحدثني عبدالله بن أبي بكر قال حدثني بعض بني ساعده عن أبي أسيد الساعدي مالك بن ربيعة قال : أصبت سيف بني عائذ المخزوميين الذي يسمى المرزبان يوم بدر ، فلما أمر رسول الله - (ﷺ)- الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت حتى ألقيته في النفل ، قال : وكان رسول الله - (ﷺ)- لا يمنع شيئا سأله، فعرفه الأرقم بن أبي الأرقم ، فسأله رسول الله - (ﷺ)- ، فأعطاه إياه.(١)

فداء أسرى بدر:

كان الرسول - (ﷺ)- يفتدى أسرى بدر ، كل على حسب حالته المادية ، ومن لم يكن له مال وكان يعرف القراءة والكتابة ، كان فداؤه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وفي هذا إشارة إلى أن هذا الدين دين يحث على العلم والتعليم ، وكان المبلغ الذي جعل فداء للأسرى هو أربعة آلاف درهم ، ومن لم يكن معه هذا المبلغ قل هذا المبلغ إلى أن وصل إلى أربعمائة درهم.

وقد قال أبو داود: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العبسي ، حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا شعبة ، عن أبي العنبس، عن أبي الشعثاء ، عن ابن عباس ، أن رسول الله - (ﷺ)- جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة ، وهذا كان أقل ما فودى به أحدمنهم من المال ، وأكثر ما فودى به الرجل منهم أربعة آلاف درهم.

وقد وعدالله من آمن منهم بالخلف عما أخذ منه في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : **﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسري إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفرلكم الآية ﴾.**

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩

وقال الوالبى ، عن ابن عباس ، نزلت فى العباس ففادى نفسه بالأربعين أوقية من ذهب، قال العباس: فآتانى الله أربعين عبداً، يعنى كلهم يتجرله، قال: وأنا أرجو المغفرة التى وعدنا الله جل ثناؤه.

وقال ابن إسحاق: حدثنى العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله - (ﷺ) - يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق، بات النبى - (ﷺ) - ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام يا رسول الله ؟ فقال: سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله - (ﷺ) -.

قال ابن اسحاق: وكان رجلاً موسراً ففادى نفسه بمائة أوقية من ذهب.

قلت: وهذه المائة كانت عن نفسه وعن بنى أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو أحد بنى الحارث بن فهر، كما أمره بذلك رسول الله - (ﷺ) -: حين ادعى أنه كان قد أسلم فقال له رسول الله (ﷺ)أما ظاهرك فكان علينا، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك فادعى أنه لا مال عنده.

قال: «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل وقلت لها: إن أصبت فى سفرى فهذا لبنى الفضل وعبد الله وقثم»، فقال: والله إنى لأعلم انك رسول الله، إن هذا شئ ما علمه إلا أنا وأم الفضل، رواه ابن اسحاق عن ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير١/ ٤٦١/٤٦٢.

الذين أطلقوا من غير فداء من الأسرى يوم بدر :

قال ابن إسحاق: فكان ممن سُمّى لنا من الأسارى ممن مُنّ عليه بغير فداء، من بنى عبد شمس بن عبد مناف: أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى ابن عبد شمس، منّ عليه رسول الله - (ﷺ) - بعد أن بعثت زينب بنت رسول الله - (ﷺ) - بفدائه، ومن بنى مخزوم (بن يقظة): المطلب ابن حنطب بن الحارث بن عبيدة بن عمر بن مخزوم، كان لبعض بنى الحارث ابن الخزرج، فترك فى أيديهم حتى خلوا سبيله، فلحق بقومه.

قال ابن هشام: أسره خالد بن زيد، أبو أيوب الأنصارى، أخو بنى النجار[1].

افتداء أبى العاص بن الربيع وإسلامه :

وبعثت زينب ابنة النبى تفتدى زوجها أبا العاص بن الربيع، وكان فيما بعثت قلادة لها كانت خديجة أدخلتها على أبى العاص حين بنى بها، فلما رآها النبى - (ﷺ) - رق لها رقة شديدة، فقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، ثم إنه اتفق فيما بينه وبين أبى العاص على أن يفارق زينب وقد فرق الإسلام بينه وبينها، وبعث الرسول زيد بن حارثة وصاحبا معه فجاء بها إلى المدينة، على أن أبا العاص ما لبث بعد مدة إساره أن خرج إلى الشام فى مال قريش، حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سرية للرسول فأصابوا ما معه، فانحدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته، ورد المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمنا إلى مكة، فلما رده لأصحابه من قريش قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ٤٠٧/١ - ٤٠٨.

يأخذه ؟ قالوا: لا، جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت، وعاد إلى المدينة ورد عليه النبي زينب واستمرت قريش تفتدى أسراها، وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف، إلا من لا شئ عنده فقد منّ عليه الرسول بحريته[1].

وصول خبر انتصار المسلمين ببدر إلى كفار مكة :-

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعي فقالوا له: ما وراءك ؟ قل قُتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود ونبيه ومنبه وأبو البختري ابن هشام.

فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية: والله لن يعقل هذا فسلوه عني فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية ؟ قال: هو ذاك جالساً في الحجر قد و الله رأيت أباه وأخاه حين قتلا قال موسى بن عقبة ولما وصل الخبر أهل مكة وتحققوه قطعت النساء شعورهن وعقرت خيول كثيرة ورواحل.

وذكر السهيلي عن كتاب الدلائل لقاسم بن ثابت أنه قال لما كانت وقعة بدر سمع أهل مكة هاتفاً من الجن يقول:

أزار الحنيفيون بدرا وقيعة ... سينقض منها ركن كسري وقيصرا

أبادت رجالا من لؤي وأبرزت ... خرائد يضربن الترائب حسرا

فياويح من أمس عدو محمد ... لقد جار عن قصد الهدي وتحيرا

---

(١) حياة محمد ص٢٨٧.

قال ابن إسحاق: وحدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة مولى ابن عباس قال: قال أبو رافع مولى رسول الله: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت. فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت. وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق بين قومه. وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة وكذلك كانوا صنعوا. لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه رجلاً. فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزة قال: وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل الأقداح أنحتها فى حجرة زمزم فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رحليه بشر حتى جلس على طنب[1] الحجرة فكان ظهره إلى ظهرى فبينما هو جالس إذ قال الناس هذا أبو سفيان واسمه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم: قال: فقال: أبو لهب هلم إلىّ فعندك لعمرى الخبر. قال: فجلس إليه والناس قيام عليه فقال يا ابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟

قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا وايم الله مع ذلك مالمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض والله ما تليق[2] شيئاً ولا يقوم لها شئ.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدى ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة. قال: وثاورته[3]

(١) الطنب: الطرف   (٢) تليق: تبقى.

(٣) ثاورته: واثبته.

فاحتملنى. وضرب بى الأرض ثم برك علىّ يضربنى وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فبلغت فى رأسه شجة منكرة وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده.

فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة(١) فقتلته زاد يونس عن ابن اسحاق: فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى أنتن وكانت قريش تتقى هذه العدسة كما تتقى الطاعون حتى قال لهم رجل من قريش ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تدفنانه ؟ فقالا : إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة.

قال يونس عن ابن اسحاق: وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير: عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت لا تمر على مكان أبى لهب هذا إلا تسترت بثوبها حتى تجوز(٢).

وصول خبر انتصار المسلمين إلى المدينة :

لما انتصر المسلمون وعاد الرسول (ﷺ) وأصحابه فرحين بنصر الله إليهم وبما أفاء الله به عليهم فى هذه الغزوة وبالأسرى الذين أسروهم من كفار مكة وقبل أن يدخل الرسول إلى المدينة أرسل إليها ابن رواحة وزين بن حارثة يبشران الناس بنصر المسلمين.

---

(١) العدسة: قرحة قاتلة كانت تتشاءم بها العرب.

(٢) السيره النبوية لابن كثير ٤٧٣/٢.

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسوله وعلى المسلمين وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة. قال أسامة بن زيد فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية ابنة الرسول التى كانت عند عثمان بن عفان. كان رسول الله خلفنى عليها مع عثمان – أن زيد بن حارثة – قد – قدم قال: فجئته وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس وهو يقول: قُتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وزمعة بن الأسود وأبو البخترى العاص بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. قال: قلت: يا أبت أحق هذا ؟ قال: نعم والله يا بنى[1].

وقد دخل الرسول المدينة بعد وصول البشيرين إليها بيوم ودخلها الأسرى بعد دخول الرسول بيوم وعندما قدم الرسول إلى المدينة لقيه المسلمون بالروحاء يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين وفرح المسلمون فرحاً شديداً بنصر الله لهم وبما فتح الله عليهم فى هذه الغزوة.

---

(١) مختصرة سيرة ابن هشام ٣٩٩/١.

وفى ذكرى غزوة بدر أود أن أذكر بعض ما قاله والدى المغفور لـــه . الشيخ/ محمود أحمد هاشم فى هذه الغزوة الخالدة.

نبي سما في عقله و صفاته .·. ولنواره عمت فليس لها مدي
ولكن عيون الكفر لم تر نوره .·. وهل يبصر الأنوار من كان أرمدا ؟
فقام زعيم الكفر يبدي عناده .·. ويجمع للمختار جيشا من العدا
ويوغر صدر القوم للحرب والردي .·. وقد كان بدر للفريقين موعدا
فلما التقي الجمعان واشتدت الرحي .·. وحر وطيس الحرب أرغي وأزبدا
وخافت جنودالكفر من كل مسلم .·. وخاف بنو الإسلام ممن تمردا
توجه خير الرسل لله شاكيا .·. بلاء تغشاهم وكربا مجسدا

....

وما ينطق المختار باللفظ عن هوي .·. وما كان رب العرش يخزي محمدا
فأنزل أملاك السماء تحوطه .·. فكانت مع الإسلام جندا مجندا
وما زالت الأملاك ترمي سهامها .·. علي جند أهل الشرك حتي تبددا
وجاء رسول الله والصحب خلفه .·. لمن أهلكوا في يوم بدر من العدا
ونادي عليهم واحدا بعد واحد .·. وردد أسماء الجميع وفندا
لقد جاء وعد الله حقا لجمعنا .·. فهل قد وجدتم صدق ما كان أوعدا
وقال الي الأصحاب لما تعجبوا .·. فوالله ما أنتم بأسمع للندا
ولكنهم لم يستطيعوا إجابة .·. فكل جليس القول أمسي مقيدا
أيا غزوة قد كنت درسا وعبرة .·. ووعظا لمن بالوعظ والعبرة اهتدي
أبنت بأن المرء إن يدع ربه .·. يكن من إله العالمين مؤيدا
أبنت لنا أن التعاون سلم .·. ينال به الإنسان فوزا وسؤددا
أبنت بأن المخلصين لربهم .·. يكون لهم بحر العناية موردا
ومن يرتشف ماء العناية لم يخف .·. جيوشا تعاديه ولم يخش حسدا

غزوة بنى سليم

عاد الرسول (ﷺ) من غزوة بدر بنصر الله الذى أيده به ففرح وفرح المسلمون بهذا النصر ولكنه (ﷺ) خاف أن يركن المسلمون إلى هذا النصر وينسون مهمة الجهاد التى وكلت اليهم فلم يقم فى المدينة بعد بدر إلا سبعة أيام ثم غزا بنى سليم. قال ابن إسحاق: وكان فراغ رسول الله (ﷺ) من بدر فى عقب شهررمضان أو فى شوال. فلما قدم المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم.

قال ابـن هـشام: واستعمل على المدينـة سباع بن عُرفـطـة الغفارى أو ابن أم مكتوم.

قال ابن إسحاق: فلما بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليالٍ ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وأفدى فى إقامته تلك جُلّ الأسارى من قريش (١).

غزوة ترترة الكدر وتسمى أيضاً غزوة السويق

كانت هذه الغزوة فى شهر ذى الحجة آخر السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر بشهرين تقريباً. وذلك لأن أبا سفيان بعد هزيمة بدر قد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (ﷺ).

وكان بعض العرب يقيمون بعضاً من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مثل رفع الجنابة والحج والنكاح فلذلك لا نستغرب قول أبى سفيان فى الحديث عن الجنابة.

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ١/ ٤١٠ والسيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٥٣٩.

قال ابن إسحاق: وكان أبو سفيان كما حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ويزيد ابن رومان ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان من أعلم الأنصار حين رجع إلى مكة ورجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبّر يمينه حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: نيّب من المدينة على بريد أو نحوه ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حييّ بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه فانصرف عنهم إلى سلام بن مشكم وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك وصاحب كنزهم فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطّن له من خبر الناس ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً من قريش فأتوا ناحية منها يقال لها: العريض فحرّقوا فى أصوار [١] من نخل بها ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما وانصرفوا راجعين [٢].

ولما سمع رسول الله (ﷺ) بما فعله أبو سفيان ومن معه خرج (ﷺ) وأصحابه واستعمل على المدينة أبا لبابة وهو بشير بن عبد المنذر.

وخرج الرسول (ﷺ) حتى وصل قَرقَرة الكُدْر [٣] - قال السهيلى والقَرقَرة الأرض الملساء والكدر طير فى ألوانها كدرة وعند وصول الرسول (ﷺ) هذا الموضع عسكر فيه هو وأصحابه، وكان أبوسفيان بعد أن فعل فعلته فر هارباً هو ومن معه ومن شدة فزعه وخوفه من أن يلحق به الرسول (ﷺ) وأصحابه بدأ يرمى السويق [٤] الذى كانت تحمله الجمال طعاماً لمن معه وذلك

---

(١) جمع صور وهو جماعة النخل الصغار.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٥٤٠.

(٣) موضع بناحية المعدن بينها وبين المدينة ثمانيه بُرد. والبرد حوالى خمسة كيلو تقريباً.

(٤) السويق: هو طحين الحنطة (القمح) أو الشعير. وكان يمزج بالماء أو باللبن أو بالسمن أو بالعسل ويؤكل.

ليخف الحمل عن الجمال فتسير بسرعة. ولذلك كان الرسول (ﷺ) وأصحابه كلما ساروا وجدوا سويقاً من أزواد القوم قد طرح فأخذه المسلمون. ولذلك أطلق على هذه الغزوة غزوة السويق وذلك لكثرة السويق الذى أحرزه المسلمون فى هذه الغزوة.

ولما لم يلق المسلمون قتالاً طمعوا أن يكون لهم ثواب فى هذا الخروج فقالوا: يا رسول الله: أتطمع أن تكون لنا هذه غزوة. قال: نعم.

زواج الأمام على بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء

بعد غزوة بدر بدأ الأمر يستقر للمسلمين وقد غنموا فى هذه الغزوة مغانم كثيرة وأسرى أفتدوا أنفسهم بالأموال فبدأت الحياة تنسم بعض الشئ خاصة للمهاجرين الذين قدموا المدينة ولا يملكون شيئا فبعد الفيئ وتقسيمه وكان للرسول (ﷺ) خمسة ولكن هذه الأموال لم تكن بالكثرة التى تجعل الحياة فى رفاهية ولكنها جعلتهم يستطيعون القيام ببعض مطالب هذه الحياة. ففى هذه الفترة تقدم الإمام على بن أبى طالب ابن عم الرسول (ﷺ) والذى تربى فى حجر النبوة فى بيت الرسول (ﷺ) والسيدة خديجة أم السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين.

قال البيهقى فى الدلائل: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثنى عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد عن على قال: خطبت فاطمة إلى رسول الله (ﷺ) فقالت مولاة لى: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله (ﷺ) ؟ قلت: لا قالت: فقد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول

الله (ﷺ) فيزوجك. فقلت: ماعندى شئ أتزوج به. فقالت: إنك إن جئت رسول الله (ﷺ) زوجك. قال: فوالله ما زالت ترجينى حتى دخلت على رسول الله فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة.

فقال رسول الله (ﷺ) : ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكت فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقلت: نعم فقال: وهل عندك من شئ تستحلها به؟ فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: ما فعلت بدرع التى سلحتكها؟ فو الذى نفسى بيده إنها لحطمية ما قيمتها أربعة دراهم فقلت: عندى : فقال قد زوجتكها فأبعث إليها بها فاستحلها بها. فكانت لصداق فاطمة بنت رسول الله.

قال ابن إسحاق: فولدت فاطمة لعلى حسناً وحسيناً ومحسناً. مات صغيراً وأم كلثوم وزينب. ثم روى البيهقى من طريق عطاء بن السائب عن أبيه عن على قال: جهز رسول الله فاطمة فى خميل وقربة ووسادة أدم حشوها إذخر(١).

غـزوة ذى أمـر

كانت هذه الغزوة فى أول السنة الثالثة من الهجرة وكانت بعد غزوة السويق بقليل وذلك أن الرسول (ﷺ) بلغه أن جمعاً من غطفان تجمعوا يريدون حربه فخرج إليهم فى أربعمائة وخمسين رجلاً.

قال ابن إسحاق: فلما رجع رسول الله (ﷺ) من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجد يريد غطفان وهى غزوة ذى أمر(٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٤٥.

(٢) ذو أمر موضع من ديار غطفان وقال ابن سعد بناحية النخيل.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة عثمان بن عفان.

وأما عن سبب هذه الغزوة قال الواقدي: بلغ رسول الله أن جمعاً من غطفان من بني ثعلبة بن محارب تجمعوا بذي أمر يريدون حربه فخرج إليهم وهربت منه الأعراب في رؤس الجبال حتى بلغ ماء يقال له: ذو أمر فعسكر به وأصابهم مطر كثير فابتلت ثياب رسول الله فنزل تحت شجرة هناك ونشر ثيابه لتجف وذلك بمرئى من المشركين فعندما رآه المشركون بعثوا رجلاً شجاعاً منهم يقال له: غورث بن الحارث أو دعثور بن الحارث فقالوا: قد أمكنك الله من قتل محمد فذهب ذلك الرجل ومعه سيف صقيل حتى قام على رسول الله بسيف مشهور فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال الله. ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله فقال من يمنعك مني؟ قال لا أحد وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً فأعطاه رسول الله سيفه فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك مالك؟ فقال نظرت إلى رجل طويل فوقع في صدري فعرفت أنه ملك وشهدت أن محمداً رسول الله.

والله لا أكثر عليه جمعاً. وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾(١).

قال البيهقي وسيأتي في غزوة ذات الرقاع قصة تشبه هذه فلعلهما قصتان وقال: الإمام بن كثير هذه القصة غير تلك القصة(٢).

(١) سورة المائدة الآية (١١).

(٢) نقل بتصرف السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤.

غزوة الفرع من بحران

عاد الرسول (ﷺ) من غزوة ذى أمر فى شهر ربيع الأول فأقامه بالمدينة ثم خرج يريد قريشاً واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

قال ابن إسحاق: حتى بلغ بحران[1] من ناحية الفرع[2]. فأقام بها شهر ربيع ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وقال الواقدى: إنما كانت غيبته عليه السلام عن المدينة عشرة أيام[3].

إجلاء بنى قينقاع

بعد غزوة بدر بدأ الأمر يستتب فى المدينة للرسول (ﷺ) وأصحابه وبدأت تكون لهم اليد العليا فى المدينة وهذا الأمر لم يعجب اليهود فبدأوا ينقضون عهدهم كعادتهم وبدأوا يظهرون عداوتهم للمسلمين وبدأوا فى استفزاز المسلمين ومن ذلك ما حدث أن امرأة من الانصار ذهبت الى سوق بنى قينقاع. وذهبت إلى صائغ لتشترى منه فأساءوا معاملتها.

قال ابن هشام: وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبى عون قال: كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب[4] لها فباعت فى سوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت

---

(١) بحران موضع بالحجاز من ناحية الفرع.

(٢) الفرع بضمتين هى قرية من ناحية المدينة وهى أول قرية مارت اسماعيل وأمه التمر بمكة.

(٣) مختصرة سيرة ابن هشام ٤١٢/١.

(٤) جلب: ما يجلب الى السوق من المتاع أو الغنم ونحوه ليباع فى السوق.

سوأتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً وشدت اليهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع. فلما علم النبى (ﷺ) جاءهم فى سوق بنى قينقاع وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا يا محمد إنك ترى أنّا قومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنّا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس[1].

وبعد قولهم هذا لسيدنا رسول الله وتبجحهم وسوء معاملتهم للرسول نفسه فضلاً عن باقى المسلمين فلم يبق بعد ذلك إلا مقاتلتهم وذلك لئلا يتعرض سلطان المسلمين فى المدينة لهزة قد تهوى به خاصة بعد أن رفع سلطان المسلمين بانتصارهم فى غزوة بدر.

خرج الرسول (ﷺ) ومن معه من المسلمين وحاصروا بنى قينقاع فى دورهم خمسة عشر يوماً لا يخرج منهم أحداً ولا يدخل عليهم بطعام أحد. حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم الرسول والتسليم بقضائه وشاور الرسول أصحابه فى أمر بنى قينقاع فرأوا أن يقتلوا جميعاً وهنا تدخل عبدالله بن أبى بن سلول وكان حليفا لليهود كما كان حليفا للمسلمين وقال يا رسول الله أحسن فى موالىّ وكرر الطلب وألح فى طلبه هذا وأيضا جاء إلى رسول الله عبادة بن الصامت الذى كان حليفاً لليهود يطلب منه أن يعفو عن اليهود فاستجاب الرسول له ولعبد الله بن أبى على أن يجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاءً لهم على صنيعهم وقد

(١) مختصر سيرة ابن هشام ١/٤١٣.

حاول ابن أبى أن يحدث الرسول فى بقائهم فى المدينة ولكن المسلمين حالوا بينه وبين الوصول الى رسول الله حتى شجوا رأسه فقالت بنو قينقاع والله لا نقيمَ ببلد تشجع فيه يا ابن أبى ولا نستطيع عنك دفاعاً فخرجوا من المدينة منفذين لأمر رسول الله وسرعان ما تبرأ منهم عبادة بن الصامت وخلع حلفهم وتركوا وراءهم أسلحة كثيرة وأدوات الذهب التى كانوا يصفون بها وكانت هذه الأشياء غنيمة للمسلمين وعندما خرج اليهود من المدينة لقاموا فى وادى القرى زمنا ثم ساروا جهة الشمال حتى بلغوا أزرعات على حدود الشام وأقاموا بها.

وفى أمر اليهود وإدعائهم القوة نزل قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[١].

ونزل فى موالات عبد الله بن أبى لهم قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٢].

ونزل فى براءة عبادة بن الصامت من محالفتهم وتولية الله ورسوله والذين آمنوا قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[٣]،[٤].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢.

(٢) سورة المائدة الآية٥١.

(٣) سورة المائدة الآية٥٦.

(٤) راجع حياة محمد صـ٢٩٢ وكتاب المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة صـ٤٧٧.

سرية زيد بن حارثة .

كانت هذه السرية بعد غزوة بدر الكبرى بستة أشهر وذلك لأن قريشاً بعد غزوة بدر فكروا فى تغيير طريق تجارتهمْ إلى الشام فبدلاً من أن يسلكوا طريق الساحل الذى يمر قريباً من المدينة غيروا هذا الطريق وأرادوا أن يسلكوا طريق العراق واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له فرات بن حيان العجلى حليف بنى سهل ليدلهم على تلك الطريق وكانت هذه التجارة فيها فضة كثيرة وأموال بلغت قيمتها مائة ألف دينار وكانت هذه القافلة بصحبتة صفوان بن أمية . وقد علم الرسول بنبأ هذه القافلة من سليط بن النعمان الذى علم بهذا النبأ من نعيم ابن مسعود الذى قدم من مكة وهو على دين قومه واجتمع مع يهود من بنى النضير وشرب معهم الخمر وعندما سكر ذكر قصة خروج صفوان بن أميه وما معه من أموالٌ والطريق الذى تسلكه القافلة فعندما أخبر سليط الرسول أرسل زيد ابن حارثة فى مائة مقاتل من المسلمين ليتعرضوا لتلك القافلة .

قال ابن إسحاق: فبعث الرسول زيد بن حارثة فلحقهم على ماء يقال له القردة[1] فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال وإنما أسروا رجلا او رجلين وكان فيمن أسر دليل المشركين وهو فرات بن حيان وأسلم .

أما عن العير والأموال فقسمها رسول الله خمسة أقسام جعل الخمس لله وللرسول والأربعة أخماس للسرية التى أتت بهذا المال وكان لهذه السرية أثر عظيم فى قلوب المسلمين لأنها كانت تعتبر أول غنيمة ذات قيمة يصيبها المسلمون .

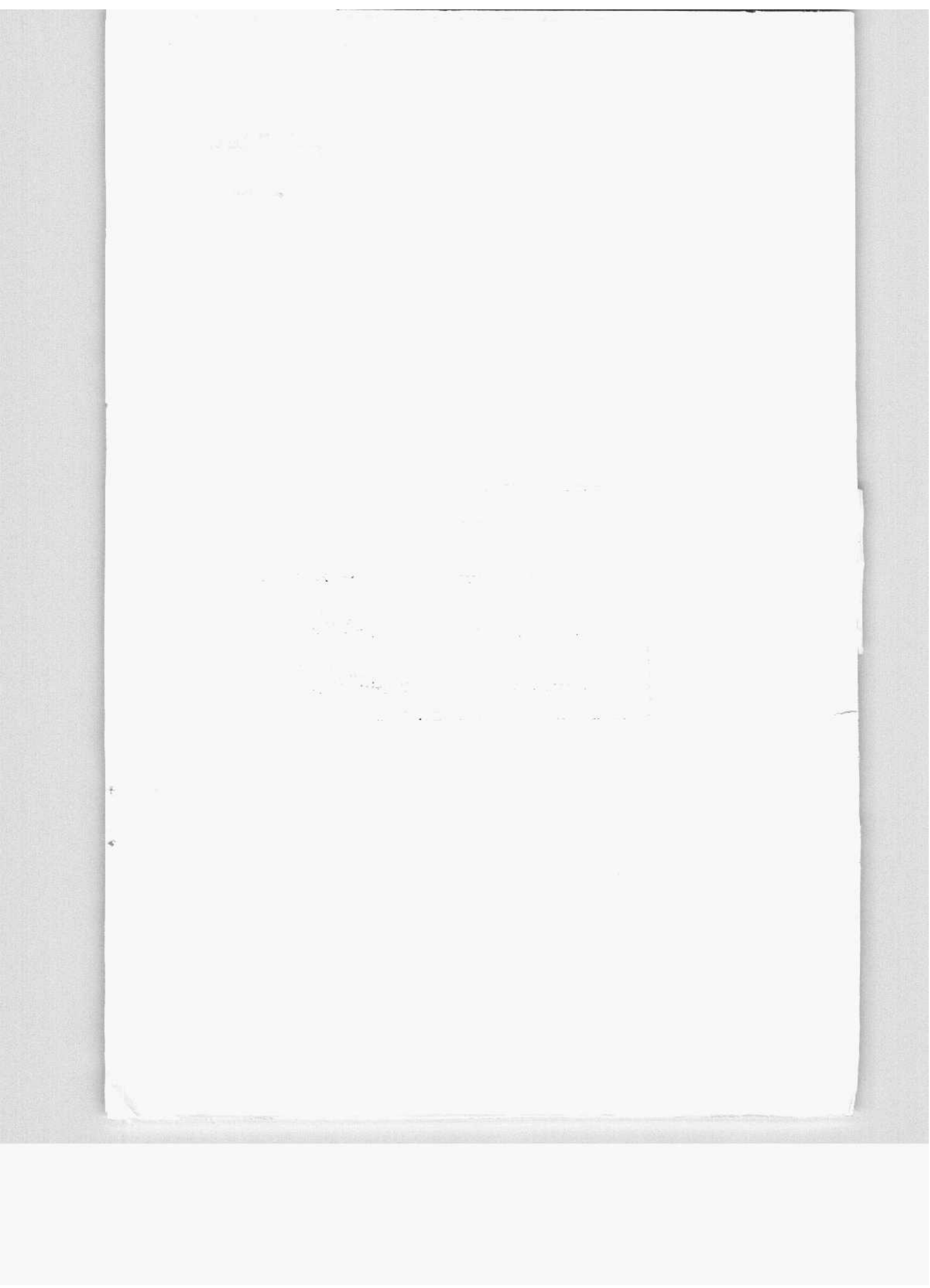
---

(١) ماء من مياه نجد .

جامعة الزقازيق

كلية التربية

الاسم : ....
الفرقة : ....
الشعبة : ....
رقم الجلوس : ....



س١ اذكر أقوال العلماء فى ترتيب آيات القرآن وسوره هل هو توقيفى أم توفيقى؟

س٢ تكلم عن حلف الفضول ومشاركة النبي -صلى الله عليه وسلم - فيه .